The History of Man

تاريخ رجل

سيبيواي جلوريا إندلوفو

ترجمة: وسام حسن

مكتبة
Telegram Network

عصير الكتب

تاريخ رجل

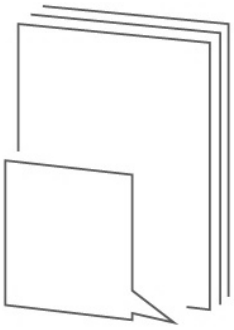

منحة الترجمة
Translation Grant

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: The History of Man
- العنوان العربي: تاريخُ رجُل
- طُبِع بواسطة: Penguin Random House South Africa (Pty) Ltd
- طُبِع بواسطة: شركة بنجوين راندوم هاوس جنوب إفريقيا المملوكة محدودة المسؤولية
- حُقوق النشر: 2020، سيفيوي جلوريا ندلوفو
copyright © 2020 by Siphiwe Gloria Ndlovu
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: وسام حسن
- تدقيق لغوي: سلسبيل بهاء الدين
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: مايو / 2022م
- رقم الإيداع: 2022/3423م
- الترقيم الدولي: 978-977-6972-02-5

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» لتجارة الكتب
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

The History of Man

تاريخ رجل

سيبيواي جلوريا إندلوفو

ترجمة: وسام حسن

عصير الكتب

«مكتبة ♔ النخبة»

تمهيد

كان إيميل كويتزي يغسل يديه من الدماء عندما وصلت أخبار وقف إطلاق النار في الحادي والعشرين من ديسمبر 1979، وقبل أن يُغلقَ صنبور المياه الباردة، راقبَ اندلاق المياه الصَّدئة التي كادت تملأ حوض الغسيل المطلي بالمينا الأبيض، لم يكن الإغلاق مُحكَمًا، فواصَل الماءُ دلَفَه بقطراتٍ انصبَّت محمَّلة بذكريات، غرغرتِ المياه في البالوعة، واختفت في دوَّامة. أمسك إيميل السدادة السوداء التي ما زالت معلقةً بأعجوبة بالمغسلة، سحَبَها من سلسلتها المعدنية ليسدَّ البالوعة، ويفتح صنبور المياه الساخنة التي ملأت الحوض حتى منتصفه، ودون أن ينظر، مدَّ كويتزي يده إلى زجاجة السائل الطبي تحت المغسلة، وسكَب قليلًا منه في الماء الذي فاضَ بسحابة تطهيرٍ واضحة، غمرَ يديه في الماء لتسري في بشرته المشققة لسعات منعِشَة، على أيِّ حال، لم يكن إيميل بيلاطسَ البنطي، ففرك يديه بلوح صابون أكسبهما مظهرًا نضرًا وأحمر، وبينما راح يجففهما بفوطة قماشية ذات لون أبيض باهت، قرر كويتزي الاستقالة من عمله في مؤسسة الشؤون الداخلية.

وكعادته تجاهل إيميل الزجاجة المزودة بمضخة أرجوانية بين الصنبورَين، والتي نادرًا ما يستخدم محتواها من غسول اللانولين برائحة اللافندر، لطالما رأى في وجودها الغريب هناك مزحةً سمجةً، فحوض الغسيل بالتأكيد ليس مكانًا مناسبًا لأيِّ شيء طيب الرائحة.

وقبل مغادرة الغرفة ألقى إيميل نظرةً سريعة -اعتادها- على انعكاس وجهه في المرآة الشاحبة فوق الحوض، وللمرة الأولى يكتشف كويتزي نصالَ التعب والإرهاق التي حفرت وجهَهُ الخمسيني أكثر من أيِّ رجل آخر في مثل عمره، بعد فيض الكبرياء وعزيمة الشباب والإصرار، ألم يكن حريًّا به التحلي بثقة أكبر بنفسه، أمْ أنها خصلة محجوزة لنوع معين من الرجال الذين لن يكون من بينهم قط؟

حدَّق إلى عينيه باحثًا عما تخفيانه، فلم يرَ شيئًا البتة! حتى في مثل هذا اليوم، بدت نظرات عينيه مبهمةً بلا تعبير.

ألقى إيميل نظرةً أخيرة على الغرفة الخرسانية المظلمة بلونها الرمادي، ومصباحها العاري يتدلى ليحتضن بنوره الغرفة وأثاثها القديم بترحيبٍ بارد، لم تحتوِ الغرفة على أيِّ شيء لافت، فكانت أشبه ببوتقة رجولته، حاول إيميل التصالح مع هذه الحقيقة، قبل أن يُطفئ المصباح ويغلق الباب خلفه بإحكام، مُخرسًا أصوات قطرات الدَّلف من الصنبور.

وبدلًا من درجات الطوابق الستة وصولًا إلى مكتبه، اختار كويتزي المصعدَ الذي اعتاد تجنُّبه هو ورفقته التي يفرضها التقارب، على أيِّ حال، ومع توارد

أخبار وقف إطلاق النار، شعر أن أجواء المصعد ستكون كئيبة وقاتمة بما يكفي ليأخذ الناس في الاهتمام ببعضهم، وتملَّكته رغبةٌ مشاكسة ومفاجئة ليتحوَّل إلى محط أنظار الناس حقًّا! لقد أراد، ولو لمرة واحدة فقط، أن يلاحظ الآخرون آثار بقع الزيت على حذاء فيلت سكونا الجلدي الذي ينتعله، وأن يعرفوا –لا أن يخمِّنوا– ما قام به طيلة هذه السنوات.

وإضافة إلى العامل، صادف دخول كويتزي إلى المصعد وجود سيدتين مسنتين تفوح منهما رائحة ماء الورد ومسحوق التلك، ورجل طويل القامة يرتدي بدلة سفاري زرقاء، وامرأة سمراء تتزين بأحمر شفاه نبيذي مع تصفيفة شعر مستوحاة من الممثلة فرح فوسيت، كانت تخمينات إيميل محِقَّة؛ ففي الصمت المطبق على المصعد أدرك كويتزي أنه لم يكن وحيدًا في شعوره المفاجئ بالتعلق في الهواء، لقد منحتهم الحرب كل شيء: هوية وهدفًا ودولة، ما جعلهم يحسُّون بانتماءٍ كان عصيًّا عليهم من قبل، وجاء وقف إطلاق النار ليمحو كل ذلك سريعًا، ودون أيِّ تردُّد.

كان إيميل على معرفة بجميع الموجودين في المصعد: السيدتان المسنتان؛ برودنس وبرونيللا بيكفورد، هما العَمَّتان العانسان للارس بيكفورد الرجل الظريف الذي عمِلَ في قسم المعالجة في الطابق الثالث، والرجل ببدلة السفاري هو ساموبل ليفي الذي عمل في قسم الحسابات في الطابق الخامس، والسمراء سيسيليا تشاتسورث هي خطيبة كلود ماك كلاود الذي كان يعمل في قسم الكمبيوتر في الطابق الثاني، وربما تزوجا مؤخرًا لوجود خاتم في إصبعها، كان إيميل يعرف قسمًا من تاريخ كل واحد منهم: فالعانسان تولتا تربية لارس منذ كان صغيرًا بعد وفاة والديه في حادث طريق، وكانتا تُحضِران له مخبوزات طازجة يوميًّا ليتناولها مع الشاي عند الساعة العاشرة، واعتاد ساموبل ليفي ارتداءَ بدلات السفاري المصنوعة من قماش البوليستر بألوان الباستيل، وكان مُولعًا بالكتب، وتعرَّض للطرد مرتين قبل تعيينه في مؤسسة الشؤون الداخلية لهذه الموهبة بالذات، واعتقدت سيسيليا تشاتسورث -أو السيدة كلود ماك كلاود- أن الدولة ستؤول للكلاب في نهاية المطاف، وقد استقالت مؤخرًا من وظيفتها كأمينة صندوق في بنك جمعية البناء في وسط إفريقيا، وتقضي وقتها الآن في الضغط على كلود للهجرة إلى جنوب إفريقيا.

خمَّن إيميل أن دعوة زفاف ماك كلاود ضاعت منه في كومة الرسائل والمراسلات التي لم يكلف نفسه عناء فتحها منذ أن هجَرَتْهُ كوكي، لطالما كانت هي المسؤولة عن التعامل مع جدولهما الأسبوعي الحافل بالمناسبات الاجتماعية، وترتيب حياتهما المزدحمة بالأشغال. جميع من في المصعد -وحتى العامل- كانوا على علم بانفصالهما، ففي مدينةٍ بحجم سيتي أوف كينجز يصعب إخفاء أخبار الجيران وشؤونهم الخاصة. ومع شعور مبرَّر بالازدراء

حرصت السيدة كلود ماك كلاود على عدم لفت انتباه إيميل، لكن عينيها وقعتا للأسف على قدميه، وقبل أن تتمالك نفسها التقت عيناها مع عينَيْ كويتزي عند خروجها من المصعد على عجَل في الطابق الثاني، توقَّع أن يُثير حذاؤه الملطخ بالدماء نظرات الرعب، ولكن السيدة كلود ماك كلاود رمته بنظرة شفقة أجبرته على دس يديه في جيبيه كما لو أنه يخفيهما.

عندما نزل إيميل في الطابق السادس أومأ برأسه إلى العامل الذي شعر بالإطراء وابتسم بارتياح دفع إيميل لمحاولة تذكُّر اسم الشاب، لقد قاله عدة مرات بناءً على طلب إيميل عندما اعتادا تبادل تحية الصباح يوميًّا، قبل أن يقرر كويتزي صعود الدرج، لكن ذاكرته لم تُسعِفْهُ بالاسم، كان من تلك الأسماء الإفريقية ذات المقاطع الصوتية المتعددة، والكثير من الحروف الساكنة... إنه اسمٌ أقرب لـ «سيبونوبولي...» لا، لا، لا، لم يكن ذلك اسمه، وإنما أسلوبه المضجر في الكلام. استطاع أن يبادل العامل الابتسامةَ قبل أن يغلق الباب، وهو تقدُّمٌ جيد على أقل تقدير.

في يومه الأخير مديرًا لمؤسسة الشؤون الداخلية دخل إيميل كويتزي وجلس خلف مكتبه، التقط كرة سوداء في داخلها تشكيلٌ مدورٌ ولامع متعدد الألوان، يبعث الإحساس بالنظر في دوامة، اعتقدَ –غير جازم– أنها هدية من ابنه إيفرلي، ومع أنه لا يتذكر تلقيها، بدت الكرةُ من الأشياء الجميلة التي قد يرغب ابنه في تقديمها له، أو –بشكل أكثر دقة– كان ليقدِّمها له عندما كان أصغر سنًّا، وجد إيميل هذه الكرة مؤخرًا فوق كومة منسية من مجلات ناشيونال جيوغرافيك في حجرته الخاصة في منزله، وقرر إحضارها إلى المكتب لاستخدامها في تثبيت الورق.

ومن تحت الكرة التي يخالها هديةً من ابنه، سحب إيميل الرسالة الوحيدة التي تلقَّاها منه، كان يحفظ كلماتها عن ظهر قلب فلم يعد مضطرًّا إلى قراءتها، لكنه أحب وزن وملمَس الورقة التي أصبحت هشةً بين يديه، حاول إيميل في أثناء قراءة الرسالة إبعاد نظره عن يديه.

تحققت أمنيتك أخيرًا، لطالما أردتَني أن أقتل شيئًا، وقد فعلتُ ذلك الآن.

أرجو أن تكون فخورًا بي أخيرًا، لقد أصبحتُ الابن الذي لطالما أردتَه.

كان يقرأ النهاية بصوتٍ عالٍ دائمًا، ويسمح للكلمات بأن تضج في صمت المكتب، وعلى الرغم من ارتعاش يديه بعد الانتهاء من قراءتها، استطاع إيميل طي الرسالة بعناية ووضعها تحت الكرة التي ربما تكون هدية من ابنه.

أصبحت قراءة رسالة إيفرلي تشغل النصف الأول من طقوس صباحاته، وفي نصفها الثاني يسحب إيميل الدرج العلوي من مكتبه ليجلب حقيبته الصغيرة، ويفتحها بيدين ثابتتين مُخرجًا خمس أوراق ملاحظات مكتوبة بخط مائل نحو اليسار على ورق سماوي اللون، يضع الأوراق على سطح المكتب وفق ترتيب استلامها.

المنزل رقم 1. بايونير رود.

«في العقل حوضٌ تطوف فيه الكلمات حول فكرة، والفكرة حول صوتٍ ورؤية، ومن ثم يأتي عُمقٌ لا تمسُّه الكلمات، وفجوة مشاعرَ خَرِبةٍ أعمق لا تمسُّها الأفكار».[1]

– زورا نيل هيرستون.

«توجد سنوات لطرح الأسئلة، وأخرى للإجابة عنها».

– زورا نيل هيرستون.

دعنا نتقابل، ينبغي أن نتكلم. إتش آند إس[2]. الجمعة الساعة 2 ظهرًا.

«عندما خلق الله الإنسان، صيَّره من عناصر دائمة الغناء واللمعان، ما أجَّج غيرة بعض الملائكة، فقطعوه إلى ملايين الأجزاء، ولكنه بقيَ على تألقه وشدْوِه، فحقَّروه وحوَّلوه إلى شذرات صغيرة، لكنها بقيت تشع وتغني، فغطوا كل واحد بالطين، لكن وحدة الشذرات وانعزاليتها دفعتها للبحث عن بعضها بعضًا».

– زورا نيل هيرستون.

حقيقة إيميل الرجل كانت كامنةً في موضعٍ ما بين رسالة ابنه، وأوراق الملاحظات الخمس من المرأة التي أحبها، تمنى لو استطاع تحديد هذه النقطة بالضبط ليرسم ملامح أكثر ثقةً واكتمالًا عن نفسه، وكغيره من الرجال في الخمسينيات من أعمارهم أراد الحصول على طمأنينة دون جدوى، تخيلَ هؤلاء الرجال وهم ينظرون إلى ملامحهم المنعكسة في المرايا، وما يتملكهم من أحاسيس مثل الرضا، أو الثقة أو الاستكانة.

في المناسبات النادرة التي نظر فيها إلى نفسه في المرآة لم يشعر إيميل قط بأيِّ شيء محدد، كان عالمه الداخلي مليئًا بمواقف معلقة لم تمنحه الاستقرار، طوال حياته اقتصرت قدرته على استيعاب الأمور بعموميتها، دون الغوص في اختبار حقيقي لكليتها، وها قد وجد نفسه في خضم شيء بدأ للتو، كان قادرًا على التحوُّل بسهولة شديدة إلى نوع آخر من الرجال، فقط لو عرف كيف يكون أيَّ شيء آخر غير نفسه.

نقرةٌ على الباب كانت كفيلةً بقطع سلسلة أفكار إيميل، وقبل أن يتفوه بكلمة، دخلت شابة إلى المكتب بسترة عسكرية، وسروال قصير كاكي اللون، وقميص داخلي أبيض بلا أكمام أو حمالات صدر تحته، كانت تنتعل حذاءً للطرق الوعرة، وعلى كتفها اليمنى تدلت حقيبة ظهر بلا مبالاة، وبشكل موضوعي لاحظ إيميل أن إطلالتها مدروسة جدًّا للفت انتباه الرجال.

بادرته الشابة بابتسامة، ومدت يدها لمصافحته، حاول إيميل في أثناء المصافحة تجنُّب النظر إلى إحدى أسنانها الأمامية التي مال لونها نحو الرمادي

الباهت، تفحَّص وجهها بالكامل ولاحظ أنها أكبر سنًّا مما بدت أول وهلة، واستشعرَ قسوةً لا بد وأنها تولدت نتيجة خيبات أملٍ ضرورية لفتاة في سنها.
ومع دخول الشابة فاحت رائحة عطرٍ تبعث على الغثيان، كرائحة ورود عفنةٍ علقت بقوة في الهواء، وملأت المكتب سريعًا.
- اسمي ساسكيا هارجريف، صحفية لدى ذا كرونيكل.
قالت جملتها وهي تجلس قبالة إيميل على الرغم من أنه لم يدعها إلى ذلك.
- أود تدوين قصتك لتكون المقال الرئيسي في ذا صنداي نيوز.
هذا هو السر إذًا وراء سلوكها العدواني، لقد فرضت سيطرتها على المساحة المحيطة بهما لأنها أرادت التحكم بما سيجري بعد ذلك، وحصره في الزاوية لمنعه من الرفض، قال إيميل:
- قصتي؟ ليست لديَّ قصة.
- أنت إيميل كويتزي، مدير المؤسسة.
ردت ساسكيا كما لو أنها تُبلغُه الخبر.
- بالطبع لديك قصة ترويها، فأنت واحدٌ من أبطال البلد.
- لا بد وأن الدولة في وضع سيئ حقًّا ليصبح رجل مثلي واحدًا من أبطالها.
بدت ساسكيا حائرةً للحظة قبل أن تتغلب على ارتباكها، وقالت:
- آه، فهمت. إنه التواضع، يا لها من لمسة لطيفة.
فتحت حقيبتها وأخرجت دفتر ملاحظاتها وقلمها، وبدأت تدوين كلمات على عَجل، ثم حدَّقت إلى عينيه وابتسمت.
- آنسة هارجريف...
قالها إيميل بأقصى ما استطاع من لباقة.
- صدقًا، لا أملك قصة أرويها لك.
- لكنك رجل الساعة.
قالت عبارتها مع ابتسامة مرتعشة قليلًا، لم يستطع إيميل تحمُّل رائحة الورود العفنة أكثر، فاعتذر ليفتح نافذة كبيرة ووقف بجانبها قليلًا، واستنشق بامتنانٍ بعضًا من هواء سيتي أوف كينجز الملوث.
أصبحت الصورة أكثر وضوحًا لإيميل؛ اعتقدت ساسكيا هارجريف أنه يتصنع التواضع للحصول على الإطراء الذي لم تبخل به، على أي حال، لم تكن جيدةً في التملق، تلك الأداة التي لم تضمها إلا مؤخرًا إلى ترسانتها، وحتى وقت قريب، دفعها الغرور الشديد للاعتماد على شبابها وجاذبيتها، ما سهَّل عليها لفت انتباه الرجال، لكنها لم تعد شابة، ووقعت الآن في حيرة لأنها وضعت كل قوتها وثقتها بنفسها في عاملٍ سريعِ الزوال -الشباب-.
ومع ذلك كانت ساسكيا واثقة من أن شبابها وجاذبيتها أداتان كافيتان لاستمالة رجل في مثل سنه؛ رجل لا بد وأنه يتوق لتذوق الشباب، لهذا السبب

لم ترتدِ حمالة الصدر، أرادته أن يعرف منذ اللحظة الأولى أنها متاحة له جنسيًّا، وكانت متأكدةً تمامًا من نجاح تكتيكها لدرجة أنها لم تحضِّر نفسها لأي سيناريو آخر.

يعرف جميع سكان سيتي أوف كينجز أن إيميل ليس قديسًا، وعلى الرغم من خطاياه فقد وجد امرأته المخلِّصة منذ فترة طويلة، نظر خِلسة تجاه أوراق الملاحظات سماوية اللون على مكتبه، وتساءل عن كيفية إعادتها إلى حقيبته الصغيرة دون أن يلفت الانتباه، ساسكيا هارجريف فضولية جدًّا، ومن الأفضل أن يبقى قريبًا من النافذة ليمنع تحويل نظرها تجاه المكتب ومحتوياته.

- الأحوال تتغير في الدولة يا إيميل وبسرعة، وقد يغيب رجال من أمثالك طي النسيان في غضون عام أو اثنين، ألا تريد أن يتذكرك الناس؟

هل أراد أن يتذكره الناس؟ لقد مرت عليه أوقات اقتصرت فيها هواجسه على إحداث تأثير طويل الأمد؛ أن يكون واحدًا من رجالات التاريخ، وبعد تحقيق حلمه، تيقن أنه كان عليه اختيار شيء آخر في حياته.

- تريد أن يتذكرك الناس، أليس كذلك؟

كررت ساسكيا هارجريف سؤالها مع نبرة شك في صوتها.

- ليس بالضبط، على الأقل ليس للأشياء التي يعرفها الناس عني... والأحداث الكبيرة في حياتي، أريد أن ترتبط ذكرايَ بأكثر الأشياء هدوءًا... وصدقًا... في حياتي، لا أريد قصة أرويها للناس... أنا بحاجة إلى شخص ما.

رسمت ساسكيا هارجريف ابتسامة مشجعة، وقد أدركت قراءتها الخاطئة للموقف.

- لحسن حظي، هناك شخصٌ يحتفظ لي بكل تلك اللحظات.

قالها إيميل مبتعدًا عن النافذة نحو مكتبه.

- زوجتك؟

استفهمت ساسكيا محاولة التطفُّل لإخفاء خيبة أملها.

اكتفى إيميل بالرد على سؤالها بابتسامةٍ، مدركًا أن ابتسامته ستكبح أيَّ محاولات لطرح أسئلة أخرى، وبمجرد جلوسه خلف مكتبه لاحظ إيميل اختفاء إحدى أوراق الملاحظات سماوية اللون، وأن الرسالة المطوية لم تعد تحت أداة تثبيت الورق، وباتت نصف مفتوحة الآن.

- هل أخذتِ إحدى أوراق الملاحظات من فوق مكتبي؟

طرح إيميل سؤاله بأدب، لم يجد أي تفسير آخر لاختفائها.

- آنسة هارجريف؟

تعمَّد قول هاتين الكلمتين بنبرة إيميل كويتزي؛ مديرِ مؤسسة الشؤون الداخلية، وواحدٍ من أكثر رجالات الدولة قوة، وليس رجلًا في منتصف العمر يبذل محاولات عبثية في المغازلة والإغراء.

حاولت ساسكيا التظاهر بالابتسام وهي تُعيد قطعة الورق سماوية اللون من دفتر ملاحظاتها.

- يا له من لون جميل... كنت معجبة بها فقط... ونسيت وجودها، واستغرقتُ في الحديث الذي دار بيننا.

وخلال حديثها، تقصَّدَ إيميل مواصلة النظر إلى سن ساسكيا الرمادي، فتأكدت أن بقاءها غير مُجدٍ، وفور مغادرتها، نظر إيميل إلى ورقة الملاحظة.

«توجد سنوات لطرح الأسئلة، وأخرى للإجابة عنها».

– زورا نيل هيرستون.

وضع إيميل الورقة بكل عناية، وقرأ جميع الملاحظات مجددًا قبل أن يعيدها إلى حقيبته ككنوز ثمينة، تفحَّص الرسالة نصف المفتوحة، وطواها برفق قبل إعادتها تحت كرة تثبيت الورق.

إنْ قُدِّر لقصته الظهور ينبغي أن تروي تفاصيلها انهزاماته في الرسالة، والانعكاسات الإيجابية في أوراق الملاحظات، يتعيَّن سردها بترتيب زمني وأسلوب خطي، مع بداية وعرض وخاتمة محددة، بعيدًا عن هُراء البدايات العصرية للقصة من منتصفها أو نهايتها، يجب أن تروى بهذا الأسلوب لأنها الطريقة الوحيدة لفهم أي منطق من الغرفة الخرسانية المظلمة بلونها الرمادي، ومصباحها العاري، والصنبور الذي يواصل دلف المياه بقطرات، والرجل ذي اليدين الملطختين بالدماء.

اقتباسات زورا نيل هيرستون مستمدة من روايتها «عيونهم كانت تراقب الرب». (المترجِم)
اختصار لـ «هادون آند سلايد» (Haddon & Sly). مجمَّع متاجر ضخم وعريق، تأسس عام 1894 كمتجر عام. (المترجم)

الجزءُ الأول

شبحُ الصِّبا العَابر

الفصل الأول

كغيره من العشاق، حفرت أول سهام الحب الحقيقي ذكراها في قلب إيميل كويتزي، كان حينها واقفًا خارج منزل البنجل الحكومي الخالي من الشرفات، والمطلي بدهان أبيض، متكئًا بظهره على الجدار، راحت عيناه تراقبان الامتداد البديع والذهبي للطبيعة الريفية الإفريقية أمامه.

اشتدت الرياح في ذلك اليوم، واحتشدت السحب الرمادية محمَّلة بوعود المطر، رمى عينيه إلى السماء نحو ثغرةٍ بين الغيوم تطلُّ من بين شفاهها أشعة الشمس كـ «نفحةٍ ربانية»، إنه الوصف الذي اعتاد سماعه من والدته لمثل هذه الظاهرة؛ فالشمس موجودة طوال الوقت متسترة بالغيوم، لطالما كان إيميل مسحورًا بهذا الوجود الدائم للشمس، فمد يده نحوها ليلمسها، فسارعَت للاحتجاب مجددًا، منحه هذا الوجود الخفي للشمس شعورًا بالراحة.

نظر إلى الطبيعة الريفية الرَّحبة مستمتعًا ببهائها، حيث بدأت الرياح البرية بمداعبة أعشاب الفيل وإغوائها للغناء والانتشاء قبل أن تقترب لتلثم خديه، أغمض إيميل عينيه واضعًا راحتي يديه على الجدران المطلية بالأبيض، وأخذ نفسًا عميقًا ليتشبع جسده بالجمال المحيط، وفيما تغلغل هذا الجمال بين حنايا جسده، تحوَّل إلى شيء آخر استحوذ على نسيج كينونته وحياته بمذاقٍ عجيب ونبيل يسمونه الحب.

كان إيميل في السادسة من عمره عندما اختبر طعم الحب، ووقع في غرام تلك الطبيعة الريفية الإفريقية أمامه لتحفر أولى ذكرياته الحقيقية والكاملة، وتوالت بعدها ذكرياتٌ أخرى، عن البلدة الاستعمارية التابعة لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية عند سفوح مرتفعات ماتوبوس، حيث كان منزل البنجل الحكومي الخالي من الشرفات ذي الجدران المطلية بالأبيض.

تذكَّر إيميل حفلات الشراب والموسيقى التي أقامها والداه، جوهان وجيما كويتزي، مساء كل يوم جمعة، وفستان والدته الأسود ذي الخصر المنخفض وقبعة الكلوش، ورشاقة قدميها في رقصة شارلستون، وانضمام والده إليها في رقصة فوكستروت، بينما تكتنف البهجة والإعجاب قلب إيميل وهو يرتشف عصير الليمون الفاتر بسعادة.

عاد في الذاكرة إلى مشواره بين أعشاب الفيل التي تاه بين ترانيمها في السافانا، حين أدرك عثوره على ذاته، فاستحال المكان إلى موطنه الطبيعي، وتذكَّر رحلة ظلِّه الأسود في أجمل بقاع الأرض في ضواحي مرتفعات ماتوبوس، وفي هذا الموقع، تعرَّف إيميل على جميع الأبطال الذين قرأ عنهم في المدرسة: سيسيل جون رودس[3]، ليندر ستار جيمسون[4]، تشارلز كوجلان[5]، آلان ويلسون[6] وأبطال وحدة شانجاني باترول العسكرية. جميعهم

مدفونون في هذا «المَطل العالمي» إحياءً لذكراهم. كانت مرتفعات ماتوبوس وجهة أقام فيها رمز ماتابيلي الديني، فأصبحت مقصدًا لطلب البَرَكة التي لطالما تمثَّلت لديهم بالمطر، وبمآزر ومطرزات خرزية، اعتاد راقصو المطر – رجالًا ونساء– تسلُّق التلال طيلة ساعات على وقع ضربات الطبول وخطى الأقدام، والصيحات وأدعية التهليل، ليطبِق صمت مطلق يسبق رحلة عودتهم نزولًا كما لو أنهم –بالنسبة إلى إيميل المذهول من سحر المنظر– يحملون الغيوم المهيبة على رؤوسهم وأكتافهم وفوق ظهورهم.

ربما تكون رسومات كهف سان أكثر المعالم جمالًا في المدينة، وتصوُّر حكاية الصيد المعقدة، وعلاقة المد والجزر بين الإنسان والحيوان في إيقاع أشبه برقصة يسودها الاحترام والشرف والحب، ومن ثم الموت في نهاية المطاف. لقد اعتاد إيميل الجلوس على كتفي والده العريضتين، وهو يصحبه إلى كهوف بامباتا ونسواتوجي وسيلوزواني، ليحاولا معًا فك رموز الرسومات على الجدار. كانت القصص واقعية وعادلة، يتفوق فيها الإنسان على حيوانٍ تارةً، ليناوره آخر فيتغلب عليه، لطالما تخيل إيميل نفسه جزءًا من المطاردة، وتحوَّل ذلك إلى واحد من أكثر هواجسه إلحاحًا لاختبار شجاعته وقوته أمام حيوان.

نسج إيميل في أحلامه لنفسه شخصية شرسةً وهمجية بجمال، فكان يركض حافيًا عبر الأراضي العشبية، ورمح أسيجاي القصير في يده ليطلقه في اللحظة المناسبة ممزقًا قلب مخلوق الليل الرابض في منطقة وجوده، كان بطلًا، وكان المخلوق رمزًا هاربًا من أسطورة، وعندما يستيقظ يواصل قلبه خفقان الإثارة، فيقفز إيميل من السرير ليجري في الفناء الأمامي الصغير لمنزلهم صائحًا وملوِّحًا بسلاح خيالي مستعدًّا لدحر مخلوق أحلامه.

تولى والدا إيميل استكمال نسيج الذاكرة التي يجهلها عن طفولته، وبحسب روايتهما، وُلد إيميل بعد علاقة حب طويلة جمعتهما، وزواجٍ عاجلٍ في مستشفى ساندهيرست الخاص بديربان في 18 أبريل 1927، وجرى تعميده بعد ستة أشهر، ليفتخر جوهان بمنحه اسم إيميل كويتزي محاولًا تعويض علاقةٍ لم يحظَ بها مع والده، لم يدرك حينها مقدار اللعنة التي حملها هذا الميراث من جوانب كثيرة لم تكن أيٌّ منها واضحة لحظة التعميد.

وعلى الرغم من الأصل الإفريقي لاسمه واسم والده، جوهان كويتزي، فإن إيميل كان في الحقيقة طفلًا لعائلة إنجليزية؛ فوالده، جوهان، هو ثمرة زواج قصيرٍ ومحكوم بالفشل بين إيميل كويتزي عديم الجدوى، وبيثاني ميللر الراقصة التي أودعت رضيعها جوهان في دار للأيتام والمشردين واللقطاء، تديره جمعية بايونير سيتي أوف كينجز الخيرية، وتحت اسم «بيثاني ميللر» تم إدراج مهنة الأم كـ «راقصة»، وهو ما اكتشف جوهان –في وقت لاحق من عمره– أنه تعبير لطيف لشيء آخر تمامًا. تعرَّف جوهان على اسم والده وأخلاقه السيئة من الحديث القصير الذي دار بين والدته وسيدات الجمعية قبل

أن تتركه رضيعًا في رعايتهن، ومنذ ذلك الحين، وكلما بدر عنه تصرف مشاكس، يتعرض جوهان الصغير للتأنيب والاتهام بالتشبه بوالده، وبالنتيجة كان الاسم «كويتزي» التركة الوحيدة التي حصل عليها جوهان من والده.

تركت ميللر رضيعها جوهان في عُهدة جمعية سيتي أوف كينجز الخيرية دون أن تلقي عليه نظرة أخيرة، ما منحه مبررًا إضافيًّا يَحول دون شعوره بالعاطفة المفرطة، ويمحو أيَّ طابع رومانسي على ذكرى المرأة التي تخلت عنه، وفي الجمعية، تلقَّى جوهان تعليمًا جيدًا باللغة الإنجليزية، ما ساعده لاحقًا في التقدُّم بطلب العمل مع شرطة جنوب إفريقيا البريطانية ليصبح مراقبًا لحركة المرور، وهو لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره.

استُحدِثت هذه الوظيفة لتلبية احتياجات شرطة جنوب إفريقيا البريطانية والمستعمَرة الفتيَّة من أفراد مسؤولين عن إدارة حركة المرور، وتبيَّن مدى نمو الدولة ومضيِّها قُدمًا نحو التحضر، وبينما كانت الأزقَّة تغص بعربات الميلي البطيئة والعريضة التي تجرها الثيران، ورضي باستخدامها السكان الأوائل للمدينة، ظهرت العربات التي تجرها الخيول ويقودها الأثرياء، وعربات سكوتش التي تجرها الحميرُ وتتعرض لمشكلات غير متوقعة، وعربات البريد والمسافرين السريعة لشركة زيدربيرج، وعربات الجينريكشا خفيفة الحركة، وعربات الرالي دائمة التنقل، ودراجات روفر آند هيركوليز الهوائية، ومئات الأقدام المتنقلة لوجهات مختلفة، وازداد احتمال التعرض للحوادث بعد تشغيل سيارات الأوتوموبيل، ذلك الاختراع الحديث والمثير للضجة. لطالما أتقن الإنسان فن التحكم بنفسه وبالحيوان، ولكن الآلة شيء مختلف تمامًا، وانطلاقًا من ضرورة ضبط الفوضى وإحلال النظام، كانت شرطة جنوب إفريقيا البريطانية مسرورة بتوفير الرجال القادرين على شَغل هذه الوظيفة.

وقف جوهان -بزيه الكاكي المنشَّى والمكوي، ومع صافرة فضية لامعة وزوج قفازات بيضاء- وسط كل تلك الفوضى لتنظيمها. قدَّم أكثر من ذلك، وأدى مهمته بإخلاص واتزان وإتقان كمايسترو أو فنان بارع في حرفته، كانت مشاهدته في عمله متعةً بحد ذاتها.

تولت والدة إيميل سرد التفاصيل المعنية بمستوى أداء والده في العمل، لم يكن ذلك نابعًا فقط عن فخرها بنجاح الرجل الذي أصبح زوجها، بل إشارة إلى دور هذه التفاصيل في تكوين فصلها المفضل من القصة، والذي أصبحتْ هي – جيما روبرتس– بطلَتَه بقوة من الطبيعة.

هبت رياحٌ شديدة حملت معها قبعة جيما المصنوعة من القش في أثناء عبورها تقاطع شارع بورو وسيلبورن أفنيو، وطاردَتْها راكضة ومقهقهة غير آبهةٍ لتوقُّف حركة المرور في الشارعين.

أسلوبها في الضحك، وشعرها الأشقر المتموج مع هبوب الريح، أوقعا جوهان سريعًا في حب روحها النابضة بالسعادة، وبدلًا من مواصلة عمله ومراقبة

حركة المرور، أوقف جوهان السيارات بأنانية في التقاطع بين شارع بورو وسيلبورن أفنيو متجاهلًا كل الصراخ والنهيق والصهيل، كل ما أراده في تلك اللحظة كان الاستمتاع بمشاهدة الفتاة ذات الشعر الذهبي، ومراقبتها لأطول فترة ممكنة.

رآها مجددًا بعد عدة أيام، وأخبرَته أن اسمها هو جيما روبرتس، وبغنجٍ هزت جيما جسدها بلطف يمنة ويسرة، ووجهت سهام رموشها الطويلة نحوه وهي تخبره بعنوانها عِلمًا أنه لم يطلب ذلك، بدأ جوهان بتدوين التفاصيل، وكان سعيدًا لأنها لم تكتشف توق يده للمسها، كان يخشى أن تشعر بقوة دقات قلبه، وأن يُفسد العَرق المتجمع فوق جبينه الأمر برمته.

لم تُعِر جيما بالًا لأيٍّ من تلك العلامات، حتى ولو لاحظَتْها؛ فلطالما كانت منبهرة بحركات ضابط حركة المرور الأشبه بالمايسترو، وأناقة مظهره كفنان مشهور في حفلهِ النهاري، كانت تعتبره قريبًا من الكمال، كأيِّ رجل مستحق لهذه الصفة.

أخبرته جيما باسمها وعنوانها على مرأى ومسمع جميع المارة في تقاطع شارع بورو وسيلبورن أفنيو، على الرغم من أنها قضت جزءًا طويلًا من صباحها في بيت هول مع فتيات أخريات يرتدين فساتين قطنية بنية بياقات بيتر بان، ورؤوسهن مغطاة بقبعات من القش، وقد اتجهت بنفس الزاوية نحو المديرة، الآنسة جريس ميلني لانجدون، التي راحت تحذرهن من مغبَّة إقامة أي علاقة مع ذكَر، وتمنعهن بشدة من اقتراف مثل هذا الفعل في الأماكن العامة، وتخبرهن أن فتيات إيفلين ينبغي أن يعشن حياتهن كلها في الفضيلة والكرامة واللباقة، أحست جيما بسعادة خفية وهي ترى قلوب زميلاتها من مدرسة إيفلين الثانوية تتفطر، وهن يتأملنها عند تقاطع شارع بورو وسيلبورن أفنيو.

نظر جوهان بعبوس إلى العنوان الذي أعطته جيما، فأخبرتْه أنها في السابعة عشرة من عمرها، وهي في السنة الأخيرة في مدرسة إيفلين الثانوية، وأكدت عليه ضرورة مراسلتها بعد عودتها إلى منزلها في ديربان. في الواقع، كان هذا آخر أيام الفصل الدراسي النهائي لها في المدرسة، ودون أن تتحدث، فكرت جيما في الصدفة التي جمعتهما على هذا النحو في الساعة الحادية عشرة، وتيقنت أن هذا الرجل –جوهان كويتزي– هو قدَرُها.

تلقَّت جيما أول رسالة من جوهان في 5 يناير 1921، وعلى الرغم من كتابتها على ورقة رسمية لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية بقلمٍ يميل حبره إلى السيلان، فقد اختارت جيما التغاضي عن هذه الحقائق أمام الحب الشديد الذي صرحت به كلمات جوهان كويتزي، ما جعل قلبها يحلِّق ويغني بسعادة، وجدت جيما في المغازلة عبر المراسلات فقط فكرة رومانسية جدًّا، وشعرت أنها من بطلات العصر الفيكتوري، وبالكاد استطاعت تحمُّل ذلك، فكرت أن دخول جوهان إلى حياتها جاء لانتشالها من مسار حياتها الاعتيادية والسموِّ بها نحو

مستوىً أرقى، ولأن جميع قصص الحب العظيمة ذات البدايات السحرية والنهايات السعيدة ولدت في مهدٍ مماثل لقصتهما، لم يكن أمام جيما خيار سوى الشعور بالتفاؤل الشديد بمستقبلها.

استجابت جيما للرسالة فورًا، ودون خجل، صرحت بمشاعرها على ورق رسائل بلون وردي فاتح تزينه لفائف فضية وذهبية تتوالف على الهامش معًا كفراشات متراقصة. سطَّرت كلماتها بشكل مدروس ورقيق، وباهتمام أكبر لم تُعِره يومًا لكتاباتها. أرادت أن يبذل جوهان جهدًا إضافيًّا لاستيعاب كل كلمة قبل أن يفهم معناها كاملًا، طوت الرسالة بعناية إلى أربعة أجزاء متساوية، ووضعتها في الظرف الوردي، وقبل إغلاقه أدركت نسيان خطوة أخيرة، فأزالت الحرف المطويَّ برفق، ورشَّت بضع قطرات من ماء الورد بحذرٍ كي لا يتداخل مع الحبر، وضعت الرسالة في الظرف الذي كان موجهًا سلفًا إلى الشرطي جوهان كويتزي في شرطة جنوب إفريقيا البريطانية.

بعد مضيِّ أسبوعين، حبست جيما أنفاسها بترقب عندما تلقت رسالة أخرى من جوهان، كانت رسالته الثانية مكتوبة أيضًا على ورق رسمي لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية، لكن الحبر لم يكن سائلًا في هذه المرة. شعرت جيما بارتياح كبير، وهكذا بدأت قصة حب جيما وجوهان، تبادلا عددًا كبيرًا من الرسائل التي باحت كلماتها بما وصل إليه العاشقان من شغف، ولوحت خدَّيهما بحمرة الخجل في عدة مناسبات.

استمرت علاقتهما على هذا النحو حتى يوم مصيري في أواخر شهر يوليو، عندما اعترضت السيدة وليامز إحدى الرسائل المكتوبة على ورقة رسمية من شرطة جنوب إفريقيا البريطانية.

السيدة وليامز هي جدة جيما لأمها، وعاشت معها بعد زواج والدتها من أنتوني سايمنز الذي لم يتقبَّل وجود أطفال منه أو من غيره، قبل ستة أشهر من زواجها، أصبحت والدة جيما أرملة بعد وفاة زوجها فيليب روبرتس، الذي تغير كليًّا بعد خدمته في الحرب الإفريقية الكبرى، كانت والدة جيما تخطط للطلاق، قبل أن تقتله الإنفلونزا الإسبانية خلال فترة تعافيه في المصحة.

عندما تزوجت والدة جيما مجددًا اعتقدت أن الغياب قد يزيد الشوق، كانت سعيدة بدخول ابنتها إلى مدرسة بعيدة قدر الإمكان عن ديربان، لكن المدرسة انتهت بعد عام دون أن يغير سايمنز قناعته بشأن الأطفال، ما اضطر جيما إلى العيش مع جدتها السيدة وليامز، وبقيت على هذه الحال في كل عطلة مدرسية منذ أن ظهرت بوادر التوتر في العلاقة بين والديها.

كان هذا الحل مناسبًا لجميع الأطراف؛ فالسيدة وليامز تدير بنسيون ذا وليامز آرمز. وعلى الرغم من تقدمها في السن وعجزها في كثير من الأحيان، فقد فضَّلت وليامز إدارة أعمالها بنفسها، كانت العجوز تزمجر بأوامرها من كرسيها المريح معتمدة على جيما كعينيها وأذنيها ويديها وقدميها.

في ذلك اليوم المشؤوم من شهر يوليو عندما اعترضت السيدة وليامز –وهو الاسم الذي تفضل أن تناديها جيما به، وليس «جدتي» أو «نانا» أو أي اسم حنون آخر– الرسالة المكتوبة على ورقة رسمية من شرطة جنوب إفريقيا البريطانية، صادفت السيدة وليامز جيما تبتسم وحيدة بجوار موقد ولكوم دوفر في المطبخ، بينما كانت الوجبة التي تحضرها تحترق وتتفحم أمام عينيها، وعلى الفور ارتابت السيدة وليامز في الأمر، وبمجرد وصول البريد، أحضرته بنفسها وفتحت رسالة شرطة جنوب إفريقيا البريطانية بلا مبالاة بأصابعها القصيرة الخشنة والمصابة بالتهاب المفاصل، فتمزق الظرف. لم تدرك حينها أن جميع رسائل شرطة جنوب إفريقيا البريطانية كانت تُفتح بعناية شديدة عبر أداة فضية خاصة مع مقبض فاخر تزينه زهرة الزنبق، قرأت السيدة وليامز الرسالة... في الواقع، لم تقرأ سوى الاسم جوهان كويتزي، ولم تستطع المتابعة لأن كل ما تبقى كان بالأحمر. فقدت السيدة وليامز ابنيها في حرب الأنجلو بوير[7]؛ أحدهما في ساحات القتال، والآخر بفعل الزحار، لكنها ألقت باللوم على «الأفريكانيين». وبعد هذه الأحداث المفجعة بقيت المرأة وحيدة مع طفلة كبرت لتلد طفلة أخرى كبرت بدورها لترتبط بعلاقة مع أفريكاني. لم تستطع السيدة وليامز تقبُّل الأمر، ودون أي كلمة، جرَّت السيدة وليامز جيما من شعرها في أرجاء ذا وليامز آرمز.

بدا كل شيء محكومًا بالفشل، سمحت جيما لقلبها بالانفطار، ولنفسها بالبكاء والاكتئاب، واتشحت مشاعرها بلون «أزرق» حزين عملًا بنصيحة موسيقى البلوز الأمريكية للتعامل مع خيبات الأمل. لقد أحبت اللون الأزرق المرافق لهذا الشعور، وسُرَّت لقدرتها على الإحساس به مع قلبها المنفطر، أحبت أن حسرة قلبها لم تكن ناجمة عن هجران حبيبها، لكن السيدة وليامز – وعلى الرغم مما خسرته في حرب البوير– لن تعترف

-وهذه كلمتها- بصهر أفريكاني؛ لقد أحبت كل ما تحمله هذه العلاقة من تراجيديا رائعة.

فعلت والدة جيما الصواب بشأن ابنتها ربما لأول مرة في حياتها عندما زارتها في إحدى المناسبات النادرة واختطفت رسالة موجهة إلى شرطة جنوب إفريقيا البريطانية، وبعد أسبوعين أعطت جيما سرًّا رسالة مكتوبة على ورقة رسمية من الشرطة، شعرت جيما بسعادة غامرة لأن جوهان أخبرها في رسالته أنه سينتظرها مهما طال الزمن، وحتى آخر أنفاسه إذا تطلب الأمر، آآآه... يا لها من كلمات مغرقة في الرومانسية، كانت جيما مثل بيسي سميث[8] في أغنيتها «أحزان قلبٍ منفطر» (Downhearted Blues)، لكنها راضية ليقينها من حب رجُلها.

لحسن حظ جوهان لم يضطر إلى الانتظار حتى آخر أنفاسه، وبعد بضع سنوات من وصول الرسالة السرية تعرضت السيدة وليامز لسكتة دماغية

شديدة أفقدتها القدرة على الكلام، وجعلتها أكثر اعتمادًا على جيما السعيدة برعاية جدتها، وفي تلك الفترة نجحت جيما في الحد من تحيُّز السيدة وليامز تجاه جوهان كويتزي على أقل تقدير.

في الواقع، كان جوهان واحدًا من أفضل الرجال، توفي والداه وتركاه في عهدة سيدات إنجليزيات استثنائيات في جمعية بايونير سيتي أوف كينجز الخيرية، والدته -كما ذكر جوهان في إحدى رسائله- كانت إنجليزية جدًّا قبل وفاتها.

ولذلك، وبغض النظر عن الاسم الذي اعتبرته جيما مؤسفًا بعض الشيء، كان جوهان كويتزي إنجليزيًّا، ولم يكن باليد حيلة، فقد استحوذ على قلبها كما لم يستطع أي رجل آخر.

بذلت جيما كل ما في وسعها للحصول على مباركة جدتها، وبعد ثلاث سنوات تقريبًا أصدرت السيدة وليامز صوتًا من حنجرتها قبل أن تومئ برأسها موافقة، واختارت جيما تفسير هذه الحركة بأنها مباركة جدتها لاتحادها مع جوهان كويتزي.

سارعت جيما المبتهجة لمراسلة جوهان، وبدلًا من وصول الرد خلال أسبوعين فقد ظهر جوهان نفسه في الوقت المناسب، لأن جيما كانت على حافة السقوط حقًّا بين أحضان الكآبة، كانت سعيدة برؤية جوهان أكثر وسامة من الصورة التي علقت في ذاكرتها، وهكذا، وبطبيعة الحال، وقعت في حبه من جديد.

لم يكن أمام السيدة وليامز -تحت تأثير ضعفها ومعاناتها من إذلال الهزيمة- سوى الترحيب في منزلها بشيء لم تتخيله طيلة حياتها: شخص أفريكانيٌّ. وربما جعلت جوهان يشعر بترحيب مبالغ فيه لأن... حسنًا، تسارعت الأحداث بوتيرة جعلت من الضروري إتمام زواج جوهان كويتزي وجيما روبرتس في 18 ديسمبر 1926، قبل أربعة أشهر بالضبط من ولادة إيميل.

سيعيش إيميل السنوات الخمس الأولى من حياته مع والدته والسيدة وليامز والعديد من المستأجرين في ذا وليامز آرمز، لم يتذكر أي شيء عن تلك المرحلة؛ عن الرحلات المتكررة إلى المحيط الهندي القريب، وعن الانتظار بصبر مع والدته وصول والده إلى محطة القطار في إحدى زياراته العديدة، وعن النباتات الاستوائية التي كانت والدته تحبها، ولطالما اشتاقت إليها بعد وفاة السيدة وليامز بسلام في أثناء نومها؛ عندها جاء جوهان لاصطحاب زوجته وابنه بعيدًا عن الحياة التي اعتاداها.

وقبل وفاة السيدة وليامز جرى حديث عن انتقال جوهان إلى ديربان للمساعدة في إدارة البنسيون، ولكن أنتوني سايمنز، الذي تبدَّلت حظوظه مثل كثيرين، تغيَّر بشكل كبير عام 1929، وجعل زوجته تتولى إدارة ذا وليامز

آرمز بعد وفاة السيدة وليامز دون أن يبدِّل ذلك من رأيه بشأن إنجاب الأطفال.

في الوقت الذي جاء فيه لاصطحاب جيما وإيميل إلى ما سيطلقون عليه لاحقًا اسم منزلهم، وما وصفته سجلات مباني شرطة جنوب إفريقيا البريطانية كمنزل بنجل حكومي دون شرفات مطلي بدهان أبيض، كان جوهان قد ترك عمله كمراقب لحركة المرور؛ إذ تمت ترقيته إلى رقيب أول وعُيِّن مديرًا لمركز شركة جنوب إفريقيا البريطانية عند سفوح مرتفعات ماتوبوس.

هنا عند هذه السفوح، سيغزل إيميل أولى ذكرياته ليقع سريعًا في حب البراح والطبيعة الريفية الإفريقية. وهنا ستشكو والدته من حنينها لرطوبة ديربان ومعاناتها من جفاف السافانا، وستروي له قصصًا بدأت بفتاة ترتدي زيَّ مدرسة إيفلين الثانوية، وهي تطارد قبعتها المصنوعة من القش في التقاطع بين شارع بورو وسيلبورن أفنيو، لتستحوذ على قلب جوهان كويتزي، الرجل الرائع حقًّا.

ولتوضيح النقاط البارزة في قصتها، اعتادت جيما إنتاج صورٍ للحظات التي وصفَتها، وبهذه الطريقة، عرف إيميل أن قدميه خطَتا في مياه المحيط الهندي أول مرة ممسكًا بيدي والديه، وأنه وقف يومًا ما وسط سحابة من دخان ليلوِّح مودعًا أباه في محطة القطار، وأنه جلس في حضن والدته يلعب بسلسلة من اللؤلؤ، بينما كانت ترتدي فستانًا أسود حدادًا على الجدة التي لم تسمح بمناداتها إلا بالسيدة وليامز. أخبرته والدته هذه القصص بتفصيل كبير منحه القدرة على تخيُّل صورها، حتى وإن لم تلتقطها عينا عقله بوضوح.

لم تفلح محاولات إيميل بتكوين علاقة حقيقية مع تلك الذكريات، وعلى الرغم من أنها شكلت جزءًا من حياته، فإن الصور التي استحضرَتها لم تكن تتحرك مع وتيرة الحياة الحقيقية، الأشخاص الذين احتضنتهم هذه الذكريات -شخصيته وهو طفل صغير، ووالداه العاشقان، وجدة أمه العاجزة وذات الوقار، وجدته التي تزوجت مرتين، وجده المصدوم من ويلات الحرب، والزوج الثاني لجدته والمصاب برهاب الأطفال، وجدته لأبيه الراقصة، وجده لأبيه الذي لا نفع منه ويحمل اسمه، والسيدات الإنجليزيات في جمعية بايونير سيتي أوف كينجز الخيرية، والمستأجرون في بنسيون ذا وليامز آرمز، والمارة في التقاطع بين شارع بورو وسيلبورن أفنيو، وصفوف فتيات إيفلين وقبعاتهن القشية المتجهة بنفس الزاوية نحو الآنسة لانجدون، والجنود المقاتلون في حرب الأنجلو بوير والحرب الإفريقية الكبرى– عاشوا جميعًا في عالم قديم بالأبيض والأسود بدت فيه تحركاتهم متسارعة نوعًا ما فظهرت أفعالهم خرقاء، مترددة وعشوائية، ابتساماتهم النادرة كانت خجولةً كما لو أنهم أُجبروا على اصطناعها، كل ما حولهم كان صمتًا عميقًا يدفع المرء للإحساس بالخوف من خَرقِه، كان عالمهم

المأهول شديد النقاء لدرجة منحت إيميل شعورًا بحنين عميق لم يسمح له بمزيد من الاتصال خوفًا من تلويث ماضٍ غابر.

سيسيل رودس (1853-1902) سياسي بريطاني تولّى منصب رئيس وزراء مستعمرة كيب في جنوب إفريقيا. (المترجم)

ليندر ستار جيمسون (1853-1917) سياسي جنوب إفريقيا؛ شغل منصب رئيس وزراء مستعمرة كيبفي جنوب إفريقيا. (المترجِم)

تشارلز كوجلان (1863-1927) محامٍ وسياسي من أصل أيرلندي، شغل منصب رئيس وزراء روديسيا الجنوبية. (المترجِم)

آلان ويلسون (1856-1893) قائد وحدة شانجاني باترول العسكرية التي تعرضت لكمين من محاربي ماتابيلي في روديسيا. (المترجم)

حرب البوير، أو حرب جنوب إفريقيا (1899 - 1902). يدعوها الأفريكان بحرب الاستقلال الثانية، واندلعت بين الإمبراطورية البريطانية وكل من جمهورية البوير وجمهورية البرتقال الحرة، وانتهت بانتصار الجيش البريطاني. (المترجِم)

بيسي سميث (Bessie Smith) واحدة من أقدم مغنيات البلوز، وأكثرهن شهرة وتأثيرًا، توفيت عام 1937. (المترجِم)

الفصل الثاني

في بداية حياة عائلة كويتزي معًا عند سفوح مرتفعات ماتوبوس، كانت السعادة بيِّنة ويزداد نبضها مع حفلات الشراب والموسيقى التي تقيمها جيما وجوهان في منزلهما الحكومي بطراز البنجل دون شرفات، والمطلي بدهان أبيض، ويحضرها مجبرًا كلٌّ من ابنهما إيميل، ونائبي جوهان وهما سكوت فيتزجيرالد ووالتر موسجريف.

كانت البلدة الاستعمارية التابعة لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية على مرمى حجر من متنزه رودس ماتوبوس ناشيونال بارك الوطني. عند وصولهم أول مرة شعرت جيما بالقلق بعد معرفتها من جوهان أنهم –ونائباه– كانوا الأوروبيين الوحيدين في دائرة نصف قطرها عشرة كيلومترات، لم يشاهدوا أيَّ أوروبي آخر سوى بعض السياح والمتنزهين النهاريين، وعشاق المناظر الجميلة من زوار المتنزه الوطني، حتى وإن لم يقلها جوهان يدرك الزوجان أن جيما هي المرأة البيضاء الوحيدة على بعد أميال، كان ذلك في عام 1933، حين وصلت إليهما –كلٍّ على حدة– أخبار بلاك بيريل[9] المقلقة، وحفاظًا على رباطة الجأش، لم يعبر أيٌّ منهما عن مخاوفه للآخر، واختارا التركيز على نجاحهما أخيرًا في الزواج وبدء حياة معًا.

كشفت الأيام عدم وجود مبررات لخوفهما؛ إذ لم يُعِر السكان المحليون في القرية المجاورة بالًا لجيما باستثناء الحالات التي تقوم فيها بأعمال تثير استغرابهم، كالاحتماء من الشمس، والوقوف تحت المطر، والطلب من الخدم نقل المياه من النهر لغسل الملابس في باحة المنزل بدلًا من غسلها بجانب النهر –وهو أكثر سهولة- وتناول طبق خضار بارد دون طهو على العشاء مع عائلتها، ورسم وجهها بالألوان دون مناسبة أو احتفال خاص، وشراء زجاجات رضاعة كهدايا للحوامل في القرية، تلك الزجاجات التي لطالما انزعجت من رؤية استخدامها في شؤون أخرى أكثر عملية.

بعد التفكير مليًّا، ربما أولى السكان المحليون جيما اهتمامًا كبيرًا لأنها كانت مصدر بهجتهم، قدَّمت انطباعًا واضحًا عن انقلاب معايير الأمور رأسًا على عقب، كانت برأيهم حمقاء، أو «كوكايي»[10]، وهو وصف نقله القرويون من عمال القطاعات الصناعية بسيتي أوف كينجز، جلبوه معهم إلى القرية مثلما أحضروا المرايا والعلب المعدنية، والحليب المكثَّف، وتعرفوا بنفس الطريقة على النظام العِرقي للأوربيين، والذي يعتبرهم نوعًا أدنى من البشر. سرعان ما تحوَّل وصف الأحمق إلى مصطلح مألوف يتكرر استخدامه من رؤساء العمل لتوبيخ العمال، واتهامهم بعدم الجدارة والوضاعة والنقص، وكما هي الحال مع معظم الأشياء التي جلبوها من المدينة، أصبحت الكلمة جزءًا من

عملية تحويلٍ للنظام، ولمحاولة تصحيح مسار الأمور مجددًا، اعتاد السكان المحليون استخدام الوصف كوكايي كلما أقدمت جيما كويتزي على شيء خارج عما أَلِفوه، على أي حال، اكتشفوا عجزهم عن إهانتها واتهامها بعدم الجدارة والوضاعة والنقص.

باستثناء ضحكاتهم العرَضية أو إيماءات رؤوسهم، أمِنت جيما جانب السكان المحليين، وأحست بالاسترخاء والسعادة، كانت المرأة البيضاء الوحيدة في دائرة نصف قطرها عشرة كيلومترات؛ ما جعلها غريبة تمامًا، مثل طائر نادر ذي ريش رائع يجذب علماء الطيور من كل حدب وصوب، وخلال حفلات الشراب والرقص أيام الجمعة، اعتادت جيما استضافة صبيٍّ وثلاثة رجال أوروبيين، كانوا يحبونها حقًّا، وكانت تحب مشاعرهم تجاهها؛ قال سكوت فيتزجيرالد إنها تشبه جانيت جاينور[11]، وأقسم والتر موسجريف إنها تشبه كارول لومبارد[12]، وكانت جيما مسرورة بوجودها في أي مكان بين هذين المديحين –ملاك أو ثعلبة– فذلك يعني أن جمالها استثنائي، وجدت راحةً في أن تكون جميلة جدًّا لدرجة تجعل العالم كله يحدِّق معجبًا بها.

لم تكن لدى سكوت فيتزجيرالد أي رغبة حقيقية ليصبح شرطيًّا، ولم يُخفِ حقيقة إعجابه بِجيما كمصدر إلهام لما يفترض أن يتحوَّل إلى أولى رواياته، وبسعادة سمحت له جيما بالعثور على هذا الإلهام فيها لأنها تمكنت بسهولة من تلمُّس الشِّعر في روحه، ما جعلهما أشبه بالأقرباء، وبعد أن قابلها كان والتر موسجريف مستعدًّا للتوقف عن قضاء أيام عطلته في رسم لوحات بالألوان المائية لمناظر الطبيعة الريفية الرحبة أو مرتفعات ماتوبوس، مقابل أن يُجلسها أمامه ليتمكن من تخليدها في لوحات، لأنها –حسب قوله– التجسيد الأمثل للجمال والأنوثة، استمتعت جيما بالألق الدافئ لافتتانهما بها، وشعرت أن الحياة في البلدة الاستعمارية لن تحمل إلا السعادة.

لم يعترض جوهان على الاهتمام الواضح بزوجته من نائبيه لأنه يحبها، ويعرف أنها تحبه بصدق، السنوات العديدة والمحمومة بمراسلات العشق جعلتْه يثق بالحب الذي يجمعهما، ولم يكن بمقدور سكوت فيتزجيرالد أو والتر موسجريف تخيُّل الليالي التي أدَّت فيها جيما رقصات التعرِّي اللاهبة وأغنياتها وتنهيداتها المثيرة حول مدى رغبتها في أن يحبها جوهان، ولا أحد غير جوهان.

نعم، كانت جيما سعيدة بوجودها كجوهرة التاج، وحبة قلب كل أوروبي وقعت عيناه عليها في تلك البقعة، لم تمانع سيطرة الضجر على أيامها ما دامت تطلق العنان لسعادتها أيام الجمعة، مفسحة المجال لضجة محمومة تعيد تشكيل نفسها إلى شخصية جيما الخيالية التي انشغلت جدًّا عن التحوُّل إليها: شخصية المراهقة الشقية.

أصبحت جيما في مخيلتهم الجماعية المرأة المثالية والجريئة والعصرية لحقبة عشرينيات القرن الماضي. كانت هذه الصورة حقيقية... إلى حدٍّ ما،

رقصَت شارلستون باسترسال جامح في مقاهي كينيلورث تي رومز بديربان في أكثر من مناسبة، واستكمالًا للتجربة، اشترت جيما قبعة كلوش حمراء في عيد مولدها العشرين، واستكملت إطلالتها بفستان أسود قصير حتى الركبتين من الشيفون والدانتيل اشترته لها والدتها خلال فترة نادرة من أمومتها، هكذا وعلى الرغم من أنها قضت معظم عشرينيات القرن الماضي في علاقة غرامية طويلة مع جوهان ومساعدة السيدة وليامز على تلبية احتياجات المستأجرين، شعرت جيما أنها جريئة وعصرية بروح منطلقة، وأحست أنها لا تزال تمتلك هذه الصفات، وأثبتت ذلك عبر ارتداء قبعة الكلوش الحمراء وفستان الشيفون والدانتيل الأسود ذي الخصر المنخفض، والرقص باسترسال جامح في كل حفل شراب وموسيقى على رقعة من المرج العشبي، حيث ينبغي أن تكون الشرفة.

لم تكن ثلاثينيات القرن الماضي شبيهة بعشرينياته، وقد أكدت أحداث عام 1929 ذلك وأيقظت العالم، لكن أولئك الموجودين في تلك البقعة عند سفوح مرتفعات ماتوبوس لم يضطروا إلى الخروج من العالم الساحر لهذه الحقبة، ما دامت جيما موجودة، تلك الفتاة المراهقة والسعيدة والجامحة والمغرية.

بعثت إيماءات جيما بهجةً في نفوس السكان المحليين، فهم يدركون أنها تعتبر الحركات الحماسية لذراعيها وقدميها نوعًا من الرقص، وهو ليس كذلك بالتأكيد، ومع ذلك فقد أثار رقصها على أنغام أغنية «أنتِ القشدة في قهوتي» (You’re the Cream in My Coffee) افتتان جمهورها الأوروبي. في بعض الأحيان يصبح جوهان –الذي لم يكن راقصًا بارعًا– مفتونًا جدًّا بسحر حركات جيما فينضمُّ إليها في رقصة فوكستروت، وهو ما كان يتذكره إيميل دائمًا بألوان تكنيكولور[13] الجميلة والرائعة.

كان يفترض بالحياة في البلدة أن تستمر دون أي تعكير لمزاج هذا المسار الثابت نحو مزيد من السعادة الخالصة... لو لم تظهر تلك الفتاة المحلية في رقعة المرج العشبي حيث ينبغي أن تكون الشرفة، لكنها وصلت تحمل طفلًا لون بشرته كالشاي بالحليب، مع شعر غزير مجعَّد بلون الرمال، وقد غيَّر وصولهما كل شيء.

صُدمت جيما عندما سألت الفتاةُ المحلية عن والتر، لم يكن وجود فتاة سوداء البشرة مع طفلها الأسمر بين ذراعيها سبب إثارتها، وإنما حقيقة أنها سألت عن والتر، هكذا وبكل بساطة، لم تطلب الحديث مع رئيسها في العمل، ولم تصفه بالسيد موسجريف أو السيد والتر، فقط والتر. وفي أثناء حديثها لم تُشِح الفتاة المحلية بنظرها عن جيما كما يفعل معظم السكان المحليين الذين تعلموا ذلك من التاريخ القصير لحياتهم مع الأوروبيين. وبنوع من التحدي غير المسبوق نظرت الفتاة المحلية في عينَيْ جيما، وحركت الطفل على وركها وقالت:

- أريد رؤية والتر.
بدلًا من الرد، انقضَّت جيما لتمسك حلْق الفتاة التي حشرج صوتها كصرخة اختناق بدائية، وفي تلك اللحظة تحول مصدر البهجة المنتشرة في كل مكان إلى عنصر استبداد قمعي، وبشكل غير متوقع.
أحست جيما بحرارة تزداد خلف رقبتها، قبل أن تصاب بالدوار فجأة، ازدادت عزيمتها وسط ارتباك إحساسها بالدوار، لقد وُلدت في إفريقيا، ولن تؤثر فيها الحرارة التي لا ترحم، رفعت ذقنها بتمرُّد، وأمالتها عكس الحرارة قبل أن تسقط مغشيًّا عليها على أرض مطبخها.
استفاقت جيما مع نتوء في جبهتها وصداع نصفي، لا بد وأنها ضربت رأسها بالأرضية الخرسانية للمطبخ، كانت الحرارة الشديدة ما زالت موجودة حتى الآن، وما زالت الفتاة المحلية وطفلها الأسمر موجودَين، الشيء الوحيد الجديد هو أن والتر موسجريف كان يسير باتجاهها ومعه كوب ماء في إحدى يديه، مشيرًا بالأخرى نحو الفتاة والطفل.
- أرى أنك قابلتِ ليلي وابني.
قال والتر موسجريف بشكل طبيعي دون أي شعور بالخزي الذي يُفترض أن يحسَّ به في مثل هذه المواقف، ونظرًا لافتضاح أمره بمثل هذا النحو.
- يا لَعناد ليلي.
تابع موسجريف وهو يقدم كأس الماء لِجيما، كانت مياه الكأس مستقرة بشكل مثير للريبة، تفحصت جيما اليد التي حملت كأس الماء، ولاحظت أنها لا ترتجف، كانت اليد ثابتة مثل نبض قلب قدِّيس، قال موسجريف بنبرة فيها كثير من المودة والتسامح:
- لا تعتقد أن قواعد اللياقة تنطبق عليها.
حدَّقت جيما إلى الفم الذي خرجت منه هذه الكلمات؛ إنه نفسه الذي وصفها بأنها التجسيد الأمثل للجمال والأنوثة، وأدركت أخيرًا أنها تعرضت للخيانة.
- اخرج!
صرخت جيما قبل أن تقذف كوب الماء من يد والتر موسجريف على الحائط، وبعض الرضا شاهدت الكأس تتهشم وتتناثر على الأرض قطعًا صغيرة لمعت كأحجار ألماس في الغبار، استنفدت كل طاقتها قبل أن تنهار ككومة بائسة.
كانت جيما مذهولة طوال هذا المشهد لدرجة أنها لم تلاحظ وقوف ابنها متفزِّجًا كشبح في ظلال غرفته، ربما تصرفت بشكل أفضل لو أنها علمت بوجود جمهور.
لم يبق شيء على حاله بعد تلك الحادثة؛ نُقل والتر موسجريف إلى مركز آخر، ومن الواضح أنه اصطحب معه الفتاة المحلية والطفل الأسمر، ابنه.
قال جوهان لجيما التي ما زالت حزينة:

- يرفض اتخاذ الإجراء المناسب، ويصرُّ على أنه يفعل الصواب.
أجابته جيما محاوِلة التظاهر بعدم المبالاة:
- والتر هذا شخص سيئ الأخلاق، لا يعتقد أن قواعد اللباقة تنطبق عليه.
قالت هذه العبارة بارتباك شديد، ويداها ترتجفان بشكل خارج عن سيطرتها.
وهكذا أصبحت حفلات الشراب والموسيقى الصاخبة ذكرى من الماضي، قضت جيما معظم أيامها كئيبة في الفراش، وهي تشكو الحرارة الشديدة التي لن تنخفض، وبعد غيابها لعدة أيام متتالية، اعتقد السكان المحليون أن السيدة مختبئة من الشمس مجددًا، وقبل أن يعودوا لمتابعة أشغالهم خمنوا أنها ستخرج بمجرد هطول المطر، لكن جيما اختبأت منه أيضًا، ولم يكن السكان المحليون مسرورين بذلك، بدأ القلق ينتابهم، فيما سمعوا قصصًا عن سيدات فقدن عقولهن، أو قُتلن بسبب المناخ الذي لطالما عاشوا فيه لقرون.
بدت سيدتهم كما لو أنها أصلب عودًا من سيدات الحكايا تلك، ربما لم تكن كذلك، وربما ينبغي عليهم الحذر من الطريقة السهلة والمفاجئة لظهورها بينهم في المنزل، بدؤوا على الأرجح يدركون أن الأوروبيين لديهم جوانب خفيَّة لم يعرفوها.
كان جوهان حريصًا على إسعاد جيما مجددًا، لكن جهوده باءت بالفشل بعد إخفاقه في تخفيف الحرارة التي بدأت تُشعرها بالاختناق، اشترى مروحة وثلاجة بسعر باهظ، لكن الأمور لم تتطور نحو الأفضل، قدَّم طلبًا إلى شرطة جنوب إفريقيا البريطانية لفتح مزيد من النوافذ في المنزل، لكن طلبه عاد بالرفض لاستحالة تعديل جميع المنازل الحكومية.
وأمام العجز عن فعل أي شيء حيال حقيقة اختناقها غضبًا في هذا الفرن الحكومي أرادت جيما العيش في مكان آخر، في منزل يملكه جوهان كويتزي وليس الحكومة، في منزل تستطيع تعديله ليلائم احتياجاتها وأذواقها، في منزل يمنحها الإحساس بالراحة. بدأت ملامح المنزل الافتراضي ترتسم في مخيلتها، كان منزلًا على الطراز الكولونيالي بنوافذ فرنسية وشرفة حمراء ملتفَّة مع حديقة ورود إنجليزية. قضت جيما معظم فترات الظهيرة في السرير تفرش منزلها الخيالي بأفضل أثاث مع قوائم محفورة بشكل مخلب يقبض على كُرة، وأرقى أنواع الخزف الصيني وأحدث ما يمكن أن يشتريه المال من مستلزمات الطهي، استحوذت عليها صورة هذا المنزل المثالي جدًّا لدرجة أنها بدأت تتوق إلى العيش، كانت مقتنعة أنهم سيشعرون بقدر لا ينضب من السعادة والحب في هذا المنزل، لأنها لن تكون مشاعر صادرة عن الحكومة، وإنما عن عقار تفخر عائلة كويتزي بامتلاكه.
أصبح منزل جيما الخيالي شيئًا ملموسًا لدرجة جعلت جوهان يبدأ برؤيته والاشتياق إلى العيش فيه أيضًا، مع ذلك وحتى في أحلامه، كان جوهان عمليًّا بما يكفي ليدرك أنهما لن يستطيعا العيش في مثل هذا المنزل إلا إن حصل

على ترقية، لذلك تقدَّم بطلب الحصول عليها قبل عام من استحقاقها، لسوء الحظ، وفي تلك المرحلة من تاريخها، كانت شرطة جنوب إفريقيا البريطانية تخضع للتدقيق المالي والتحقيق بقضية فساد، ما جعلها مضطرة إلى اتباع القوانين بحذافيرها، ولم يكن أمامها سوى رفض طلب جوهان.

لم يعد بمقدور جوهان فعل أي شيء، فاقترح على جيما اصطحاب إيميل إلى ديربان حتى يحين الوقت المناسب ويتمكن من تأمين الحياة التي أرادتها بشدة، لم يحظَ اقتراحه بالقبول على أي حال؛ فوالدة جيما وأنتوني سايمنز يديران حاليًّا بنسيون ذا وليامز آرمز، ولن ترتاح جيما بالعيش مع أشخاص لم يخدعوها في ميراثها الشرعي وحسب، بل منحوها إحساسًا دائمًا بأنها ضيف غير مرحَّب به.

توقفت جيما عن الاستماع إلى موسيقى الجاز التي اعتادت إسعادها، وانكفأت إلى جذورها مع موسيقى البلوز، كانت نغمات صوت بيسي سميث تحلِّق كئيبة عبر جراموفونهيز ماسترز فويس[14] لتغلِّف جيما بحزن مغمٍّ منحها هدفًا، قضت أيامًا بطولها تستكشف المسارب الجانبية العديدة لعواطفها وحالاتها المزاجية الشديدة، كانت الكآبة رفيقتها الدائمة والمخلصة، وتفحصت من خلالها جميع عواطفها بدقة بحثًا عما يكفيها من حزن وأسى، وأفضت بها تلك المسارب إلى أول رسالة تلقَّتها -منذ زمن بعيد كما يبدو-،

تلك الرسالة التي وصلتها مخطوطة على ورقة من شرطة جنوب إفريقيا البريطانية بقلم يسيل حبره، تجلت أمام عينَيْ جيما الآن ما خفي عنها آنذاك: أن الرسالة لم تُكتب بعناية كبيرة، وأنها كانت بأمسِّ الحاجة إلى شيء لم يستطع كاتب الرسالة توفيره لها، لم تكن متأكدة تمامًا من ماهية هذا الشيء، لكنها تيقنت أن غيابه هو السبب الحقيقي لكآبتها.

لم تتوقف جيما عن حبها لجوهان، على الرغم من أنه أصبح شديد الشبه بدوجلاس فيربانكس جونيور[15] ما يمنح أي امرأة عاقلة الحقَّ في ألا تكنَّ له هذه المشاعر، رأته بوضوح أكبر الآن، ما صعَّب عليها النهوض من السرير كل صباح.

لم يكن إيميل مدركًا للأفكار التي تعتمل في رأس والدته، كان حينها في الثامنة من عمره، واعتقدَ أن عدم عودة والديه إلى الرقص والاستماع لأغنية «أنتِ اللون الأخضر في قهوتي... أنتِ الملحُ في حذائي[16]» في حفلات الشراب والموسيقى على رقعة من المرج العشبي، حيث ينبغي أن تكون الشرفة، بينما يرتشف عصير الليمون الفاتر بسعادة، ترجع إلى حقيقة أنه «أصبح من المحليين» كما اعتادت والدته الصراخ بوجهه في كثير من الأحيان.

كتم الأمر في نفسه، ومع ذلك عرف إيميل أن تربيته شابتْها نفحات من الهمجية بسبب حلمه المتكرر، أو كابوسه على وجه التحديد. للأسف جثم هذا الكابوس مكان حلمه المفضل حول الصيد، وفي الكابوس كان إيميل يعود إلى

منزله من المدرسة الحكومية التي يرتادها السكان المحليون ليجد منزل البنجل الحكومي الخالي من الشرفات والمطلي بدهان أبيض فارغًا، يضع إيميل حقيبة ظهره على طاولة المطبخ ليملأ الفراغ المخيف في المنزل جسدَه بالخوف، كان يدخل ويبحث في جميع الغرف عن والديه فلا يجدهما، وعندما يتحول الخوف إلى هلع، يعود إلى المطبخ ليجد الفتاة المحلية وطفلها الأسمر جالسَين على نفس الطاولة التي وضع عليها حقيبته، وتسألُه عما كان يفعله في منزلها، وعندما يفتح فمه ليخبرها أنه عاش في هذا المنزل مع والدته ووالده، يهرب من حلقه عواء حيوان جريح بدلًا من أن تخرج الكلمات. كما لو أنها فهمت صوته الحيواني، تجيبه الفتاة المحلية أنها وطفلها يعيشان هناك دائمًا، يقف إيميل حائرًا في أمره ليعوي معتذرًا ويركض خارج المنزل نادمًا على ترك حقيبته خلفه، يتسكع خارج المنزل في انتظار والتر موسجريف ليتمكن من شرح الموقف له، لم يعد يثق باستعادة صوته، فيحاول تكرار اسمه مرارًا وتكرارًا –إيميل... كويتزي... إيميل... كويتزي... إيميل... كويتزي– حتى يشعر بالاطمئنان إلى استمرار قدرته اللغوية، لكن حينها يطرح سؤالًا وقحًا: ما الذي يجعله متيقنًا أن المنزل يخص والتر موسجريف؟

عندما يستفيق إيميل من كابوسه، كان يتنفس بصعوبة، كان خائفًا من الفراغ الذي خلَّفه غياب والديه، ووجود الفتاة المحلية مع طفلها الأسمر، وتفاقمت حالته أكثر، فأصبح غير مضطر إلى الحلم بذلك الفراغ أو الحضور؛ فمجرد استحضار الفكرة كفيل بتضييق حلقه ليبدأ صوت تنفسه بالصفير.

تسبَّب هذا الحلم المتكرر بإزعاج إيميل، وجعله يشعر بالانفصال وعدم الانتماء، وهدده بسرقته من ذلك الحب العميق الذي يشبه التبجيل إلى حد بعيد، ذلك الحب الذي تنفسه في ذاكرته الأولى، في السابق كان ينطلق للاستمتاع بجمال الطبيعة الممتدة حوله، لكنه يقوم بذلك لإحساسه بالأمان عند مشاهدته الظل الأسود الذي يخلفه فوق الطبيعة الريفية الرحبة فيحس بالارتباط بكل ما يحيط به، لذلك قضى إيميل مزيدًا من الوقت في الطبيعة الريفية الإفريقية أكثر مما فعله في منزل البنجل الحكومي دون شرفات، والمطلي بدهان أبيض، بعد كل شيء، كان هناك، وسط أراضي السافانا العشبية الصفراء والخضراء والحمراء والبنية التي ينتمي إليها حقًّا، هناك كان منزله الحقيقي.

بلاك بيريل (Black Peril) حركة تهديد عِرقيَّة بانجذاب الرجال السود في إفريقيا إلى النساء البيض واغتصابهن. (المترجِم)

الكلمة مشتقَّة من (cockeyed) باللغة الإنجليزية، وتعني أحمق أو أحول أو سكران. (المترجِم)

جانيت جاينور (1906-1984) ممثلة سينمائية ومسرحية أمريكية، وهي أول من يفوز بجائزة الأوسكار كأفضل ممثلة في ثلاثة أفلام. (المترجم)

كارول لومبارد (1908-1942) ممثلة أمريكية اشتهرت بأعمالها المتميزة والنابضة بالحياة. (المترجِم)

تكنيكولور: هي تقنية تصوير ثورية نقلت السينما من الأبيض والأسود إلى عالم الألوان. (المترجِم)

«هيز ماسترز فويس» (HMV) تعتبر أقدم سلسلة متاجر للتسجيلات الموسيقية في بريطانيا. (المترجم)

دوجلاس فيربانكس جونيور (1909-2000) ممثل ومنتج ومخرج أمريكي. من أعماله فيلم «سجين زندا». (المترجِم)

أورد نصُّ الرواية كلمات مختلفة عن الأغنية الأصليَّة، وقد يكون ذلك خطأ مقصودًا، الشطر الأصلي للأغنية هو «أنتِ قشدة قهوتي... أنتِ ملح حسائي». (المترجم)

الفصل الثالث

اختار جوهان وظيفة تحقِّق استقرار عائلة كويتزي في سيتي أوف كينجز، فتمكن أخيرًا من استرجاع سعادة جيما. للأسف كان هذا الحل مُكلفًا لجوهان الذي اضطر إلى الموافقة على ما يشبه تخفيض رتبته في شرطة جنوب إفريقيا البريطانية، لأنه غادر البلدة قبل عامين مما اتُّفق عليه، ونتيجة لذلك لم يستطع شراء المنزل كولونيالي الطراز بنوافذ فرنسية وشرفة حمراء ملتفَّة مع حديقة ورود إنجليزية، والذي عشش في مخيلة جيما لفترة طويلة جدًّا، كل ما استطاع تأمينه هو استئجار شقة –الشقة 2 إيه تحديدًا– في حي ذا برينسز مانشنز على زاوية التقاطع بين شارع بورو وسيلبورن أفنيو، قبالة مدرسة إيفلين الثانوية، وبإطلالة على التقاطع حيث وقعت عينا جوهان على جيما أول مرة، وهوى في شِباكِ شعرها الأشقر المتموج، وضحكات شفتيها الورديتين.

عندما رأت جيما الشقة ونظرت من نافذة غرفتها لترى مكان لقائها الأول برجُلها الشبيه بدوجلاس فيربانكس جونيور، شعرت برومانسية تعبق في كل شيء، ونسيت منزل أحلامها فورًا، وحصل جوهان على غفران مؤبد. ربما عجز الرجل الذي تزوجته عن تأمين منزلها الخاص، لكنه بيَّن معرفته العميقة بطبيعتها الرومانسية، فما الذي قد تفعله جيما بحديقة ورود إنجليزية خاصة بها، فيما تستطيع التحديق للأبد إلى المكان الذي أزهر فيه حبها الحقيقي لأول مرة؟

لم يكن التقاطع بين شارع بورو وسيلبورن أفنيو المكان الشاهد على أول لقاءاتهما وحسب، بل قلب المدينة النابض. وسرعان ما قررت جيما التماهي مع هذا النبض، لم تزعجها الحرارة الجائرة في سيتي أوف كينجز، كانت شديدة الانشغال لدرجة أنها لم تشعر بأي شيء إلا السعادة. عند ارتفاع الحرارة إلى درجات لا تُطاق، بإمكانها دومًا الذهاب مع جوهان وإيميل، أو لوحدها، إلى حمامات السباحة التابعة للبلدية في شارع بورو، وفي الأمسيات إذا شعرت جيما بحاجتها إلى جو أكثر اعتدالًا، كل ما عليها فعله هو ارتداء أفضل فساتينها وتأبط ذراع جوهان، والمشي لمسافة قصيرة حتى المسرح في سيلبورن أفنيو، أصبحت كل ملذات الحياة في متناول يديها فجأة.

شعرت جيما برضًا ودَّعت به أيام العز الصاخبة للعشرينيات، وفتحت ذراعيها لتتقبل الأفراح الأكثر رصانة في ثلاثينيات القرن العشرين بعد انضمامها للمؤسسة النسائية، وسرعان ما بدأت الاستمتاع بصناعة أغطية أباريق الشاي، وتطريز وحياكة مفارش المائدة، وخَبز كعك فكتوريا لمبيعات ومسابقات الخَبز، وإبداعٍ دقيق للنقوش على الكتان مع عبارة السيد والسيدة جيه كويتزي.

استُكملت هذه القناعة بعودة السلام الداخلي أخيرًا إلى جيما، حيث بدأ إيميل بارتياد مدرسة ميلتون في سيلبورن أفنيو. سابقًا وفي البلدة التابعة لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية كان ابنها يرتاد المدرسة الوحيدة المتاحة في الجوار، كانت مدرسة حكومية بنيت على مضض للسكان المحليين، التحق إيميل بالمدرسة بناء على اقتراح من الحاكم لوالده آنذاك باعتبارها أفضل طريقة لتشجيع التعليم في المنطقة، لم يكن مستوى تعليم السكان المحليين جيدًا، ولم يصل إلى مراحل متقدمة، لكنه لعب دورًا هامًّا في الإدارة الناجحة لمستعمرة الحكم الذاتي، أدركت جيما ضعف مستوى التعليم الذي يتلقاه ابنها في المدرسة، لكنها وافقت لمعرفتها بانتقاله إلى مدرسة ميلتون في سيتي أوف كينجز بمجرد أن يتم التاسعة من عمره، وقبل تعرُّضه لأي ضررٍ حقيقي. تخيلت احتمال ارتياده للمدرسة كطالب مُقيم، فانتابتها مشاعر الذنب والتخوف، وازداد سرورها بقرار انتقالهم إلى برينسز مانشنز، إذ بإمكانها مرافقته الآن من المدرسة وإليها.

بالنسبة إليه لم يستطع إيميل الوقوع في حب سيتي أوف كينجز بشوارعها العريضة المحفوفة بأشجار الجاكاراند والفلامبويانت والأكاسيا، ومبانيها الخرسانية، وشراييها من خطوط السكك الحديدية، ومركباتها البخارية المزعجة، ومتنزهاتها المزينة بلمسات نزعت عنها الجمال الطبيعي، ومصانعها التي تواصل نفث الدخان في الهواء، وأساليبها الآلية في تنظيم المرور، والتي حولت مراقبة المرور إلى وظيفة عفا عليها الزمن، كل ما رآه في جولته بالمدينة كان عبارة عن جو موبوء، وكل ما تناهى إلى سمعه كان نشازًا، فاقتنع أنه لن يجد موطنًا في مثل هذا المكان.

ألقى إيميل باللوم على نفسه في الانتقال بعيدًا عن البلدة التابعة لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية عند سفوح مرتفعات ماتوبوس، كيف لا وقد افترض اتخاذ هذه الخطوة لأنه أصبح من المحليين، لم يكن الوجود في المدينة مفيدًا، فازداد تواتر جاثوم الفتاة السوداء وطفلها الأسمر على الرغم من ابتعاده عن بيئته الطبيعية. اتخذ الكابوس تفاصيل أكثر شؤمًا ورعبًا، وكلما حاول الصراخ باسمه في البراح الإفريقي، خرج عواء حيوان جريح، ولم يجد ظله الأسود المعتاد، بل خيالًا أسود لمخلوق حيواني يسير على قوائمه الأربعة، في الحلم كان يرفع يديه أمامه متوقعًا رؤية مخالب أو حوافر، لكنه لم يصل قط إلى اكتشاف ما هو موجود في نهاية ذراعيه الممدودتين.

تفاقمت أصوات الصفير الصادرة عن تنفس إيميل في سيتي أوف كينجز كنتيجة لا مفر منها، علمت جيما من الدكتور سترومبيرج أن تلوث الهواء الناجم عن السيارات والقطارات والمداخن هو السبب الرئيسي لإصابة ابنها بالربو، لا علاج لهذا المرض، ولكن تتوفر وسيلة لتخفيف آثاره، ونتيجة لزيارة الدكتور سترومبيرج، بدأت جيما باصطحاب إيميل إلى جالين هاوس صباح كل يوم

أربعاء، كانا ينزلان الدرج معًا إلى قبو البناء، وبينما تنهمك والدته في تقليب صفحات مجلات أزياءٍ أو شؤون تدبير منزلي، كان إيميل يجلس بجوار آلة عملاقة تنفث بخارًا كريه الطعم، ويضع أنبوبًا على شفتيه ليتنشق ممتصًّا البخار، وباستثناء كرسيَّين وطاولة قهوة تكدست عليها إصدارات قديمة من المجلات، كانت هذه الآلة هي الشيء الوحيد الموجود في قبو البناء. كان المكان مريبًا ورماديًّا وباردًا، وكان إيميل يكره ذلك المكان، ويمقت زيارات الأربعاء الأسبوعية، كان يبغض الضعف الملحوظ في صدره، وكاد أن يكره عدم اكتراث والدته وهي تقلب المجلات.

كانت الكراهية شعورًا جديدًا وقويًّا بالنسبة إلى إيميل الصغير، في أثناء إقامته في البلدة الاستعمارية كان يحب كل ما تقع عيناه عليه؛ الطبيعة الريفية الرحبة والتلال ورسومات الكهف وراقصي المطر... حتى المنزل الحكومي بطراز البنجل دون شرفات مع جدرانه المطلية بلون أبيض، والذي كان يدعوه منزله، أكثر ما أحبه كان ظله الأسود الحائم فوق الأرض، والذي يربطه بما يحيط به من تربة وتاريخ.

عندما رأى سرور والديه بالمدينة، ولا سيَّما والدته، حاول أن يحب الأشياء التي تحبها؛ المتنزه العام، والمسرح وحمامات السباحة التابعة للبلدية، لكن استحسان هذه المعالم كان أقصى ما استطاع تقديمه، المتنزه مع مروجه المزينة بدقة، والحدائق ذات المناظر الطبيعية المتربِّعة بين أحضان دروب هادئة لا تقارن بالبراح البري المفتوح، لم تأسر الأعمال الدرامية للمسرح مخيلته كما فعلت حكايا الصيد المرسومة على جدران كهف سان، ولم يكن للمسابح التابعة للبلدية نفس الأعماق والأخطار المحتملة لسد متشيليلي، بكل بساطة لم يشعر بالانتماء إلى سيتي أوف كينجز، لكن، وأيًّا تكن أمانيه، أدرك إيميل استحالة عودته إلى البلدة الاستعمارية التابعة لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية عند سفوح مرتفعات ماتوبوس.

مفتقدًا أيَّ إطار مرجعي خاص بفتيان مدرسة ميلتون، لم ينجح إيميل بتكوين صداقات لأنه لم يحاول ذلك. اعتاد الأولاد في مدرسة ميلتون حب سيتي أوف كينجز ومعالمها الباعثة على البهجة، وفي أثناء لعبهم بكرات البلي الزجاجية أو تبادلها، أو مقارنة النماذج البلاستيكية للسيارات، أو قذف كرات الرائحة النتنة أو غزل لعبة اليويو، كانوا يتحدثون بإسهاب عن بطل آخر أفلام الغرب التي شاهدوها عبر جهاز العرض السينمائي، عن متعة السفر بالقطار إلى سالزبوري[17] وجويلو[18] وأومتالي[19] وفورت فكتوريا[20] لزيارة الأقارب، وعن مشاهدتهم الشخصية لحادث سيارة مميت تم تجنبه بفضل الاتساع الحكيم لطرق المدينة، كان حب هؤلاء الأولاد وفخرهم واضحًا لنفس الأشياء التي وجد إيميل خطبًا فيها.

وبديلًا عن مغامرات البراح الريفي التي لا تضاهي، وجد إيميل بعض العزاء في كتب المدرسة والمكتبات العامة، غاص كليًّا في خيال إتش رايدر هاجارد[21] وإدغار رايس بوروس[22] وروديارد كيبلينج[23]، وعثر في أعمالهم على التشويق الذي افتقده في حياته، كان يهرب إلى العوالم البرية التي أبدعها المؤلفون ويتمنى ألا تنتهي قصصهم أبدًا.

«أنا آلان كواترمين من ديربان، ناتال يا سيد...» كان يقرأ هذه الكلمات مرتين على الأقل في الشهر، متلهفًا لفتح رواية «كنوز الملك سليمان» والانطلاق في المغامرة من جديد، وبشكل خاص، أحب إيميل فكرة مسقط الرأس المشترك، والذي لم يعد يتذكر الحياة فيه، مع الرجل الذي سرعان ما تحوَّل إلى بطله المحبوب، آلان كواترمين.

«أنا إيميل كويتزي من ديربان، ناتال يا سيد...» كان يكتب هذه العبارة مرارًا وتكرارًا على هوامش كتب التمارين الخاصة به، فيما يشاهد حياة المدينة تمر أمامه، ويحلم بالعودة إلى الأدغال مجددًا، على الرغم من أنها لم تمنحه إحساسًا بالانتماء إلى ديربان، فقد وفرت هذه الكتابات على الهوامش له شعورًا بأنه قد يكون بطلًا لقصة ما.

أستاذه في المدرسة، السيد بارتلبي، كان رجلًا فطنًا وشديد الحساسية، وقد لاحظ أن انتقال إيميل إلى حياة المدينة لم تكن تجربة سعيدة، عندما رأى التهام إيميل للكتب واحدًا تلو الآخر، افترض أنه أمام طفل مولع بالدراسة، طالب مجتهد حياته ملأى بالمغامرات، ذلك النوع من المغامرات التي لا نجدها في المدينة، المغامرات التي يقتصر وجودها على أراضي السافانا العشبية في البلد الذي عاش فيه.

اعتبر السيد بارتلبي أن خربشات الصبي لعبارة «أنا إيميل كويتزي من ديربان، ناتال يا سيد...» ما هي إلا صرخات تطلب المساعدة، وبدأ في البحث عن وسيلة لإنقاذه، وسارع للاتصال بوالدَيْ الصبي بمجرد عثوره على الحل، وبينما كانا جالسين أمامه كنجمين خارجين من عرض سينمائي، أدرك السيد بارتلبي أنهما شخصان عاشا حياة عَرَضية قائمة على المصادفات التي جمعت كلًّا منهما بنصفه الآخر، وأنه لم يقم بمثل هذه الزيارة الاستثنائية لأيٍّ أحد في حياته، قال السيد بارتلبي وهو يدفع منشورًا إعلانيًّا عبر مكتبه تجاههما: - مدرسة سيلوس للبنين.

التقطت الزوجة المنشور ونظرت إليه بشيء من العبوس، أوضح السيد بارتلبي محاولًا تخفيف عبوسها: - إنها أفضل مدرسة في البلاد.

بينما شاهدها تُمعن النظر في المنشور، وتزداد عبوسًا قبل تمرير المنشور إلى زوجها الذي امتقع وجهه بنفس العبوس.

أضاف السيد بارتلبي مدركًا وقوعه في خطأ عدم اتباع ترتيب معيَّن للأمور، وأن الوقت قد فات لتلافي المسألة: - إنه أفضل مكان للصبي.

تبادل الزوجان المثاليان عبارات مرتبكة قبل أن تقول جيما: - الصبي؟ هل تعني ابننا، إيميل؟
- نعم، نعم، أقصد إيميل، نعم.
أطلق الزوج ضحكة خفيفة وساحرة، وقال:
- عذرًا، نحن لم نفهم قصدك.
قال نحن لم نفهم، وليس أنا لم أفهم، خمن السيد بارتلبي أن مثل هذا الانسجام والتوافق في الآراء لا بد وأنه شيء رائع.
- بالفعل، لقد أمَّن الصبي لنفسه مكانًا ومنحة كاملة.
تبادلا تعابيرهما المشوشة مجددًا.
- كتب مقالًا في صفي حول ظله الحائم فوق ضريح رودس في المَطل العالمي، يا له من عمل مؤثر، أرسلت المقال إلى مدير مدرسة سيلوس للبنين، فقرأه وأعجب به حقًّا، وافق كلانا أن أفضل شيء يمكننا تقديمه للصبي هو مغادرة مدرسة ميلتون في نهاية الفصل الدراسي.
غمغم الزوج مستفسرًا تحت شاربٍ جميل ومنمَّق التشذيب: - مغادرة مدرسة ميلتون في نهاية الفصل الدراسي؟
- نعم.
قالت الزوجة بفم متجهم:
- لطالما حلمتُ أن يرتاد إيميل مدرسة ميلتون، نحن نعيش بالقرب منها في منطقة برينسز مانشنز عند التقاطع بين شارع بورو وسيلبورن، المكان مريح جدًّا، وأستمتع بالسير معه إلى المدرسة ومنها يوميًّا.
لم يُرد السيد بارتلبي مخالفة رغباتها، لكن ليس بمقدوره فعل شيء الآن.
- الصبي ليس سعيدًا تمامًا هنا.
جاء وقع هذا الخبر كالصاعقة على رأس الزوجين المثاليين اللذين نظرا إلى بعضمها بتساؤل.
- يحس أن البرية تناديه، لن يكون سعيدًا حقًّا، ولن يشعر بالانتماء إلى المدينة كموطن له.
- آه، حسنًا.
قالها الزوجان في انسجام تام، تساءلت جيما وقد مدت يدها إلى المنشور الذي ما زال بين يدَيْ زوجها: - أين تقع هذه المدرسة بالضبط؟
- ميدلاندس.
صاحا معًا من جديد:
- ميدلاندس!
- أؤكد لكما أنها أفضل مدرسة في البلاد، الأفضل على الإطلاق.
قالت:

- إنها مدرسة داخلية، وهو في التاسعة من عمره فقط.
تبادلا نظرة أخرى، وأدرك السيد بارتلبي حجم الرهبة التي مرت بينهما، ربما استعادا ذكرياتهما الخاصة في المدرسة الداخلية، والتي قد لا تكون سعيدة جدًّا.
- تقع المدرسة في قلب مساحات شاسعة من السافانا البرية، سيتمكن من الاستكشاف وصيد الحيوانات والسمك، والتخييم... وسيتوفر له أفضل مستوى تعليمي يمكن أن يحصل عليه الأولاد في هذه الدولة.
سألت بنبرة يشوبها الحذر:
- الأفضل؟
قال السيد بارتلبي راجيًا أن يثير ذلك إعجابهما:
- الأفضل على الإطلاق، مدرسة سيلوس للبنين تحوِّل الأولاد إلى رجال يصنعون التاريخ.
على وجبة عشاء تلك الأمسية، فقدت جيما اهتمامها الطبيعي بالتفاصيل، لم تستطع إدراك جوهر الاجتماع عندما أعلنت –وهي تضع سلطة الخيار في طبقه، وبكمية إضافية تزيد على حاجته–: - التقينا بالسيد بارتلبي يا صغيري، وصدر قرار بانتقالك إلى مدرسة سيلوس للبنين مع بداية العام المقبل.
أردفت بابتسامة باهتة.
- أليس هذا شيئًا رائعًا؟
تفحص جوهان وجه ابنه، وكان الارتباك أول انطباع يسجله، وأضاف بحذر: - إنها في ميدلاندس!
- ميدلاندس؟
كان الذعر هو الانطباع الثاني الذي ظهر على وجه إيميل.
قالت جيما:
- إنها أفضل مدرسة في الدولة كلها.
أضاف جوهان موضحًا:
- الأفضل على الإطلاق.
قالت جيما بابتسامة أكثر برودة:
- أنت محظوظ يا صغيري بانضمامك إليها.
كان الخوف هو الانطباع الثالث الذي عكسته ملامح إيميل.
- هل اقترفتُ أي فعل خاطئ؟
قالت جيما وهي تداعب خد إيميل بقرصة لطيفة:
- فعلٌ خاطئ؟ ما الذي يمكن أن تفعله ويكون خطأ يا عزيزي الصغير؟ هذا شيء جيد يا عزيزي، شيء رائع بالفعل.

حدَّق إيميل إلى والده بعينين متوسلتين ليتخذ –ولو لمرة واحدة– قرارًا يخالف رأي والدته، قال جوهان وهو يمد يده ليداعب شعر ابنه: - قيل لنا إنها تقدم الكثير من أنشطة الصيد والرماية، إنها نوعك المفضل من الأنشطة.

قالت جيما وأصابعها تصفف شعر إيميل الغزير:

- سيكون الأمر مثل الحياة في البلدة الاستعمارية، لكنك في هذه المرة ستتلقى أفضل مستويات التعليم في البلاد، إنها الأفضل على الإطلاق.

- إنهم يحولون الأولاد إلى رجال يصنعون التاريخ.

- أو شيء من هذا القبيل.

- في ميدلاندس؟

قالا معًا:

- نعم، في ميدلاندس.

وكلاهما يحاول التصالح مع هذه الحقيقة.

سارت الأمور بسرعة مخيفة، وحلت نهاية الفصل الدراسي، أخبر السيد بارتلبي إيميل أن حياته على وشك التحول نحو الأفضل، وأنه محظوظ جدًّا بهذه الفرصة النادرة التي أتيحت له، وأكد ثقته التامة من قدرة إيميل على إثبات استحقاقه لها، وفي أثناء حديث السيد بارتلبي، حاول إيميل إبعاد نظره عن البطاقة البريدية على مكتب مدير المدرسة، والتي تحمل صور تماثيل الجرغول[24] في قصر سانسوسي[25]، همس إيميل بنبرة حائرة: - شكرًا لك، سيدي.

فقدم له السيد بارتلبي هدية وداع هي قبعة رعاة البقر، في ذلك الوقت لم يعرف السيد بارتلبي ولا إيميل أن هذه القبعة ستصبح يومًا عنصرًا أساسيًّا من إطلالة إيميل كويتزي.

تمالكت جيما نفسها بينما اتجهت إلى متجر ميكلز متعدد الأقسام لشراء صندوق أمتعة لإيميل، كان ذلك إسرافًا قياسًا بالراتب الضئيل الذي كان جوهان يتقاضاه من وظيفته المدنية، لكنها شعرت أن الطفل يستحق الأفضل، وبمجرَّد وصوله نقش جوهان الاسم إيميل كويتزي على صندوق الأمتعة.

وفيما كانت عائلة كويتزي تحاول اتخاذ قرار بشأن الخطوة التالية، وصلت رسالة من مدرسة سيلوس للبنين تهنئ فيها إيميل على قبوله، وتقدم له قائمة طويلة جدًّا من العناصر المطلوبة، وزَّع كلٌّ من جيما وجوهان القائمة إلى قسمين، وبدآ شراء عناصرها، تمنى جوهان وجود أكثر من عطلة واحدة ليحصل على أكثر من راتب يساعده في التحضير لمغادرة إيميل إلى المدرسة الداخلية، صحيح أنه حصل على منحة كاملة، ولكن لا بد من شراء الزي المدرسي لفصلي الصيف والشتاء، إضافة إلى زي تدريب عسكري وعدة أدوات رياضية، ولائحة طويلة من العناصر المتنوعة وبينها بندقية ومسدس

-وهي الأولى في سلسلة من الأسلحة النارية التي سيحتاج إليها الصبي بمرور السنين في المدرسة-. كان إيميل صبيًّا في طور النمو، ما يرجح أن تحمل بداية كل عام جديد نفقات مماثلة، لحسن الحظ تعلمت جيما كيفية ترشيد النفقات في راتب الموظف المدني، وطورت مهارة خاصة في المساومة والمبيعات، نجحت في ترشيد راتب جوهان لتتمكن من تحمُّل نفقات جميع متطلبات إيميل في مدرسة سيلوس للبنين، وقبلت بلطف دعوات فيتزجيرالد للكريسماس ورأس السنة الميلادية لتتمكن عائلة كويتزي من قضاء موسم احتفالي رائع قبل مغادرة إيميل إلى المدرسة، كما فعلت عائلة كويتزي، غادر سكوت فيتزجيرالد البلدة الاستعمارية التابعة لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية، واستقر –مثلهم– في سيتي أوف كينجز، وفي حفلات فيتزجيرالد كانت جيما ترجو ألا يلاحظ أحد جواربها المرتَّقة.

ودون أن يكون مطالبًا بفعل أي شيء، شاهد إيميل صندوق أمتعته يمتلئ تدريجيًّا، تمنى من كل قلبه أن يحب سيتي أوف كينجز أكثر، لأن ذلك الحب كان سينقذه من المصير الذي حل به الآن.

امتلأ الصندوق وأُحكم إغلاقه قبل يوم من مغادرته إلى مدرسة سيلوس للبنين.

قالت جيما فجأة:

- أليس من الرائع أن نذهب إلى متنزه المئوية؟ تستطيع ركوب القطار هناك، ألم تُرد ذلك دومًا؟

أومأ إيميل برأسه، هل فات الأوان الآن للتظاهر بحب كل الأشياء التي يمكن أن تقدمها المدينة؟ قالت جيما وهي تبحث عن قبعتها: - يمكننا الذهاب إلى متحف التاريخ الطبيعي بعدئذ... أو... أو إلى المسرح لحضور العرض النهاري، هناك عرض جديد "كل شيء مباح" على ما أعتقد.

وهكذا قررت جيما أنشطة اليوم في الخارج.

- ستشاهد في العرض الكثير من الآلات الموسيقية، ستحب ذلك، ويمكننا تناول بعض الآيس كريم، سنقضي يومًا كاملًا هكذا، سأترك ورقة ملاحظة وإرشادات لوالدك حول أفضل طريقة لتسخين فطيرة الراعي، لا أريده أن يقلق عندما لا يجدنا على الغداء.

وبنفَس متقطع، تفقدت جيما انعكاس صورتها على مرآة الردهة.

- أعلم أنك تودُّ لو استطاع والدك الحضور في مثل هذه اللحظات الأخيرة، يمكننا جميعًا الذهاب لمشاهدة العرض السينمائي مساءً، ستحب ذلك بالتأكيد، أليس كذلك؟

أومأ إيميل ببطء، فيما انهمكت والدته بوضع لمساتها النهائية على مظهره.

- نعم، سنقضي يومًا كاملًا على هذا النحو، وسيكون الأمر جميلًا... جميلًا جدًّا.

قررت جيما قضاء أفضل يوم لها مع ابنها، عبرت شارع بورو مع إيميل وهي تمسك يده بأمان وثبات، بدأ اليوم واعدًا بما فيه الكفاية، ركبا القطار عبر متنزه المئوية، وبذلت جيما جهدها لرسم ابتسامة على وجهها بسبب أو دون سبب، ومن حين لآخر، كانت تسرِّح الشعر الأشقر لابنها كلما بعثرته النسمات، وعندما نزلا من القطار، اشترت الآيس كريم وتناولاه وهما يشقان طريقهما نحو المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي، لقد أمضيا وقتًا طويلًا جدًّا وجيما تبدي إعجابها بالمطبوعات الحجرية، والرسائل والأواني الفخارية والأدوات والأسلحة والمستحاثات ومعارض الحيوانات والجوائز التي تمثِّل بعضًا من جوانب ماضي الدولة، من الواضح أن إيميل كان يستمتع بوقته، لذلك سمحت له جيما بالتصرف على سجيته... حتى سمعت صوت صفير تنفسه عندما وقف أمام نموذج مصغر لمنزل بنجل بدا شبيهًا بمنزلهم عند سفوح مرتفعات ماتوبوس، وربما كان السبب هو الغبار في المكان، كما افترضت جيما وهي تقود إيميل من يده خارج المتحف على أمل أن يتحسن في المسرح، ليواصلا الاستمتاع بيومهما.

لم يستطيعا الصمود حتى فترة استراحة فيلم «كل شيء مباح»، فصوت الصفير استقطب نظرات متعاطفة تحوَّلت إلى تحديق بانزعاج، ليتعالى صوت همس موحد في النهاية: - من الأفضل أن تصحبي المسكين الصغير إلى المنزل.

أذعنت جيما لرغبات الهامسين، وأمسكت إيميل من يده وسارا عائدين نحو سيبلورن أفنيو باتجاه برينسز مانشنز، وصعدا الدرج معًا، فتحت باب الشقة لتتوقف على الفور وتطلق صيحة استغراب عندما لم تسمع أي صوت.

عندما رأى إيميل والده يرتدي قبعة والدته الحمراء بطراز الكلوش، وفستان الشيفون والدانتيل الأسود ذي الخصر المنخفض، مع عقد من اللؤلؤ وأحمر شفاه، افترض أنها مزحة أو شيء مضحك أعده والده لرحيله، كان على وشك الضحك لولا أن رأى نظرة الرعب المطلق على وجه والدته، نظر إلى والده فبدت ملامح الذنب والذل والعار على وجهه، وامتلأ قلب إيميل بالرعب، كان يعلم أنه لم يُفترض وقوع أي شيء مما جرى.

تركت جيما يد إيميل واتجهت نحو خزانة الأدوية في الحمام، تركت الأب وابنه يحدِّق كل منهما إلى الآخر، ومع الرائحة الشهية لفطيرة الراعي، غابت عينا جوهان في نقطة فوق رأس إيميل مباشرة واستقرتا هناك، وستبقيان على هذه الحال كلما نظر الأب إلى ابنه، عادت جيما مع دواء إيميل، وأعطته إياه ثم ذهبت إلى غرفة نومها وأغلقت الباب خلفها، وأحاط بهم صمت مطلق.

بعد ما فعله جوهان، كان هو وجيما خائفين مما قد يقوله أحدهما للآخر، فتوقفا عن التحدث مع بعضهما تمامًا، وبهذه الطريقة لم يكن عليها أن تسأله

عما شاهدته، ولحسن الحظ لم يكن مضطرًّا إلى الشرح والتفسير، وبقي إيميل وحيدًا وسط ارتباك الصمت.

تُعرف حاليًّا باسم هيراري؛ وهي عاصمة زيمبابوي وأكثر مدنها اكتظاظًا بالسكان. (المترجِم) تحوَّل اسمها اليوم إلى جويرو؛ وهي مدينة في وسط زيمبابوي بالقرب من المركز الجغرافي لِلدولة، وعاصمة إقليم ميدلاندس. (المترجِم) تحوَّل اسمها اليوم إلى موتاري؛ وهي أكبر مدينة من حيث عدد السكان في إقليم مانيكالاند. (المترجِم) تأسست فورت فكتوريا عام 1890 لتكون أول بلدة في روديسيا، وكانت أول بلدة يقصدها زوار الدولة. (المترجِم) هنري رايدر هاجارد (1856-1925) كاتب إنجليزي من العصر الفيكتوري لروايات مغامرات مشوقة، من أعماله «كنوز الملك سليمان». (المترجِم) إدغار رايس بوروس (1875-1950) كاتب أمريكي للعديد من قصص المغامرات والخيال العلمي، من أبرز إبداعاته شخصية طرزان. (المترجِم) رودیارد کیبلینج (1865-1936) صحفي وشاعر وقاصٌّ ولد في الهند البريطانية، من أشهر أعماله «كتاب الأدغال». (المترجِم) الجرغول هي تماثيل حجريَّة لمخلوقات متوحشة. (المترجِم) قصر سانسوسي يقع في بوتسدام بألمانيا. في عام 1990، تم إدراجه في قائمة المواقع المحمية من قبل اليونسكو. (المترجِم)

الفصل الرابع

بدأت ملامح مدرسة سيلوس للبنين بالتجسد في مخيلة إيميل منذ أن عِلِم بانتقاله إليها، وفي الليل كانت أحلامه ترسم خيالات سريالية عن المدرسة، فبدت كمبنىً واسع ومترامي الأطراف بطراز معماري قوطي ولون رمادي، وتتكامل الصورة مع تماثيل جرغول حجرية كالتي رآها على البطاقة البريدية لقصر سانسوسي في بوتسدام بألمانيا، والموجودة في مكتب السيد بارتلبي، وازداد طين ذعره بلة مع اعتقاده أن المدرسة –لسبب ما– تقع وسط خندق مائي يضجُّ بأسماك البيرانا المفترسة، ووصل إيميل إلى انطباع أنه لن يشعر بالسعادة في ذلك المكان.

خيم الصمت على الرحلة الطويلة إلى ميدلاندس في السيارة التي استعارها والده من سكوت فيتزجيرالد، أكثر ما احتاج إليه إيميل في تلك اللحظة كان مواساة لطيفة ومريحة لم يحظَ بها من صوتي والديه، جلست والدته بقربه في المقعد الخلفي، كانت ترتدي قفازًا أبيض في يدها اليمنى التي وضعتها على يديه العاريتين، ابتسمت له بوهنٍ قبل أن تحدِّق من النافذة، ومن مقعد السائق، وعبر مرآة المشاهدة الخلفيةً، كان والده يختلس نظرات متتالية إلى المساحة الخالية فوق رأس إيميل، ليقنع نفسه بأن كل شيء سيسير مع ابنه على خير ما يرام.

بينما كان جالسًا هناك، صامتًا مثل أبي الهول، تساءل إيميل عما شاهده ووالدته في اليوم السابق، وما الذي يمنع الحديث عنه، وبدلًا من طرح السؤال، نظر إيميل من النافذة وحاول مواساة نفسه بالمناظر الطبيعية المتغيرة: المدينة والضواحي والممتلكات الصغيرة والمزارع والقرى، وأخيرًا، وبشكل منعش، مساحات واسعة مفتوحة فيها أعشاب الفيل المترنمة.

مع اقترابهم أكثر من القلعة رمادية اللون بطابعها المعماري القوطي وتماثيل الجرغول، أدرك إيميل تدريجيًّا أنه يكبر، سواء كان مستعدًّا لتلك المرحلة أم لا، وتيقَّن أن هذه أولى خطواته بعيدًا عن والديه، ما دبَّ فيه رعبًا تخطى كوابيسه التي راودته عن مدرسة سيلوس للبنين، ومع دنوِّ اللحظة الحاسمة، شعر إيميل بالغثيان والاضطراب في معدته، فسارع للضغط على يد والدته مرتين في أسلوب تواصل جديد معها لإخبارها بضرورة نزوله لقضاء حاجة في أكمة قريبة، وهي –بدورها– نقرت على الجزء الخلفي من مقعد السائق ليوقف السيارة على جانب الطريق.

مشى إيميل نحو أعشاب الفيل بمفرده، وقبل أن يبتعد تقيَّأ جميع الوجبات الثلاث التي تناولتها عائلة كويتزي بصمت في محطات الانتظار على طول الطريق، وعلى الرغم من شعوره بالتحسُّن الجسدي، فإنه لم يكن مستعدًّا

بعد للعودة إلى السيارة والانضمام إلى صمت والديه، لحسن الحظ سمع أصواتًا من بعيد فمشى باتجاهها حتى رأى مزرعة لعائلة إفريقية، كان الرجال يحملون ذكر ظبي جميلًا على أكتافهم وقد عادوا للتو من رحلة صيد، وكانت النسوة والأطفال يزغردون مهللين لعودتهم، لفترة وجيزة ومجنونة، فكر إيميل في الانضمام إليهم ومشاركتهم فرحتهم، لكنه لم يستطع ذلك بالطبع.

وقبل أن يعود، وقعت عيناه على دجاجة وفرخ تائهين بعيدًا عن المزرعة، ومتجهين نحو مناطق يجهلانها، بدا وكأن الفرخ يدرك الخطر أكثر من أمه، فظهرت عليه جميع علامات القلق، وبقي قربها يحفُّ جسده الصغير بين ساقيها رغم دفعها له أكثر من مرة بسبب خدش في ساقها، طار الفرخ بهياج ليحط على ظهر أمه، لم يستطع البقاء هناك طويلًا، فسقط ليلعب بين ساقيها مجددًا.

عجز إيميل عن إنقاذ نفسه بعيدًا عن المصير الذي يتربص به، لكنه كان قادرًا بالتأكيد على إنقاذ الفرخ، فتحرك فجأة بين أعشاب الفيل، وأصدر صوتًا أرعب الدجاجة فهربت منه وركض الفرخ ممتنًّا خلف أمه بعيدًا عن الخطر، ولكنه لم يبتعد للأسف عن لا مبالاتها.

لم يستطع إيميل تمالك نفسه فبكى، وتعهَّد أنها آخر مرة سيبكي فيها، أدرك في تلك اللحظة أن الدموع عاجزة عن تغيير أي شيء في العالم.

لم تكن مدرسة سيلوس للبنين -والتي تأسست في ميدلاندس عام 1918 - القلعة ذات الطراز المعماري القوطي والتي ساورت أحلام إيميل، كانت سلسلة من المباني البيضاء بطراز كولونيالي وأسقف حمراء، وبأحجام وتصاميم متنوعة يحتضنها وادٍ هادئ ومورق وأخضر... كانت المدرسة تفتخر بشعارها: «هنا يصبح الأولاد رجالًا يصنعون التاريخ»، وقد خُطَّ على لافتة تعلو رؤوس الداخلين إليها.

قرأ إيميل الشعار، وكان سعيدًا ومرتاحًا لأنه لم يُكتب باللغة اللاتينية، بدت المدرسة مضيافة كفاية، لكن إيميل لم ينخدع؛ لقد تعلَّم مؤخرًا أن الأشياء ليست كما تبدو دائمًا.

إضافة إلى ذلك، كان إيميل في التاسعة من عمره فقط، فما الفرق الذي قد يُحدثه عندما يصبح رجلًا؟

ركن جوهان سيارة سكوت فيتزجيرالد في ساحة وقوف السيارات حيث علَت ضجة فارغة من عائلات خرجت بتثاقل من سياراتها، وحملَت صناديق أمتعة أبنائها بصعوبة وهي تُجري محادثات اجتماعية مهذبة، ظهر أولادٌ لم يتجاوزوا السادسة من العمر، وقد ابتُلعت أجسادهم كليًّا في الزي الرسمي، وأولادٌ في سن إيميل تقريبًا، مع رُكَبٍ بارزة وعيونٍ واسعة، ولاحظ إيميل فتيانًا في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر، وهم يصرُّون على مساعدة آبائهم في حمل الأمتعة، وشاهد يافعين في السادسة عشرة أو السابعة عشرة

من العمر، وقد جالت عيونهم الخبيثة في الحشد بحثًا عن الوافدين الجدد، كان جميع هؤلاء الأولاد ملزمين بقضاء السنوات التالية من حياتهم معًا، ليصبحوا رجالًا، شعر إيميل بغثيانٍ في معدته، وكان سعيدًا نوعًا ما لأنه أفرغ محتوياتها مسبقًا، وإلا لكانت هذه بداية مؤسفة حقًّا.

بعد وصولهم إلى مسكن الطلاب، وجد جوهان سرير إيميل ووضع عليه صندوق الأمتعة الذي عانى في حمله صعودًا على الدرج القريب، رتبت جيما السرير بالمفرش الذي وجدوه مطويًّا عند أسفل السرير، وأخرج إيميل بعض الأشياء المحددة من الصندوق -كانت هناك قائمة موجودة عند الجزء العلوي من السرير-، ووضعها في خزانة إلى جانب السرير، قامت عائلة كويتزي بهذه الأشياء في صمت، وجلسوا بعدئذ على السرير في جو يسوده الحَرَج حتى جاءت المشرفة وابتسمت قبل أن تخبر الوالدين بضرورة مغادرتهما.

بقلب حزين تمنى إيميل لو أنه تحلى بالشجاعة الكافية لكسر الصمت، مشى مع والديه نحو موقف سيارة سكوت فيتزجيرالد، قبَّلته والدته على خديه بابتسامة مبللة بالدموع، وأطلق شخص ما –لم يشاهدوه– صفيرًا عندما عانقَته لفترة وجيزة قبل أن تجلس بسرعة إلى المقعد الخلفي للسيارة، وبينما راح يحدِّق إلى المساحة الخالية فوق رأس إيميل مد جوهان يده مصافحًا إيميل الذي كان يرجو الحصول على أكثر من ذلك.

وقف إيميل على طريق الأسفلت ليشاهد السيارة مبتعدة، فكر في الصمت القابع في تلك السيارة، ولم يستطع رفع يده لتوديعها لأنه –وعلى الرغم من حداثة عهده– أدرك بقاءه معهم لبعض الوقت.

بعد مضيِّ وقت طويل على اختفاء سيارة سكوت فيتزجيرالد عن أنظاره وجد إيميل طريقه إلى مهجع الطلاب الذي بات مسكنه الآن، جلس إلى حافة السرير وحاول منع ركبتيه من الارتجاف بينما راح يتفحص الجدران البيضاء العارية، ومصابيح الفلوريسنت الطولية المثبتة على السقف، وصفوف الأسرَّة الحديدية المطلية بدهان كريمي متشقق ومقشر، أجرى محاولة فاشلة للإحساس بالترحيب في الغرفة، وعندما سمع رنين جرس، شق إيميل طريقه –كما فعل جميع الصبيَة– نحو قاعة الطعام لتناول غداء يوم الأحد، كانت قائمة الطعام على المائدة الطويلة مؤلفة من لحم البقر المشوي والبطاطس المسلوقة مع البقدونس وصوص البازلاء كطبق رئيسي، وكيكة بلاك فورست للتحلية. تناول إيميل طعامه، لكنه لم يتذوق أيًّا من مكونات الوجبة التي كان ليستمتع بها بالتأكيد في ظروف مختلفة.

جر إيميل قدميه الكئيبتين صعودًا عبر الدرج المُفضي إلى مكان نومه، ومر بمجموعة فتيان أكبر منه سنًّا فسمع تعليقاتهم الساخرة حول رائحة حليب أمه التي ما زالت عالقة به، أدرك إيميل قصدهم جيدًا، وأسِف على الوعد الذي قطعه في وقت سابق من ذلك اليوم بأنه لن يبكي مجددًا.

الجانب المشرق في الأمر هو أن جميع تصوراته بشأن اليوم الأول البائس في مدرسة سيلوس للبنين جاءت مطابقة للحقيقة، إن لم تتخطاها.
وبينما شق طريقه صاعدًا الدرج، أثقلته أحداث النهار فجأة، فانهار على سريره فور وصوله إلى الغرفة، شعر براحةٍ قصيرة مع رائحة ماء الورد التي عِلقت من والدته على أغطية السرير، وغطَّ سريعًا في نوم عميق ليحلم أن الفرخ الذي رآه في وقت سابق من ذلك اليوم قد طار إلى كتفه ليسيرا معًا في البراح الريفي الإفريقي.
استيقظ إيميل تحت تأثير أيدٍ تسحبه بعنفٍ ووقاحة من السرير، وتدفع وجهه نحو أحذية رمادية قذرة وغير ملمعة.
- العق حذائي!
جاءه الأمر بصوتٍ مفخَّم ومغرور.
كان إيميل مصدومًا وخائفًا لدرجة أنه لم يبكِ.
- أقول لك العق حذائي!
كرر الصوت المفخَّم والمغرور أوامره، وتبعتها ضربة عنيفة على ظهر إيميل دفعته للارتماء على الأرض،
اندفع حذاءٌ قذر وغير ملمع باتجاه شفتي إيميل.
- ما الأمر؟ هل أنت أكثر رفعة ومكانة من لعق حذائي؟ أجب!
انهالت ضربة عنيفة أخرى على ظهر إيميل، فأدرك أن تعذيبه لن ينتهي إلا بلعق الحذاء، أغمض عينيه، وأخرج لسانه، ولعق الحذاء.
- أنت لاعق أحذية إذًا!
قال الصوت بنبرة انتصار، وتعالت القهقهة والضحكات الساخرة.
متوقعًا أن الأسوأ قد انتهى، اختار إيميل الاستلقاء بعينين محكمتي الإغلاق حتى مغادرتهم، لكن الأمور السيئة لم تنتهِ بالطبع.
- ما أنت؟
سأل صوت آخر يبدو أنه الثاني في تسلسل القيادة.
سحبه شخصٌ ما من شعره، ورفع رأسه.
- أنت لست لاعق أحذية وحسب، بل وما زالت رائحة حليب أمك تفوح منك.
سأل الصوت المفخّم والمغرور:
- ما أنت؟
كان من الأسهل على إيميل أن يقول «أنا لاعق أحذية»، ولكن شيئًا ما في داخله عارض الفكرة، أدرَك في أعماقه أنه لن يتلفَّظ بهذه الكلمات أبدًا، فلملم شتات شجاعته، وجمع كمية من اللعاب في فمه وبصقها دون هدف واضح أو اهتمام شديد بمكان سقوطها ما دامت ستلامس جسد شخص ما.

تسارعت الأحداث بعد ذلك، فامتدت أيادٍ كثيرة نحو جسده لتجرده من ثيابه، وتتركه عاريًا إلا من ملابسه الداخلية السفلية، وحملَته بعيدًا عن المهجع، ونزلت به الدرج، وقذفت به من الباب خارجًا فارتمى على الأرض، كان إيميل واثقًا أن الأسوأ لم يأتِ بعد، وكان مستعدًّا له، لكن كل ما سمعه كان أصوات أقدام تتحرَّك بعيدًا... ثم صوت تنشُّق هواء، لم يصدر هذا الصوت عنه، ففتح عينيه ليرى الفاعل، تفاجأ أن الليل قد حل، لقد نام خلال العشاء، ولم يكلف أحدٌ نفسه عناء إيقاظه، هل هذه هي المدرسة الأفضل على الإطلاق في البلاد؟

سمع إيميل صوت تنشُّق الهواء مجددًا، فحدَّق إلى الظلام حتى استطاع رؤية خيال شخص ما؛ صبيٍّ يقف على بعد متر واحد منه، كان على وشك التحدث مع الخيال عندما لفت انتباهه صوت آخر، بدأت عدة أصوات تحمل مصابيح بالتوجه نحوهما.

كانت أصواتًا لعدة رجال، أوروبيين وأفارقة، يحملون فوق أكتافهم وحشًا بريًّا كبيرًا، ويمسكون بمصابيح تبدو وكأنها مخلوقات ليلية مضيئة، كان وصول هؤلاء الرجال أروع مشهد يراه إيميل على الإطلاق، كان الأمر أشبه بأسطورة، بدا وكأن هؤلاء الرجال ولدوا من رحم الليل نفسه، وبحديث منخفض الصوت أضرم بعضهم النار، وانهمك آخرون في سلخ الحيوان ونزع أحشائه، وبدأت أنوار المصابيح تنعكس متلألئة في الظلام عبر الدم القرمزي المتجمع، أصدر خيال الصبي الذي يبعد عن إيميل مترًا صوتًا مكتومًا قبل أن يسعل.

وبشكل غريزي وفوري توقَّف الرجال واستمعوا إلى أصوات الظلام، أحدهم كان يضع مصباحًا كشافًا فوق رأسه، فشقَّ طريقه نحو إيميل وخيال الصبي بجانبه، وعلى الرغم من أنه لم يكن على علم بما سيجري لاحقًا، إلا أن إيميل كان ممتنًا عندما سقط ضوء المصباح عليه، استمتع بوهجه ونسي أنه كان شبه عارٍ.

نظر إليه الرجل ذو المصباح دون أن تظهر تعابيره بسبب الظل الساقط على وجهه، وانتقلت عيناه إلى الخيال الواقف على بعد متر من إيميل، فالتفت إيميل ليتعرف على الخيال أيضًا، تجلى الخيال صبيًّا ممتلئ الجسم نوعًا ما، وفي نفس سن إيميل، كان يبدو طفلًا مدللًا، فلم يتفاجأ إيميل من تحوُّله إلى لقمة سائغة لمثل هذا الاستهداف. قال الرجل الذي يحمل المصباح:

- آه، لا بد وأنكما البائسان. في كل عام يختارون أضعف صبيَّين لنبذهما، كل شيءٍ داروينيٌّ متوقع.

غمز الرجل للصبيين وقال:

- أنتما لستما ضعيفين، أليس ذلك صحيحًا؟

شعر إيميل أنه يهز رأسه، ليس لإيمانه بقوَّته، وإنما لإحساسه بأن الرجل الواقف أمامه يعتقد حقًّا أنه ليس ضعيفًا، ولم يودُّ إيميل تغيير هذا الاعتقاد. تابع

الرجل كما لو أنه يحدِّث نفسه دونًا عن إيميل والصبي بجانبه:
- يفترض بنا صناعة الرجال، لكن وفي بعض الأحيان، أقسم بأننا نصنع وحوشًا، إذًا أيها البائسان ما اسميكما؟
نظر الصبيان إلى بعضمها، وكلٌّ منهما يودُّ أن يعرِّف الآخر بنفسه أولًا.
ابتسم الرجل قليلًا وقال:
- أنا أرشيبالد برتراند فورتيسك الثالث، أعلم أنه اسم بائس، لحسن الحظ يمكنكما مناداتي ماستر آرتشي.
- كورتني سميث سينكلير.
تطوَّع الصبي الجميل الذي وقف بالقرب من إيميل بالكلام. قال ماستر آرتشي وهو يصافح يد كورتني:
- سوء حظك يكاد يشبه مصيبتي.
وبينما كان يقدم نفسه ببساطة كـ «إيميل كويتزي» ويصافح يد ماستر آرتشي، ندم إيميل كثيرًا لأن والديه لم يفكرا مطلقًا في منحه اسمًا أوسط.
- ليس الأمر صعبًا، أليس كذلك؟
قالها ماستر آرتشي قبل أن يضيف:
- أيها السيدان، تشرفت بلقائكما.
بدت نية ماستر آرتشي صافية، فارتسمت على وجه إيميل ابتسامة طويلة ودائمة.
- هل تودَّان مساعدتنا في سلخه؟
تساءل ماستر آرتشي وهو يشير برأسه إلى نار المخيم.
مدركًا أنه سينضم أخيرًا إلى عملية مطاردة وصيد، أومأ إيميل إيجابًا بلهفة، نظر إلى كورتني، وعلى الرغم من الضوء الدافئ للمصباح، فما زال وجهه شاحبًا، شعر بالأسف من أجله، فمشى ووقف بجانبه ونظر إليه حتى أومأ كل منهما للآخر، نظر كورتني إلى ماستر آرتشي بشجاعة جديدة، وهز رأسه بحماسة فاترة.
هكذا وبمثل هذه البساطة، كوَّن إيميل صداقة بسهولة.
بجانب نار المخيم انهمك رجل إفريقي بتقطيع قلب الحيوان إلى أشلاء، شاهد إيميل المنظر مبهورًا، بينما ركض كورتني إلى أكمة قريبة وتقيَّأ، قسَّم الإفريقي قطع القلب برمح أسيجاي، ووزع الأجزاء على الرجال هناك، قبِل كل رجل بحصته، وتلقَّمها بفمه، وفعل ماستر آرتشي الشيء نفسه عندما عُرضت عليه قطعة.
لم يتوقع إيميل الحصول على قطعة القلب التي يحملها الآن بين يديه، فوجئ بدفئها... وبقوامها... وبوزنها. اكتشف أنه أحب حقيقة هذا الشيء الذي كان موجودًا له بشكل مجازي، حتى تلك اللحظة. قال ماستر آرتشي:

- ينبغي أن تأكلها وهي دافئة.
ركَّز إيميل في قطعة القلب بين يديه، وغلبه الحزن على جمالها العابِر.
لم يكن ماستر آرتشي مصيبًا في أسباب تردد إيميل، وقال:
- بطبيعة الحال، لست مضطرًّا إلى تناولها إن كنت لا ترغب في ذلك، لا أحد يتوقع منك ذلك، ليس كل الرجال قادرين على أكل قلب حيوان.
وضع إيميل قطعته الدافئة في فمه بعناية، ومضغها ببطء، بدا طعمها مثل... قلب شيء ما، لم يكن المذاق لذيذًا، ولا مروِّعًا، مضغها لبعض الوقت حتى قطعها لأجزاء أصغر، وبمجرد ابتلاعه لقطعة القلب الممضوغة، نظر إيميل إلى ماستر آرتشي مع ابتسامة مشاكسة دامية.
ضحك الرجال الآخرون، وربت بعضهم ظهرَ إيميل حتى شعر وكأنه اجتاز نوعًا من الاختبارات السرية.
من جانبه، أمعن ماستر آرتشي النظر في إيميل، لكنه لم يضحك أو يربت ظهرَه، وبدلًا من ذلك، قال له:
- قتلُ شيء ما عملٌ جدِّي للغاية، ولا ينبغي الاستخفاف به أبدًا، لأن الحياة ثمينة جدًّا، نحن نأكل القلب الدافئ حتى لا يموت الحيوان عبثًا، نحن نلتهمه ليواصل الحياة في داخلنا، أنت الآن تحمل ذلك الحيوان في داخلك، وستحمله هناك بقية حياتك.

الفصل الخامس

لم يكن تقبُّل الواقع أمرًا سهلًا على إيميل الذي واجه صعوبة مماثلة في الاعتراف الذي أسرَّه لنفسه بشأن تفضيله البقاء في المدرسة بدلًا من المنزل. شعر بالذنب حيال ذلك بالتأكيد، لكنه وعلى الرغم من حالات التنمُّر المتفرقة التي تعرَّض لها على يد مجموعة صبية أطلق عليهم اسم «لاعقي الأحذية»، لم يكن وحيدًا في مدرسة سيلوس للبنين، في مدرسة سيلوس للبنين سيكون كورتني دائمًا إلى جانبه.

كان إيميل يلوذ بالمكتبة قبل العشاء مع كورتني، وبعد الدروس الشاقة والإجبارية للرياضة والتدريب العسكري، التهم إيميل وكورتني معًا الأعمال الكاملة لفريدريك كورتني سيلوس[26] الذي تحمل المدرسة اسمه. وبين صفحات كتب مثل مغامرات صياد في إفريقيا[27] وعشرون عامًا في زامبيزيا[28] والشروق والعاصفة في روديسيا[29]، استحوذ سيلوس على مخيلة إيميل كويتزي ليتحول سريعًا إلى بطله الثاني.

في الحقيقة، لم يكن إيميل هو من يقرأ أعمال سيلوس، ولكنه كورتني، مع ذلك قرأ إيميل جزءًا كافيًا من مقدمة مغامرات صياد في إفريقيا:

في الرابع من سبتمبر 1871، وطئت قدمي شواطئ ألجوا باي الرملية أول مرة مع وزن 400 رطل في جيبي، وتسعة عشرة عامًا على كتفيَّ، وبعد قراءة متأنية لجميع المؤلفات عن الرياضة والسفر في جنوب إفريقيا، قررت شق طريقي نحو القلب المجهول للبلاد بمجرد أن تتيح لي الظروف ذلك، نمط الحياة السهل والحر للغجر، والذي وصفه جوردون وجامينج وبالدوين وغيرهم من المؤلفين، استحوذ على مخيلتي وشجعني لاعتماد حياة المَشاهد دائمة التغيُّر والتشويق المستمر، وهو ما لم أندم عليه منذ ذلك الحين، ومن أجله ولد حب فطري لجميع فروع التاريخ الطبيعي، هذه الرغبة منتشرة جدًّا بين أبناء بلدنا للتغلغل في مناطق لم تطأها قدم إنسان قَط، وهو أمرٌ يناسبني بشكل أو بآخر.

مع الأسلوب الكثيف والجاف في نثر سيلوس، لم تنجح هذه الافتتاحية المذهلة في الاستحواذ مطولًا على اهتمام إيميل، وبالنتيجة تولى كورتني تلخيص الأحداث وإخبار إيميل بكل ما يودُّ معرفته عن الرجل الذي ألهم هنري رايدر هاجارد لإبداع شخصية ألان كواترمين، أول أبطال إيميل.

تخيل إيميل أنه أصبح في التاسعة عشرة من عمره، وقد انطلق في مهمة كبيرة ليخوض مغامرته الخاصة، وأصبح يتوق إلى ذلك المستقبل، وخلال انتظاره كان يجلس إلى جانب كورتني في مكتبة المدرسة ليعيد قراءة أعمال هاجارد وبوروس وكيبلينج، كان يحدق أحيانًا إلى صورة فريدريك كورتني

سيلوس المعلقة في المكتبة، ويبدي إعجابه بهذا المستكشف الاستثنائي مع قبعته وحذائه وبندقيته، لطالما افتخر بفكرة راودته ليصبح مثل هذا الشخص في يوم من الأيام.

لم يكن كورتني مسحورًا بسيلوس مثل إيميل، وكان هدفه من قراءة أعماله تقتصر على تزويد إيميل بما يحتاج إليه من ملخصات، وتحسين مخزونهما من المفردات، تساءل كورتني غير الملهَم عما إذا كان والداه قد أطلقا عليه الاسم تيمُّنًا بسيلوس، لكنه نسي سؤالهما عن ذلك في رسائله نصف الشهرية.

لم يكن إيميل وكورتني متشابهَين تمامًا، لكن صداقة «البائسَين» في عام 1937 ترسخت جذورها وتوطدت قوتها بسرعة.

استمتع إيميل مع كورتني بدروس اللغة الإنجليزية لماستر آرتشي، وقاسى في دروس العلوم لماستر فيندلاي، وصف التاريخ لماستر دوثي. من جهة أخرى كان كورتني أذكى من أن يقاسي أو يعاني من أي شيء أكاديمي، كان يفضل خوض التحديات العقلية على بذل أي مجهود جسدي، عانى كورتني حقًّا في الملعب الرياضي؛ حيث كان يُنتظر منه المشاركة في منافسات الرَّكبي والكريكيت، وفي البراح الأفريقي الواسع كان يتوقع أن يشعل النار، وينصب خيمة ويطلق النار على هدف متحرك بقدر متساوٍ من الإصرار، ومع ذلك بذل كورتني قصارى جهده للاستمتاع بهذه الأنشطة كُرمى لإيميل الذي كان سعيدًا في التدريب ليصبح مغامرًا ومستكشفًا، وفي المقابل، أدرك إيميل أهمية صداقته مع كورتني، وبذل قصارى جهده ليحب الشعر ويستمتع بالمسرحيات بالطريقة التي تلقى استحسان كورتني، وماستر آرتشي.

بحلول موعد عودة إيميل إلى المنزل بعد انتهاء الفصل الأول، كان والداه قد اعتادا وجودهما الهادئ، كانت الشقة 2 إيه ممتلئة بمراسلات متبادلة ومكتوبة بعناية على أوراق ملاحظات بألوان الباستيل، والآن أصبحت الياقات تُنشَّى، وتُزيَّن الأحذية بالأربطة، دون الحاجة إلى نطق أيٍّ كلمة أو الاستماع لأيِّ أغنية، كانوا يتناولون الوجبات على مائدة المطبخ، بينما عمل إيميل مبعوثًا لتمرير الملح والزبدة والمرق والخضار، الأصوات الوحيدة التي كانت تكسر صمت القسم الأكبر من اليوم في الشقة جاءت من جراموفون والدته من طراز هيز ماسترز فويس، ومن المذياع اللاسلكي لوالده من طراز فيليبس.

خلال فترة غياب إيميل، كانت جيما أول من دوَّن ملاحظة ووضعها على مائدة المطبخ، ليرد عليها جوهان ويترك إجابته في المكان ذاته، وهكذا بدأ شيء لم يكن جديدًا تمامًا بينهما، علاقة عاشت عبر المراسلات.

لم يكن الأمر سهلًا على جيما وجوهان في البداية، مع عدة سطور مترددة، وبمرور الوقت أصبحت الملاحظات أكثر طولًا وتفصيلًا، وأفصحت عن قَدْرٍ كبير مما تجنَّبت الأحاديث البوح به عمدًا، ومع الوقت اعتاد الاثنان على الاستمتاع بالصمت، كانت جيما تذهب في رحلات إلى هادون آند سلايد لشراء رزم أوراق

بألوان باستيل جميلة، لم يكن سهلًا عليها البحث عن نوع القلم الذي سيستخدم، وغالبًا ما تشتري أكثر من قلم لتجربته، كان هو أول من يوقِّع ملاحظته بعبارة «مع محبتي»، والتي ردت عليها جيما بعبارة «عزيزي جوهان».

«عزيزي جوهان، لقد عدت للتو من إتش آند إس، أعتقد بأنني وجدت القلم المثالي، جربه، وأخبرني عن رأيك».

«عزيزتي جيما، يسطِّر القلم خطًّا كالأحلام، أعتقد بأنه الخَيار الأمثل».

«هل تذكر أول رسالة وجَّهتَها إليَّ بقلم يسيل حبره؟»

«كنتُ متحمِّسًا ومتوترًا جدًّا بعد أن رأيت ما جرى للحبر».

«أوه... عزيزي جوهان...»

وجد إيميل هذه المراسلات بالتحديد على مائدة المطبخ عند عودته إلى المنزل بعد انتهاء الفصل الدراسي الأول في مدرسة سيلوس للبنين، لقد تحدث إليه والداه بالطبع، أجرت معه والدته محادثات سطحية ومحددة: بدا أنحف؛ هل كان يتغذى جيدًا في المدرسة؟ كانت بشرته تكتسب لونًا أكثر سمارًا؛ هل كان يقضي كثيرًا من الوقت في الشمس؟ كان يزداد طولًا؛ هل يحتاج إلى زي مدرسي جديد؟ كان يزداد وسامة يومًا بعد آخر؛ أليس من المؤسف عدم وجود فتيات في المدرسة؟ هل كان يعلم أنه أصبح خجولًا؟ ووالده الذي ما زال عاجزًا عن النظر في عينيه، طرح عليه نفس الأسئلة حول المدرسة وعيناه تحدقان إلى الفراغ فوق رأسه: أساتذة المدرسة كانوا جيدين، أليس كذلك؟ لقد سمع شيئًا عن ماستر دوثي؛ هل يسبب لك أي مشكلات؟ لقد فهم كيف يمكن أن يتعامل الأولاد الأكبر سنًّا مع الوافدين الجدد؛ كيف جرت الأمور بهذا الشأن؟ هذا الصديق الذي تعرَّف عليه، هذا الـ «كورتني سميث سينكلير»، هل هو صديق جيد أم لا؟ وهذا الماستر آرتشي، هل كان طيبًا؟ والقلب الدافئ؛ هل كان مضطرًا إلى تناوله؟

حقيقة أن والديه كسرا صمتهما لأجله بدت لهما نوعًا من العطف، تمنى إيميل أن يحس بهذا الشعور، لكنه لم يستطع، الكلمات القليلة التي قالاها له جعلته يشعر كما لو أنهما أحضراه إلى العالم فقط ليُعيراه بعض الاهتمام.

كان يعرف أن هذا ظلم، وأحس بقسوة أكبر عندما تذكَّر أيام البلدة الاستعمارية التابعة لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية، كانت أيامًا مليئة بالضحك، والحب، وعصير الليمون الفاتر. تلك الأيام التي كانت قبعة الكلوش الحمراء تزيِّن رأس والدته، وليس والده.

ارتداء والده لقبعة الكلوش الحمراء تسبب بوقوع أزمة في عائلة كويتزي، ولم يستغرق إيميل سوى فصل دراسي واحد في مدرسة سيلوس للبنين حتى أدرك حقيقة الأمر، في صف الدراسات الدينية، تعلَّم إيميل أن الله خلق الإنسان ليتفوق بسلطانهِ على جميع الكائنات الحية الأخرى في البر والبحر، وأن هذا التفويض الإلهي للإنسان بصفته الكائن الأسمى لم يقتصر على إطلاق

الأسماء والتعريف بالكائنات الحية وحسب، بل امتد إلى تصنيفها وتكوين نظام للأشياء من فوضاها الظاهرة، وهكذا تتخطى المساعي الأساسية للإنسان حدود تحويل العالم إلى مكان صالح للعيش، ليصبح مكانًا مألوفًا يمكن استكشافه، مما يبيِّن أهمية رحلات الاستكشاف والتوسع الإمبريالي التي جسدت العهد المقدس بين الله والإنسان، اختار الله الإنسان الأوروبي لنشر نور المسيحية والحضارة في العالم، فعقَدَ رجالٌ –رجالٌ حقيقيون من أمثال فريدريك كورتني سيلوس– عهدهم المقدس مع الله. ارتدوا ميثاقهم كعلامة شرف، وجعلوه منطلقًا للفخر، أدرك إيميل استحالة أن يُقدِم رجل أوروبي مخلص لله والملك على التخلي طواعية عن مكانته التي ميزها قَدَره بها، حتى ولو للحظة، وأن اختيار والده للتشبه بالنساء –ولو للحظة قصيرة– دليلٌ على تخلي والده عن مكانته، وإخلاله بنظام الطبيعة بشكل لا يمكن تعويضه أو إصلاحه، لم يكن هناك أيُّ أمل في العودة عن مثل هذه الحالة المؤسفة.

نتيجة لفترات الصمت الطويلة والكثيرة شعر إيميل بحاجته للهروب من الشقة، ووجد ملاذه في الأماكن التي لم يستطع حبها في السابق: متنزه المئوية، وحمامات السباحة التابعة للبلدية، والمسرح، كان إيميل يفضل الذهاب إلى المسرح كلما اشتاق إلى كورتني الذي قضى عطلاته في إسيكسفال حيث يجري تسمينه وتدليله من والدته وأخواته الستة اللواتي كن مصرات على إعادته لحالته البريئة.

وجد إيميل نفسه بمرور السنين وخلال العطلات المدرسية باحثًا عن العزاء في الشوارع العريضة المحفوفة بأشجار الجاكاراند والفلامبويانت والأكاسيا، في الضواحي التي يمكن الوصول إليها خلال خمس دقائق سيرًا من سيلبورن أفنيو. في هذه الضواحي كان إيميل يصغي للأصوات، أي أصوات صادرة عن حياة عائلية -أطفال يلعبون ويضحكون، وكلاب تنبح فتُزجر للابتعاد، وزوجات يصرخن ويستجوبن أزواجهن عن سبب حبهم للرقص مطولًا مع فيكتوريا، وأزواج يؤكدون أن الكيل قد طفح بهم، وصوت صفقة باب– في محاولة لاختبار حياة الآخرين، ولو بشكل مؤقت وبالإنابة. رحب إيميل بجميع الأصوات على قلَّتها وتباعدها في هدوء الضواحي، وتساءل كثيرًا فيما لو كانت عدوى الصمت الجاثم في منزله قد تفشَّت لتصيب جميع العائلات أيضًا.

ينتهي مشوار إيميل في الضواحي عادة عند منزلٍ على الطراز الكولونيالي بنوافذ فرنسية وشرفة حمراء ملتفة مع حديقة ورود إنجليزية، يشبه إلى حدٍّ كبير المنزل الذي كانت والدته تحلم بالعيش فيه يومًا ما، منذ وقت ليس ببعيد. اعتاد إيميل الوقوف أمام هذا المنزل، والتحديق إليه متسائلًا... فقط متسائلًا عما إذا كانت الأمور ستختلف لو... لو أن هذا المنزل يعود إلى سكوت فيتزجيرالد. وعلى الرغم من أنه دعاه «منزلًا»، إلا أنه بدا بحاجة إلى أكثر من شخص واحد ليصبح كذلك.

سكوت فيتزجيرالد لم يعد شرطيًّا الآن؛ لقد أصبح وكيل إعلانات يعمل من منزله معظم الوقت، لديه مكتب مريحٌ وسط المدينة بالطبع، لكنه نادرًا ما يستخدمه، لطالما داعبَته أحلام التأليف، كان يفضِّل البقاء في المنزل لينكبَّ على مخطوطته بآلته الكاتبة من طراز ريمينجتون نويزليس بورتابل تايب رايتر كلما نزل إلهامه، هكذا كانت الفكرة، ولكنه كان يقضي وقته في المنزل وهو يُبدع عبارات تعلق في الذاكرة، ويفضَّل أن تضم أقل من ست كلمات، ولا تزيد عن اثنتي عشرة كلمة بالتأكيد، كان بارعًا جدًّا لدرجة أن يُسمح له بالعمل من المنزل، كان أفضل من كتب الإعلانات في البلاد.

ربَّة المنزل، وخلال مقارنتها للأسعار -كما تفعل غيرها من ربات المنازل-، تتذكر إحدى العبارات الرنانة لسكوت فيتزجيرالد المكوَّنة من ست كلمات، والتي سمعتها عبر مذياع هيز ماسترز فويس نيو يوركر سمارت اللاسلكي طراز عام 1940، فتتخذ ما تعتقده قرارًا حكيمًا ومدروسًا، ويدرك مهندسٌ متقاعدٌ أن الحصول على جميع احتياجاته عبر موريسونز مايل أوردر كاتالوج هو الحل الأمثل للاستفادة القصوى من أمواله التقاعدية، لأن إعلانًا مدروسًا في ريلواي ريفيو أخبره بذلك، ويودُّ شاب إثارة إعجاب حبيبته ورئيسه في العمل معًا، فيتوجه لشراء أول ساعة رولكس من تي فوربس آند سون ليمتد في شارع أبركورن؛ وفقًا لإعلان رآه عبر جهاز العرض السينمائي في الليلة السابقة، فإن الساعات المباعة هناك لا يستحقها إلا رجال الأعمال. الصبيَّة المخطوبة حديثًا، وتريد الاستمتاع بأفضل شهر عسل، يمكنها اقتراح فندق نيو وودهولم شرق لندن لخطيبها؛ قيل لها –عبر ذا كرونيكل– إنه فندق حديث على شاطئ ذهبي مطل على المحيط الهندي المتلألئ. ربة المنزل المقتصدة، والمهندس المتقاعد، والشاب المذهل، والخطيبة الطموحة تصرفوا بشكل فردي دون أن يدركوا أن رجلًا واحدًا فقط –سكوت فيتزجيرالد– هو من دفعهم حقًّا إلى ذلك، هذه هي الطبيعة غير المتبلورة لسلطته.

منذ وصوله إلى سيتي أوف كينجز، شجع سكوت فيتزجيرالد إيميل على مخاطبته بالعم سكوت، وعندما زاره إيميل، وقف العم سكوت بامتنان فور وصوله، وابتعد عن الآلة الكاتبة وزجاجة الويسكي -كليشيه حزين لطالما أشار إليه بأسف-، وسحب معطفه غير آبه بحقيقة الطقس في الخارج، وقال بنبرة يشوبها القلق:

- آآه... عاد الابن الضال، دعنا نخرج ونتصرف كالرجال.

قبل أن يتجه مع إيميل خارج المنزل إلى الضواحي حيث الشوارع العريضة والمحفوفة بالأشجار.

«التصرف كالرجال» بحسب العم سكوت يعني الذهاب إلى سكوبيز في سيلبورن أفنيو، حيث طلب لنفسه كأس ويسكي مع الثلج، وعصير ليمونٍ بارد مع الثلج لإيميل، بفضل ارتياده المتكرر إلى سكوبيز وعبارة الكلمات الستة –

المكان الذي تنبض فيه روح الرواد– التي أبدعها فحوَّلت سكوبيز إلى مقصد أساسي مفضل لنوع معين من الرجال، حصل العم سكوت على امتيازات من بينها اصطحاب (ابن أخيه) القاصر إلى الحانة.

تفحص إيميل الرجال في سكوبيز، كانوا دائمين في مختلف ساعات الإنتاج من اليوم، فاشتبه في أنهم ممن وصفهم ماستر دوثي بـ «منبوذي الإمبريالية»، وعلى الرغم من تفوُّق عرقهم الأوروبي، فقد كانوا رجالًا عاجزين عن تحقيق الكثير، فآفاقهم المحطمة حوَّلتهم إلى رجال محبَطين جدًّا لدرجة تمنعهم عن فعل أي شيء آخر سوى الشعور بالأسى على أنفسهم، لطالما قال ماستر دوثي محذرًا:

- لا أريد أن أسمع أن أيًّا من الجالسين هنا اليوم قد كبر ليصبح من منبوذي الإمبريالية، المشروع الإمبريالي هو أعظم حدث في تاريخ العالم، وتنفيذه يتطلب رجالًا... رجالًا حقيقيين، ونحن هنا في مدرسة سيلوس للبنين نعمل على صناعة الرجال الحقيقيين.

بعد بضع سنوات قضاها في مدرسة سيلوس للبنين، كان آخر ما يريده إيميل هو التحوُّل إلى واحد من «منبوذي الإمبريالية»، أراد أن يصبح رجلًا... رجلًا حقيقيًّا مثل فريدريك كورتني سيلوس.

اعتاد العم سكوت قضاء الكثير من وقته في سكوبيز، ومع ذلك لم يكن بالطبع واحدًا من منبوذي الإمبريالية، أمضى سكوت أيامه في تأليف عبارات من شأنها دفع عجلة التعاملات التجارية الضرورية لتبادل السلع والخدمات مقابل المال، وكثيرًا ما أشار ماستر دوثي إلى أن التجارة واحدة من أبرز سمات الحضارة، وكانت الرأسمالية الطابع المتميز للحضارة المتفوقة، كان العم سكوت أشبه بالوقود الذي يدفع عجلة الإمبريالية، ويعزز عملها بسلاسة، لقد أبدع كلمات جعلت الناس تواقين إلى شراء المنتجات، وفي بلد رأسمالي ناشئ، فإن مثل هذا العمل جهدٌ يستحق الإعجاب.

من جانب آخر، كانت أفكار العم سكوت بعيدة تمامًا عن الإمبريالية أو الرأسمالية أو الحضارة. سأل بعد رشفة الويسكي الأولى:

- كيف حال والدتك؟ أراهن أنها جميلة كعهدي بها... ما زالت حلوةً وظريفة متألقة، كدت أن أجسدها في الرواية، أخبرها بذلك، في هذه المرة... ستحب تصويري لها هذه المرة، أنا شبه أكيد من ذلك.

كان العم سكوت يحتسي رشفة أخرى من الويسكي ثم يقول الكلمات التي انتظرها إيميل طويلًا:

- هل تتذكر البلدة الاستعمارية؟ هل تتذكر الأيام الجميلة التي قضيناها هناك؟

- نعم.

- هل تذكر كيف رقصَت شارلستون والفوكستروت؟ جعلَتْنا نقع في حبها، أليس كذلك؟

- نعم.
- إذًا، نحن غير ملومين حقًّا في الحالة المزرية التي وصلنا إليها الآن، أليس كذلك؟
- لا.

على الرغم من سنه الصغيرة، أدرك إيميل أن إحباط العم سكوت ناجم عن براعته في إقناع الجميع باستثناء المرأة التي أحبها بكلماته.

فريدريك كورتني سيلوس (1851-1917) مستكشف وضابط بريطانيٍّ، وصياد محترف، ومن دعاة حماية البيئة، خاض مغامرات ألهمت هنري رايدر هاجارد لإبداع شخصية آلان كواترمين. (المترجِم)

هذا العمل من تأليف فريدريك سيلوس، ويرى فيه كثير من الباحثين أهمية ثقافية كبيرة، وجزءًا من القاعدة المعرفية للحضارة التي نعرفها. (المترجم)

مقال صحفي لفريدريك سيلوس قدم فيه للجمعية الجغرافية الملكية ملخصًا عن استكشافاته واستطلاعاته. (المترجِم)

من تأليف فريدريك سيلوس؛ يسرد الأحداث التي وقعت في ماتابيليلاند قبل التمرد المحلي وخلاله حتى تاريخ حل قوة بولاوايو الميدانية. (المترجم)

الفصل السادس

بفضل العم سكوت، حقق إيميل أول اكتشافاته العظيمة، عندما استلمَ التذكرة المطبوعة على ورق مانيلا رقيق بلون وردي، والتي تخوِّله الدخول إلى حلبة لاجرانج للتزلج ثلاث مرات، كان إيميل متأكدًا أنه لن يستخدمها.

على الرغم من تشييدها في عام 1911، وحتى قبل افتتاحها رسميًّا، بقيت حلبة لاجرانج للتزلج عُرضة للإغلاق طيلة عشرين عامًا تقريبًا، حلبة التزلج في سيتي أوف كينجز كانت أشبه بجسمٍ دخيل، ولو أن مالكها كان أيَّ شخص آخر غير لاجرانج، لكانت خدماتها الأصيلة والمريحة استُغلت جيدًا للهروب من الحرارة الشديدة في المدينة، أدرك لاجرانج تفرُّد مشروعه، وقرر استخدامه لإثارة حفيظة وغيظ السكان الأوروبيين عبر إقامة حلبة التزلج في منطقة محايدة على أطراف الجزء الأوروبي من المدينة، وبالقرب من بلدة السكان الأصليين. كانت المستعمرة صغيرة نسبيًا آنذاك، ولم تكن الهيئات الإدارية المختلفة للمدينة –حتى ذلك الحين– قد قررت تطبيق سلطة قضائية على تلك الرقعة من الأرض، هذه الميزة بالتحديد هي التي شجعت لاجرانج للاستفادة منها، أخبر مؤسسي المدينة عن نيته بجعل حلبة التزلج متاحة لجميع الأعراق.

أثارت أوساط معينة في المدينة ضجة ضد الإهانة المتمثلة في وجود الأوروبيين، والأفارقة والملونين والآسيويين، معًا وهم يتزلجون بتشكيلاتٍ راقصة ودائرية، ناهيك بخطورة تصادمهم المحتمل، وبمجرد استيعاب خطة لاجرانج سارعت النساء الصالحات من جمعية بايونير سيتي أوف كينجز الخيرية لتوجيه رسالة قاسية اللهجة إلى كل من العمدة وكاتب البلدة، ونشرنها –لاعتبارات خاصة– في ذا كرونيكل، شككت الرسالة في مدى ملاءمة مثل هذا المخطط، وهددت بمقاطعة الحلبة، وتنظيم وقفة احتجاجية على ضوء الشموع تأبينًا للأخلاق في سيتي أوف كينجز، وخلال عدة أيام، انضمت منظمات مدنية أخرى إلى الاحتجاج، فوجد كاتب البلدة نفسه مضطرًّا إلى مخاطبة لاجرانج، وتوجيه «نصيحة شديدة اللهجة» بعدم فتح أبواب حلبة التزلج «أمام الجميع»، وعلى الرغم من مزاحه سرًّا مع كاتب البلدة حول عدم اكتراث السيدات الجميلات من جمعية بايونير سيتي أوف كينجز الخيرية باختلاط الأعراق، وأن السبب الحقيقي هو خشيتهن من أن تقع أنظار السكان الأصليين عليهن وهن يتأرجحن على الزلاجات، ويسقطن بشكل غير لائق أمامهم، أرسل العمدة بعد عدة أيام نفس الرسالة التي وجهها كاتب البلدة مستبدلًا النصيحة شديدة اللهجة بعبارة «الحظر الصارم».

اصطنع لاجرانج تقديره لحكمة المجتمع الأوروبي، فأعلن عبر ذا كرونيكل أن مشروعه مفتوح للأوروبيين فقط، وفي يوم الافتتاح كانت السيدات الصالحات

من جمعية بايونير سيتي أوف كينجز الخيرية أول من تمايل وتراقص فوق الجليد، وكلما سقطن وهو ما فعلنه مرارًا، تتعالى ضحكاتهن دون خشية من عيون غريبة تشاهد تنانيرهن الداخلية، كانت حلبة التزلج ظاهرة متميزة، وسرعان ما جذبت الأوروبيين من جميع أنحاء البلاد، وعلى اختلاف مشارب الحياة.

لم تمض ساعات حتى انتشرت شائعات حول اختلاط الأعراق ووجود الرعاع في الحلبة، وتلقى كاتب البلدة عدة رسائل وشكاوى بهذا الشأن، ووجَّه العمدة والمشرف على بلدة السكان الأصليين نحو إصدار تشريع يعلن ضم المنطقة الحيادية –حيث حلبة التزلج– إلى الجزء الأوروبي من المدينة، وانتشرت دوريات شرطة جنوب إفريقيا البريطانية لشن حملات تفتيش متفرقة على حلبة التزلج، قاموا بتفريق الاحتفالات أحيانًا، ووجدوا في أحيان أخرى أدلة على احتفالات تمت وانتهت، ولم يسعفهم الحظ في مرات كثيرة إلا في العثور على لاجرانج وبعض الملونين في مراحل ثمالة مختلفة، كانوا يُبلغون كاتب البلدة عما صادفوه من جنح متنوعة، وقد اعتُبر لاجرانج شخصًا غير جدير بالثقة نظرًا لعلاقته القوية مع الملونين والسكان الأصليين، ما عرَّض حلبة التزلج لتهديدات دائمة بالإغلاق.

مع التوجه القانوني المتصاعد في الدولة نحو نظام الفصل العنصري، تكاثرت المحن التي ابتليت بها حلبة التزلج، وتحوَّلت إلى مكان سيئ السمعة، وبمرور الوقت لم ترتدها سوى نوعية معينة من المواطنين، وفي عام 1935، اتُّهم لاجرانج بمخالفة قوانين الدولة المناهضة لاختلاط الأعراق وتشجيع الاختلاط العرقي، وحُكم عليه بالسجن مدة خمس سنوات، وخلال فترة سجنه، أشرف مجلس المدينة على إدارة وتشغيل حلبة التزلج، قدموا عرضًا رائعًا حول «تنظيف» المنطقة وصل إلى حد إبعاد جميع قاطنيها من الملونين والسكان الأصليين، وافتتاحها أمام ما أطلقوا عليه اسم «الأعمال المحترمة».

زار العم سكوت حلبة التزلج عدة مرات خلال حقبتها الشائنة، واشترى لإيميل تذكرة وردية اللون بمناسبة عيد مولده الثالث عشر تخوِّله الدخول إلى الحلبة ثلاث مرات، كان إيميل واثقًا أنها لن تحتوي على ما قد يلفت انتباه أو اهتمام صبي في مثل سنه.

ونظرًا لسمعتها وموقعها، لم تلقَ حلبة التزلج اهتمامًا من إيميل عندما انتقل إلى سيتي أوف كينجز، لكن –وللأمانة– لم يكن في المدينة أيُّ شيء آخر ملفتٍ لانتباهه، والحكايا التي تُروى همسًا في مهاجع مدرسة سيلوس للبنين حول الأحداث البائسة في حلبة التزلج، لم تفلح في إثارة اهتمامه بالمكان، لذلك وعندما حصل على التذكرة، شكَر العم سكوت، وكذب عليه للمرة الأولى ووعده بأنه سيستخدمها، وهو يعرف أنه لن يفعل.

على أيِّ حال، وفي عيد مولده يوم 18 أبريل 1940، جلس إيميل صامتًا مع والدته ووالده حول مائدة المطبخ، وانتظر إطفاء الشموع الزرقاء الثلاثة عشرة، والتي رتبتها والدته بعناية على سطح كعكة فكتوريا منزلية الصنع، وعليها الحروف الأربعة لاسمه مزينة بالسكر الناعم، وفيما بقي والده يذكِّره بالمساحة الموجودة فوق رأسه، شعر إيميل أن هذه المناسبة ترمز لانتهاء فترة الصبا وتستحق إحياءً أفضلَ للذكرى بدلًا من هذه العلاقة البائسة، وبيده المهتزة نوعًا ما، استخدم والده ولاعة سجائر لإشعال فتائل الشمعات الثلاثة عشرة التي أطفأها إيميل بنفخة واحدة وقبل أي يطلب منه أي شخص ذلك، ذكَّرته والدته بطلب أمنية، وكان جلُّ ما يرجوه في ذلك الوقت هو الاستمتاع بذكرى مولد أفضل، تمنى إيميل احتفالًا أفضل بعيد مولده الثالث عشر، ومع غياب أيِّ خيار آخر لديه، وعد إيميل نفسه باستخدام هدية العم سكوت ليضيف بعض التشويق إلى يومه، فكر لوهلة في اصطحاب والديه، ثم أحس غريزيًّا أن خطوته التالية ستكون مغامرة يحتاج إلى خوضها بمفرده.

استغرق الأمر وقتًا أقل مما توقعه إيميل للوصول إلى أطراف الجزء الأوروبي من المدينة، وبينما كانت قدماه تسيران في شارع لوبنجولا للمرة الأولى، تعجب من الغموض واللون الرمادي الذي يكتنف المكان بعيدًا عن الصورة النمطية لقلب المدينة، بدا الأمر كما لو أنها تخلت بسعادة عن محاولاتها الجاهدة، لكن وفي غرابة هذا المظهر الباهت والضعيف اقتصاديًّا، كان مزاجه مختلفًا تمامًا، كانت الأجواء تصدح بأنغام بدت مثل موسيقى الجاز التي اعتادت والدته الرقص عليها في البلدة الاستعمارية التابعة لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية، ولكنها مختلفة، كانت في قلب موطنها تداعب مشاعر المارَّة في الشارع –معظمهم من ذوي البشرة السوداء، أو السمراء أحيانًا، ونادرًا ما يكونون من ذوي البشرة البيضاء– وتدعوهم للتمايل والتحرك على إيقاعها، حتى القطارات في المحطة المجاورة بدت كما لو أنها اختارت إيقاعًا خاصًّا بها، كانت الموسيقى تنبض في كل ما يفعله الناس –في الأسلوب الذي يحني فيه الرجال رؤوسهم عند التحية، وفي الطريقة التي تحمل فيها النساء أطفالهن والحقائب على ظهورهن ورؤوسهن، وفي حركة رؤوسهم لإطلاق ضحكة غير متكلفة، وفي أسلوبهم في التلويح بأيديهم عن بُعد للمارَّة المعروفين، وفي مهارة التجار لدعوة زبائنهم المحتملين إلى متاجرهم، وفي طريقة توقفهم لإلقاء نظرة خاطفة على الطريق قبل عبور الشارع، وفي أسلوب أقدامهم التي تخطو على الرصيف المغبر-، مع ذلك لم تكن حركاتهم نوعًا من الرقص، بل وعدًا برقصة قريبة.

تملكت إيميل سعادةً كاد أن ينساها، وفي أثناء انتقاله كجسمٍ غريب بينهم، تساءل عمَّا لو كانت حركاته قد بدأت بتشرُّب الإيقاع المحيط، هل أصبح الآن -وفجأة- أقل حدة وغرابة، وأكثر فخرًا وثقة؟ تحسَّس التذكرة وردية اللون في

جيب بنطاله، وتجاهل تعرُّق يديه، وسمح لنفسه بالاعتقاد أنه على وشك الرقص، وأنه مكان من الرائع الوجود فيه.

الإيقاع الذي دفع إيميل للاعتقاد بقدرته على الرقص كان بدايةَ موجة موسيقية ستطغى سريعًا على سيتي أوف كينجز طيلة العقود الثلاثة التالية، وستُعرف باسم «تاونشيب جاز». المرة التالية التي سمع فيها إيميل هذا الإيقاع كانت عبر ألحان أوجست موساروروا[30] لمشروب «سكوكيان» الإفريقي غير القانوني -المشروب الذي ساعد بالصدفة في إيجاد بعض اللحظات التي لا تُنسى خلال السنوات الأكثر شهرة في حلبة التزلج-، بعد عدة سنوات في حفلٍ استضافه كورتني، وسيصدح اللحن عن ترومبيت لويس آرمسترونج[31]. لم يعد إيميل يذكر كل تفاصيل عيد مولده الثالث عشر، ولم يفاجئه أن اللحن الذي ولد في سيتي أوف كينجز وأول من عزفه أوجست موساروروا وفرقة الرقص الإفريقية أفريكان دانس التابعة للجنة التخزين البارد قد نجح في عبور البر والبحر وصولًا إلى أذنَيْ الرجل الذي كان بلا شك أعظم موسيقي في عصره.

عندما وجدها، كانت حلبة التزلج عبارة عن دفقة ألوان في عالم رمادي، كانت المباهج متناثرة في أي مكان ينظر إليه إيميل: خصلات وردية من حلوى القطن، وأقماع صفراء من الآيس كريم الإيطالي، وجبال من الفشار والزبدة، وكُرات حمراء لامعة من توفي التفاح، ونوافير برتقالية اللون من العصير، وأعمدة بنية من الفدج والكراميل، وأكوام مكدسة من حلوى التافي بألوان الباستيل، وبفم يسيل لعابه، نظر إلى بائعي الآيس كريم وأزيائهم الأنيقة بألوان الأزرق والرمادي والأبيض، وعرض الفُرسان على خيولهم العاجية والذهبية مع سروج ولجم قرمزية، وإلى الفم الأحمر لنفق الحب، وتمنى لو كانت لديه البصيرة ليطلب من والديه الحصول على مصروف الجيب.

المكان نفسه كان عبارةً عن مزيجٍ من النشاز والفوضى المنظمة، حيث تضج حركة أطفال يركضون ويصيحون في كل مكان، وآباءٌ هائجون يندفعون هنا وهناك، ومراهقاتٌ يقفزن نحو الأعلى والأسفل تحسُّبًا من أن يصيبهن فتيانٌ مراهقون يطلقون نيرانهم على أهداف بط سهلة، ولأنه لم يكن يحمل المال الكافي للقيام بأي شيء آخر، أصبح إيميل مهتمًّا بما يجري على حلبة التزلج، شاهد مجموعة من المبشرين اللوثريين من السويد، وقد سمحوا لتغضنات وجوههم الصارمة بشق ابتسامة وهم ينزلقون على السطح الجليدي.

وبينما كان يحدِّق إلى المبشرين، رآها: فتاةٌ في الرابعة عشرة من عمرها تلفُّ وشاحًا أزرق وأبيض حول رأسها، بالنسبة إلى إيميل، كانت رؤيته لها أشبه باكتشاف عالم جديد كليًّا. على مدار السنوات الثلاثة عشرة من عمره، لم تظهر الفتيات في أيٍّ من جوانب حياة إيميل، ما جعله يفترض عدم أهميتهن.

في الحقيقة، عندما كان ينظر إليهن إجمالًا، لم يعتقد بأن لهن أي دور في الحياة عمومًا، وفي حياته بشكل خاص، على أي حال، وبطريقة ما كانت هذه الفتاة الواقفة خارج حلبة التزلج مختلفة، راقبَها وهي تحل وثاق وشاحها الأزرق والأبيض عن رأسها، وأحس أن هذا التصرف البسيط –بحدِّ ذاته– يساهم في تحديد ملامح حياته، عندما انفلتت خصلة من شعرها البني والذهبي على وجهها هاربة من قيد الوشاح، وجد إيميل نفسه مذهولًا وأكثر إحساسًا بها من نفسه في تلك اللحظة.

كانت طويلة جدًّا لفتاة في مثل عمرها، مع قوامٍ مستطيل الملامح، وساقين وذراعين طويلتين ونحيلتين، ورُكبتين بارزتين، وبينما لاحقت نظراته دخولها إلى حلبة التزلج، كان إيميل متأكدًا أنها خفيفة كنسمة، ارتجفت خطواتها الأولى على الجليد، لكنها انحنت قليلًا وكوَّرت قبضتيها، وأمالت ذقنها نحو الأعلى كما لو أنها تستعد للانطلاق في سباق... وببساطة شديدة تحوَّلت إلى كائن رشيق، تزلجت على الجليد دون عناء، وشعرها الساحر يتدلى خلفها، تعلقت عينا إيميل بها حتى طغى صوت دقات قلبه على كل مسامعه، أدرك حينها أنه ربما وقع في الحب، كان الأمر مزعجًا، لأنه نوى الوقوع في الحب أول مرة في مرحلة ما بعد انطلاقه في أعظم مغامرات حياته.

ذات مرة، وبينما مرت الفتاة المتزلجة أمامه، ركزت عليه بعينين رماديتين واسعتين أحدثتا شيئًا غريبًا في داخله. ودون أن يدري مد يديه المرتجفتين نحو الوشاح الأزرق والأبيض الذي حلته من شعرها، خطرت له الفكرة حينها، فاستغلها بتهور، حاول حشر أكبر قدْرٍ ممكن منه في جيب بنطاله، وقرر وضعه على أحد القضبان المثلمة للطرف السفلي من سريره في مدرسة سيلوس للبنين، وبهذه الطريقة ستبقى ذكرى الفتاة حية أبدًا، وبعد استكمال خلع الوشاح، انتابه خوفٌ مفاجئ وقرر مغادرة الحلبة على الفور، في تلك اللحظة شعر بالحزنِ والفتاةُ تبتعد عنه، فقد تكون هذه آخر صورة لها في مخيلته.

كاد أن يخرج بأمان من مبنى حلبة التزلج عندما أحكمت يدٌ عملاقةٌ تفوح منها رائحة حلوى القطن وتوفي التفاح والفشار قبضتها على كتفه، استدار إيميل ليواجه هيئة غير واضحة الملامح لشخص يعنفه بعينين زرقاوين من تحت نظارة طبية، وطالَبه بإعادة ما لم يكن له، كانت الشمس في عينيه، والخوف في قلبه، فعجز عن تمييز ملامح هذا الشخص المهدد بوضوح. صاح الشخص:

- أعطني الوشاح! وشاح حفيدتي في جيبك، رأيتك وأنت تسرقه أيها اللص الصغير!

أحس إيميل بالخزْي عندما انتزع الشخص الوشاح من جيبه، طوال الوقت الذي قضاه في مشاهدة الفتاة لم يخطر بباله قط أنه كان مراقَبًا أيضًا، رجا وصلى ألا تخرج الفتاة لتشهد ما هو فيه من ذل، لم يستطع تقبُّل صورته كلصٍّ في خيالها، وعاد الشخص أدراجه دون أن ينتظر أيَّ اعتذارٍ من إيميل.

وفي أثناء جريه على طول شارع لوبنجولا، تحوَّل الإيقاع الذي تعلق به قبل ساعة واحدة إلى نشاز في أذنيه، لم يكن لصًّا، لكنه تمنى بصدق أن ينجح في الحصول على الوشاح الأزرق والأبيض، عندما انعطف إلى شارع سيلبورن أدرك إيميل أنه يقاوم دموعه، أصبحت ذكرى الفتاة المتزلجة برشاقة على الجليد محفورة في قلب إيميل، وستبقى كذلك دائمًا، لكنه أدرك أنه ربح شيئًا مقابل خسارته شيئًا آخر.

عزَّى إيميل نفسه بحقيقة أنه يستطيع قضاء ما تبقى من يومه لاختلاق قصة مُقنِعة يرويها لكورتني، على أي حال عندما بدأ الفصل الدراسي في مايو، أخفى إيميل قصة الفتاة، لم يفهم تمامًا سبب ذلك، ولكنه عرف حينها أن بعض الأشياء أكثر قداسةً من أن يُباح بأمرها.

موسيقي من زيمبابوي له لحن سكوكيان الشهير في خمسينيات القرن العشرين، كان قائد فرقة الرقص الإفريقية أفريكان دانس باند التابعة للجنة التخزين البارد. (المترجِم)

لويس أرمسترونج (1901-1971) موسيقي أمريكي له طابع متميز في موسيقى الجاز التي يعتبر من أبرز شخصياتها المؤثرة في العالم. (المترجِم)

الفصل السابع

في شهر مايو من عامه الرابع عشر، وعندما استرق إيميل نظرةً خاطفةً إلى صورةٍ فوتوغرافية بُنية اللون استعرضها كليمانت راذرفورد بفخر، لم تكن هذه أول مرة يشاهد فيها جسد امرأة عارية، رأى شيئًا مماثلًا قبل بضعة أسابيع في صف الفنون للميستريس فيندلاي، أطلقت عليها اسم امرأة عارية، بينما راح إيميل وبقية طلاب الصف يتبادلون الضحكات ويحدِّقون إلى الجسد المرمري الأبيض المتَّكئ على أريكة، مع يدٍ وردية مرخية على الفخذ، لقد تجرأ واسترق نظرة على ما أطلق عليه ماستر فيندلاي في صف العلوم، وبموضوعية شديدة دون عواطف، اسم جبل المكمن. حاول إيميل تفحص الهالة ذات اللون الوردي المائل للبني بعين علمية، لكنه –ولسبب ما– احمرَّ خجلًا قبل أن يرتاح لفكرة أن جميع الفتيان الآخرين –ودون النظر إليهم– كانوا يحمرُّون خجلًا أيضًا.

قالت ميستريس فيندلاي وهي تستخدم أسلوبها الخاص لتضرب بفرشاة الرسم عدة حوامل لوحات، بينما تتمايل رقبتها كالبجعة نحو اليمين والشمال فيتسنى لها رؤية جميع الفتيان في الغرفة: - جسد الأنثى ليس مبعثًا للضحك أيها الفتيان، جسد الأنثى أمرٌ يستحق التقدير، والاحتفال.

وهكذا وبعد مشاهدة جسد أنثوي عارٍ في صف ميستريس فيندلاي، لم يكن إيميل مصدومًا جدًّا عندما عرض عليه كليمانت راذرفورد الصورة الفوتوغرافية ذات اللون البني لامرأة عارية أخرى، مع ذلك أحس إيميل بوجود شيء ما حول تجربة رؤيته لهذا الجسد، وأنهما ليسا متشابهين، كانت الوقفة متشابهة نوعًا ما: جسد وردي -بسبب اللون البني- متكئ على أريكة، مع إحدى اليدين على الفخذ، وجبل المكمن وهالة بلون وردي مائل إلى البني. الاختلاف الحقيقي الوحيد كان أن الصورة الفوتوغرافية أصبحت مجعدة بسبب استخدامها لسنوات طويلة، ما جعل جسد المرأة شبيهًا بأحجية تم تجميع قطعها معًا، استجاب إيميل للصورة، لكن ليس بالإحراج الذي شعر به مع صورة المرأة العارية في صف ميستريس فيندلاي، استجاب جسده بطريقة بدنية وملحوظة جعلتْه يشعر بالحياء في أعماقه.

قال راذرفورد بفخر:

- والدي يملك مجموعة كاملة من هذه الصور.

كليمانت راذرفورد، المعروف باسمه الأخير كبقية الصبية في المدرسة، كان ابن رجل أعمالٍ بارز وسياسي طموح.

تساءل إيميل عما إذا كان والده، جوهان كويتزي، يمتلك مثل هذه المجموعة أيضًا. دبت هذه الفكرة رعبًا في قلب إيميل، وسرعان ما عادت إليه الطمأنينة

بعد أن تذكّر قبعة الكلوش الحمراء، بالطبع لن يكون لدى والده أيَّ مجموعة مماثلة من الصور.

كان إيميل وراذرفورد مجتمعين في قاعة الرياضة مع بقية أعضاء فريق الرَّكبي تحت سن 14 عامًا. في الثالثة عشرة، كان إيميل نائب قائد الفريق، وأكثرهم طولًا وحجمًا، ما منحه –علاوة على موقعه في الفريق– المكانة الأكثر احترامًا في المجموعة، لذلك لم يكن متفاجئًا عندما حدَّق إليه راذرفورد، قائد الفريق، بشدة ليتعرف على ردة فعله، ولإخفاء محاولات كبت مشاعره، رسم إيميل ابتسامة واثقة، كانت ابتسامة ضعيفة وبالكاد يمكن إدراكها، ويبدو أنها حملت التشجيع الذي يحتاج إليه راذرفورد.

- إنها تتوق لاهثة إلى ذلك، صحيح؟

قال راذرفورد بنبرة مختلفة عن صوته.

كان إيميل يودُّ أن يعرف الإجابة عن غاية توقها ولهاثها، اعتقد أن هذا الشيء –أيًّا كان– له علاقة بما دعاه ماستر فيندلاي بموضوعية ودون عواطف «بيولوجيا البشر»، وهو بدوره مرتبط جدًا بالطريقة التي استجاب فيها جسده توًّا للصورة، وبالأسلوب الذي تغيرت معه نبرة صوت راذرفورد.

نظر إيميل إلى اليد على الفخذ، وانحناءات الخصر، والهالة، ووسط كل هذا الحياء، شعر بالإثارة تسري وتنفض جسده كله، إلى أن رأى التعبير الميت في عيني المرأة الرماديتين، هاتان العينان جعلتاه يحس بقدر هائل من الذنب، فابتعد فورًا عن الجمهرة. سأله كورتني بعد عدة ساعات: - ما الذي منعك عن الابتعاد فورًا؟ بمجرد أن رأيت الصورة، ما الذي منعك عن الابتعاد؟

- لم أستطع.

- لم لا؟

قالها كورتني بوجه عابس وساذج. وصل إيميل إلى سن البلوغ فعلًا، لكنه لم يزُر كورتني بعد.

- لن تفهم.

- ما الذي عليَّ فهمه؟ كنت تعلم أن النظر إليها أمرٌ خاطئ، وأن عليك الابتعاد.

لم يتوقع إيميل هذا الرد من كورتني، ربما توقع الفضول، أو الحسد، لكن ليس هذه... هذه العفة الشديدة.

- كنت تعلم أن النظر إليها أمرٌ خاطئ، وأن عليك الابتعاد، أليس كذلك؟

أصرَّ كورتني:

- أليس كذلك؟

- أجل بالطبع، كنت أعلم.

- إذًا، كان ينبغي عليك الابتعاد.

قال كورتني وهو يبتعد عن إيميل، ليوضح مدى سهولة قيامه بمثل هذا الفعل.
لم يقدِّر كورتني معنى أن تكون محاصرًا بصداقة فريق، وكيف له أن يدرك ذلك؟ بعد أول عامين قضاهما في المدرسة، وجَّهت والدة كورتني رسالة طويلة جدًّا إلى مدير المدرسة، ذيَّلتها بملاحظة من الطبيب، كانت الملاحظة شديدة التفصيل لدرجة أنها كادت تدَّعي موت كورتني قريبًا، حققت هذه الرسالة غرضها المنشود؛ فأُعفي كورتني من جميع الرياضات الإجبارية، ومعظم الأنشطة الخارجية، ما سمح له بقضاء معظم وقته في المكتبة، أو غرفة ماستر آرتشي ليقرأ ويناقش في مختلف الأنواع الأدبية. بعد مضيِّ أربع سنوات في مدرسة سيلوس للبنين، كان كورتني لا يزال صبيًّا في التاسعة من عمره، تمامًا كما وصلها أول مرة.
من ناحية أخرى، أحدثت هذه السنوات الأربعة تغييرات كبيرة في إيميل الذي ربما صدمته حقيقة مدرسة سيلوس للبنين، وتخلص من جاثوم الفتاة السوداء مع طفلها الأسمر في منزل البنجل الحكومي الخالي من الشرفات، والمطلي بدهان أبيض، والذي قضى فيه إيميل طفولته، فشفي من نوبات الربو، واستطاع إطلاق العنان لحبه للهواء الطلق والرياضة، وبالنتيجة قضى إيميل مزيدًا من الوقت مع الأولاد الآخرين في المدرسة، الأولاد الذين دعاهم بأسمائهم الأخيرة، الأولاد الذين كبروا أكثر وأكثر مع السنين، أولئك الذين أطلق عليهم سابقًا اسم «لاعقو الأحذية».
بقي إيميل متمسكًا بعلاقته الضعيفة مع كورتني، حتى عندما أصبح ذلك أكثر صعوبة جراء كل الاختلافات التي ظهرت بينهما، أحس بأن كورتني بدأ بالتخلي عنه أيضًا، لا سيما بعد أن وجد «بائسين» آخرين ليصادقهم، وهكذا، وعلى الرغم من ارتباطهما فنِّيًا بخيط دقيق جدًّا، بقيا محافظَين على شيءٍ شعرا بأنه يستحق البقاء.
في تلك الليلة، راودت المرأة من صورة راذرفورد أحلام إيميل، كان حلمًا مشوشًا يكاد يصبح كابوسًا، وجه امرأة الصورة البنية بعيدٌ عنه، رفعت يدها عن فخذها وأومأت له، اقترب منها ومدَّ يده ليلمس انحناءات خصرها، وعندما أوشك على ذلك، التفتت ووجهت إليه نظرة ميتة من عينين رماديتين.
استيقظ إيميل ولاحظ انقطاع الأنفاس في صدره، وبينما انتظر الزفير، شعر ببللٍ لزج يسيل بين فخذيه، أدرك أنه اختبر ما دعاه راذرفورد -وتباهى باختباره له مرارًا- بالحلم الرَّطب، نهض من السرير ليغير ملابسه وملاءات سريره، لسوء الحظ في أثناء قيامه بذلك، استيقظ أحد البائسين النائمين في السرير المقابل له، وصف البائس إيميل بأنه منحرف، وسخر منه بصوت عالٍ بما يكفي لإيقاظ أولاد آخرين.
ودون تفكير، قفز إيميل إلى سريرِ البائس، وتتالت قبضتاه عشوائيًّا على جسد الصبي الذي علت ضحكاته، وتوقفت ضحكات أي شخص آخر رأى في

السخرية من إيميل متعة له، وكاد إيميل أن يبرح البائس ضربًا لو لم يأتِ ماستر دوثي ليبعده عن الصبي.

لم يمضِ وقت طويل حتى كان إيميل ماثلًا أمام ماستر آرتشي المُحبط جدًّا، وماستر دوثي المعجب نوعًا ما، ولم يكن أمام إيميل أي خيار سوى إخبارهما عن الملاءات المتسخة، لم يختر إخبارهم عن صورة راذرفورد، أو كيف زارته المرأة في أحلامه.

تبادل السيدان نظرات قلقة، لم يتفقا على أيِّ شيء في السابق، لذلك كان من المفاجئ أن يومئا لبعضهما قبل أن يقول ماستر دوثي: - لقد أصبحتَ رجلًا.

وقال ماستر آرتشي محاولًا توضيح الأمور:

- أنت تمر بمرحلة طبيعية... عادية... شيءٌ يمر به جميع الفتيان المراهقين.

إيميل، الذي اعتقد أن البائس محقٌّ في قوله بأن الأحلام الرطبة لا تراود إلا المنحرفين، كان على وشك الابتسام بارتياح عندما تابع ماستر آرتشي: - هذا لا يُعفيك من المسؤولية عن سلوكك الخاطئ، هذا التصرف ليس من شيم السيد المحترم.

- السيد المحترم! لا أعلم شيئًا عن السادة المحترمين، لكنني سأقول بأن الرجل، الرجل الحقيقي...

انبرى ماستر دوثي بالحديث قبل أن تمنعه عينا ماستر آرتشي عن المتابعة.

قال ماستر آرتشي:

- هذه أول مرة تخرق فيها القواعد، سندعك تذهب هذه المرة مع تنبيه قوي اللهجة، لن نسمح بتكرار هذا الفعل مجددًا، هل هذا واضح؟

- نعم سيدي!

عندما عاد إيميل إلى المهجع وجد كورتني مستيقظًا بسبب الضجة، وكان على ما يبدو بانتظار عودته، كان جالسًا على سرير البائس الذي ضربه إيميل، لم ينبس ببنت شفة؛ فقط رمقه بنظرة قلق، وعندما اقترب إيميل من السرير مستعدًّا للاعتذار، جاءت المشرفة مع حقيبة الإسعافات الأولية، وأدرك إيميل حينها أن كورتني لم يكن ينتظره على الإطلاق.

هذه الحقيقة قطعت أخيرًا الخيط الرفيع الذي ربطهما معًا، وخط نهاية الشيء الذي كان بينهما.

لكل النهايات بداياتها كما نعلم جميعًا، وكانت نهاية الشيء الذي جمع إيميل وكورتني قد بدأت بالفعل قبل أشهر، في صباح ذلك اليوم من سبتمبر 1939 عندما تلقى ماستر آرتشي رسالة قاطعت درسه عن رواية «قلب الظلام» لجوزيف كونراد[(32)]، وعلى الرغم من أن ماستر آرتشي كان يحاول تشجيع إيميل على قراءة أعمال كونراد بعين ناقدة، فإن «قلب الظلام» كانت من كتبه المفضلة الجديدة لأنها تحتوي على عناصر من هاجارد وبوروس وكيبلينج.

عندما عاد ماستر آرتشي إلى الصف بعد مغادرته المفاجئة كان رجلًا مختلفًا تمامًا، وبدلًا من أن يواصل الفتية الدرس عن كونراد، طلب منهم قراءة قصيدة ويلفريد أوين[33] بعنوان «ما أجمل أن تموت لأجل الوطن» (Dulce et Decorum Est)، وطلب ماستر آرتشي من إيميل قراءة آخر أربعة أسطر منها: صديقي، لن تستخدم مثل هذه الحيوية العالية
لتروي للأطفال المتحمِّسين قصصًا عن فُتاتِ مجدٍ عفِن،
عن كذبة قديمة وبالية:
ما أجمل أن تموت لأجل الوطن.
بعد أن فرغ إيميل من قراءة المقطع الأخير، حيث تنفس في جميع الأماكن الصحيحة، واستخدم علامات الترقيم لمساعدته في بناء إيقاع، وكان نطقه للكلمات وإلقاؤه واضحَين كما تعلَّم، قال ماستر آرتشي للصف إن ألمانيا أقدمت قبل ساعات على غزو بولندا، وأن بريطانيا وفرنسا أعلنتا الحرب على ألمانيا.
قال ماستر آرتشي:
- الحق على الإمبريالية بالتأكيد، ما الذي قد نجنيه من عدة دول تقتطع العالمَ حصصًا لنفسها؟ كان أمرًا محتمًا أن ينقلب هذا الجشع الخبيث على نفسه... أودُّ أن تسألوا أنفسكم، أيها السادة المحترمون، عن المكمن الحقيقي لقلب الظلام.
لم يستطع إيميل إدراك قسم كبير من كلام ماستر آرتشي، كان حزينًا على إيقاف درس كونراد، وظل يرجو العودة إليه، أحس بشيء من خيبة الأمل لأنه لم يعطِ السطور الأربعة من القصيدة حقها في الأداء، اعتقدَ أنه شوَّه الكلمات اللاتينية، لو يمنحه السيد آرتشي فرصة أخرى فقط لقراءة سطور مختلفة، ما الذي يمكن أن يفعله مع سطور غنية بالجناس والسجع مثل: اسمع! مع كل رجة يعلو صوت الدم،
مُغرغِرًا من رئتين فاسدتين بزبَدٍ كثُغاء،
مثل سرطان سافل، ومرارة في الطَّعم،
كمذاق قروح غير قابلة للشفاء... على ألسنة الأبرياء.
أسرع راذرفورد في تجاوز هذه السطور دون أي تفكير أو عناية.
وعلى النقيض من إيميل التائه في أفكاره، أصغى كورتني بشغف لكل كلمة قالها ماستر آرتشي، وأومأ برأسه ببطء يوحي بأنه أدرك أخيرًا عدة أمور كانت غافلة عنه، ومن بين طلاب الصف كله، كان الصبي الوحيد الذي أومأ برأسه، بينما كان الآخرون يتململون بعدم اكتراث في مقاعدهم.
عندما بدأت حصة ماستر دوثي، كان كورتني ما زال يفكر في كلام ماستر آرتشي، فسأل ماستر دوثي: - هل تتفق مع ماستر آرتشي يا سيدي، بأن الغزو

الألماني لبولندا كان نتيجة حتمية لمساعي أوروبا الاستعمارية في بقية دول العالم منذ قرون، وحتى الآن؟
حملق ماستر دوثي إلى كورتني كما لو أنه رأى شيئًا عجيبًا قبل أن يصيح: - ماذا؟ ماذا قُلتَ؟ ما الذي قاله ماستر آرتشي؟
كان كورتني على وشك تكرار سؤاله عندما أوقفه ماستر دوثي بحركة من يده، خلع نظارته المثبتة على الأنف بتصميم «بينس نيه»، ودلَّك جسر أنفه قبل أن يستسلم لواقع معيَّن ويقول: - ماستر آرتشيبالد سيد محترمٌ لدرجة تجعله غير مدرك لحقيقة أن بناء الإمبراطورية ليس من شأن السادة المحترمين، وإنما من عمل الرجال.
لم يقتنع كورتني بالإجابة، فكرر سؤاله لتأكيد وجهة نظره، أيًّا كانت، وقال: - ما رأيك في الغزو الألماني لبولندا، سيدي؟
كان هذا الإصرار في حصة ماستر دوثي هو الأول من نوعه لكورتني المعروف أكثر بانسحاباته بدلًا من الإقدام، ووضح ماستر دوثي بغضب لكورتني ولبقية الأولاد في الصف، نقطة كان قد بيَّنها في السابق، ولم يتخيل قط أن عليه تكرارها، وهي أن العالم أجمع كان يقبع في الظلام إلى أن بزغ نور الحضارة الأوروبية.
- التاريخ وحده كفيل بإخبارنا عن أسباب الغزو الألماني لبولندا، يخبرنا التاريخ أن الأوروبيين عندما وصلوا إلى هنا أول مرة، وهذا ليس من وقت بعيد، كان الظلام مخيِّمًا على كل شيء. كل شيء ظلام في ظلام، لم تكن هناك حضارة، هل هذا واضح؟ لم يكن هناك تاريخ.
قاطعه كورتني:
- هذا ليس صحيحًا، سيدي.
صُدم الصف، وخيَّم الصمت، لم يشهد تاريخ صف التاريخ في مدرسة سيلوس للبنين أن يُقدِم طالب على مقاطعة ماستر دوثي.
امتقع وجه ماستر دوثي، وأرعد قائلًا:
- عفوًا!
كرر كورتني:
- هذا الكلام غير صحيح، سيدي.
استندت شجاعته هذه إلى ما سمعه في صف ماستر آرتشي.
- للأفارقة حضارتهم، وهناك أمثلة عظيمة عن حضارات في مختلف أرجاء القارة، وبعضها أكثر عراقة من حضارتنا، وفي هذه الدولة فقط...
ضرب ماستر دوثي راحة يده بقوة على سطح مقعد كورتني لإخراسه:
- سنرى بشأن الحضارات في مختلف أرجاء القارة، واضح! ارفع يديك أمامك يا بني!

زمجر ماستر دوثي قبل أن ينهال على براجم كورتني عشر مرات بعصا أصدرت صوتًا عاليًا.

روَّض هذا التصرف العنيف، والموجز، غضب ماستر دوثي الذي عاد إلى هدوئه وقال: - أي شخص يدَّعي بأننا لم نجلب الحضارة إلى هذا الجزء من العالم... هو شخص كاذب... وعدوٌّ للإمبريالية، تم إغلاق الموضوع.

شعر إيميل بالأسف على كورتني الذي تعرض للتوبيخ القاسي أمام الصف بكامله، لم يَعِ جوهر حديث ماستر آرتشي كفاية ليحدد ما إذا كان كورتني محقًّا في إصراره على التمسك برأيه أم لا، كل ما عرفه هو أن كورتني اعتمد أسلوبًا خاطئًا في مخاطبة ماستر دوثي، فالطريقة الأمثل للتعامل مع رجل مثل ماستر دوثي هي محادثته سرًّا في غرفته، حيث يستطيع مواجهة التحدي غير المتوقع دون جمهور.

قال إيميل لمواساة كورتني بعد انتهاء الحصة:

- لم يكن عليك أن تقول شيئًا.

- بلى، كان عليَّ ذلك.

قال كورتني كلماته وهو يمشي متجاوزًا إيميل الذي كان في انتظاره، قرر إيميل ترك كورتني يمشي وحيدًا. كانت تلك بداية نهاية الشيء بينهما.

كلٌّ على حدة، ذهبا إلى صف العلوم، حيث ألقى ماستر فيندلاي محاضرة صعبة ومعقدة حول أهمية العقل الراجح في حياة الإنسان، لم يُخفِ ماستر فيندلاي سعادته بالتفنيد بدلًا من التفسير، وكل ما استطاع إيميل استيعابه من المحاضرة هي أن العقل الراجح يبدو وقد حلَّ بدلًا من «أمر الله» الذي تعلَّمه في الحصص السابقة للدراسات الدينية، حينها كان الله هو الذي وهب الإنسان سلطانه على جميع الأشياء الأخرى التي خلقها، أما الآن فإن العقل الراجح هو ما يمنح الإنسان تفوقه وإتقانه.

قال ماستر فيندلاي وهو يهز كعبيه سعيدًا، وإبهامه معلق في حمالات بنطاله، مستمتعًا بما وصفه ماستر آرتشي بـ «التعتيم»: - التفكير امتياز اختص به الإنسان. أنا أفكر، إذًا أنا موجود، بينما تعتمد الأنواع الأخرى من المخلوقات على غريزتها وليس على العقل، ما يمنحنا التسلسل الهرمي الذي نراه في كل مكان حولنا.

من طرف عينيه رأى إيميل كورتني يرفع يده، ليرد الصف كله بأصوات شكوى وتململ.

عرف إيميل ما قد يسأله كورتني:

«كيف نعلم، على وجه اليقين، أن الأنواع الأخرى لا تمتلك العقل الراجح؟»

أثير هذا الموضوع للنقاش سابقًا بين إيميل وكورتني، وكان شيئًا تساءل عنه إيميل أيضًا، ولكن عندما سمح ماستر فيندلاي لكورتني بالحديث، كان سؤاله

المفاجئ هو: - ما الذي يجعلنا متأكدين جدًّا أن الإنسان ذو عقل راجح؟ ماذا لو أنه يفتقد الرجاحة... والعقلانية؟

جاء دور ماستر فيندلاي للارتباك، رمش بعينيه عدة مرات، ونزع نظارته ونظفها، وتفحصها قبل أن يعيدها إلى جسر أنفه ويجيب كورتني: - أعرف أن أخبار اليوم جاءت صادمة للجميع، سميث سينكلير، أنت معذور، يمكنك الخروج إلى ركن المرضى.

لم يجادل كورتني، ووضع كتبه فوق مقعده بهدوء، وغادر الصف. هلل بقية الطلاب بمجرد رحيله، أدرك إيميل حينها وجود شيء جوهري مختلف في كورتني، وأن هذا الشيء نفسه هو الذي يبقيه بين «البائسين»، هذا الشيء نفسه هو الذي وسَّع الشرخ بينهما إلى حد لا يمكن تجاوزه، على الرغم من كل المحاولات الفاشلة لإنقاذ ما كان يجمعهما في السابق.

جوزيف كونراد (1857-1924) روائي بولندي إنجليزي يعتبر من أعظم الروائيين الذين كتبوا باللغة الإنجليزية. (المترجم).
ويلفريد أوين (1893-1918) شاعر وجندي إنجليزي كانت أشعاره صورًا حية ودقيقة عن الحرب العالمية الأولى، حيث كان يعتبر من أفضل الشعراء الذين وصفوا آلام الحرب وفظائعها. –موقع صدى البلد.

الفصل الثامن

عندما بلغا الخامسة عشرة من العمر، كانت علاقة إيميل وكورتني سطحية جدًّا، ما تسبب في حيرة الجميع من حادثة السرقة الفكرية.

استجابة لمطالبة التلاميذ بإجراء مقارنة وتمييز من حيث استخدام النبرة والصوت ووجهة النظر والتصوير الخيالي بين قصيدتي «في حقول اللافندرز» للشاعر الكندي جون ماكراي، و»فور ذا فولن» للشاعر الإنجليزي لورانس بنيون، تلقَّى ماستر آرتشي مقالتين شبه متطابقتين من إيميل وكورتني، وبما أن كورتني كان الطالب الأقوى بينهما، اتهم ماستر آرتشي إيميل بالغش، نفى إيميل ذلك، واتهم ماستر آرتشي بالمحاباة، بحسب إيميل، فإن التشابه بين المقالتين هو من محض الصدفة لا أكثر، ودفاعًا عن كليهما، استبعد كورتني وجود طريقة يستطيع إيميل من خلالها نسخ مقالته، لأنه أقفل عليها في درج مقعده مباشرة بعد أن انتهى من كتابتها.

توجَّب انتهاء الأمر عند هذا الحد، لكن ذلك لم يحصل، لن يسمح ماستر آرتشي بذلك، كان مثل كلب فقد عظمته المفضلة، وبحماس مسعور أجرى تحقيقًا في الأمر حتى وقف ستيواردس خائفًا في بركة من بوله، أمامه وأمام ماستر دوثي ومدير المدرسة، وبركبتين مرتجفتين وعينين باكيتين وأنف يسيل، أوضح ستيواردس أنه أحضر مفتاح والده الذي يفتح كل الأقفال إلى المدرسة، وأن إيميل استعاره منه، أقسم بقبر جدته أنه لم يكن على علم بما ينوي إيميل فعله بالمفتاح.

كان الغش جريمة شنيعة في مدرسة سيلوس للبنين، ما يعني إمكانية ووجوب تعرُّض إيميل للفصل كعقوبة، لكن إيميل أصبح جزءًا أساسيًّا من فرق المنافسات الرياضية للمدرسة، كما ذكَّر ماستر دوثي قاصدًا ومنبهًا ماستر آرتشي، قبل أن يطلب من إيميل الانضمام إليهم في مكتب المدير.

سأله ماستر آرتشي الذي بدا محبَطًا ومنافقًا كما لو أنه ليس هو الشخص الذي طارد الحقيقة:

- ما الذي دفعك لاقتراف ذلك؟

في تلك اللحظة، قرر إيميل أنه غير مكترثٍ بالمنافقين. أجاب إيميل بصراحة:

- لأن أنشطتي والتزاماتي اللاصفية تستهلك كل وقتي، ولا يعود في وسعي إنجاز واجباتي المدرسية.

- هذا عذرٌ سيئ.

لم يكن عذرًا سيئًا، ولا أي شيء من هذا القبيل، كانت الحقيقة، منذ أن ثبتت قدرات إيميل الرياضية، كان من المتوقع أن يتفوق فيها، كان المدربون يخبرونه دائمًا أنهم يعتمدون عليه لتحقيق الانتصارات والفوز بالجوائز، كان

ماستر آرتشي والجميع يعرفون ذلك. كان ماستر آرتشي يجلس متسلطًا كالقاضي، متظاهرًا بعدم معرفة الإجهاد الذي تسببه المدرسة لطلابها حين تتوقع منهم التفوق في كل شيء، كان ماستر آرتشي منافقًا.

من جديد، قرر إيميل أنه لا يحب المنافقين.

كرر ماستر آرتشي سؤاله:

- ما الذي دفعك للقيام بذلك؟

أجاب إيميل بصدق:

- قمت بذلك لأنني لا أريد الفشل.

قال ماستر آرتشي بنبرة مرتابة:

- لكنك فشلت! لقد خذلت نفسك، ألا تعتقد ذلك؟

أراد إيميل أن يضحك من هذا القول؛ فكيف يمكن أن يفشل لاستخدام الغش في النجاح؟

وربما ضحك بالفعل، لأن ماستر آرتشي هز رأسه باستسلام حزين، ومع حركة الرأس تلك، أدرك إيميل أن ماستر دوثي كان على حق؛ ماستر آرتشي كان سيدًا محترمًا لدرجة تمنعه عن فهم أعمال الرجال.

أحس إيميل بالأسف تجاهه.

وشعر ماستر آرتشي بأسف كافٍ أفقده الرغبة بالإصرار على فصله.

لكن خيبة أمله فيه تعني أن الأمور بينهما لن تعود أبدًا إلى سابق عهدها.

تزايد الصدع بين إيميل من جهة، وكورتني وماستر آرتشي من جهة أخرى بعد عرض حماقات سيلوس في موسم الربيع، وهي عمل مسرحي انتقادي يؤديه الطلاب بحلول نهاية العام الدراسي، تتكون معظم مشاهد هذا العمل المسرحي من هجاء مستهلك لجوانب من الحياة في مدرسة سيلوس للبنين، المشهد الذي أعدَّه إيميل وراذرفورد –على سبيل المثال– كان تصويرًا هزليًّا للعلاقة بين ماستر آرتشي وماستر دوثي، وهو ما كان جزءًا ثابتًا من العرض منذ أكثر من عشر سنوات، وتحكي إحدى العروض الثابتة الأخرى عن صبي بعمر الحادية عشرة يجرب حظه مع «إيف ماريا»، يحاول ماستر دوثي ضبط نفسه خلال أداء أغنية داني بوي[34]، فيما تبذل المدرسة بأكملها جهدًا لمقاومة الدموع مع «نشيد الوداع».

لم يكن للعروض برنامج ترتيب محدد، وكانت العروض غير أصلية لدرجة أن ميستريس فيندلاي اعتادت كتابة برنامج الحفلة المسرحية مسبقًا، ليقوم الطلاب بملء أسمائهم في المكان المناسب، هكذا وحتى قبل عرضها على المسرح، تسببت مسرحية كورتني عن مأساة آدم ريندرز[35] التراجيدية في بَلبَلةٍ، لأن ميستريس فيندلاي أصبحت مضطرة الآن إلى كتابة برنامج جديد للحفلة.

آدم ريندرز كان من الشخصيات التي اعتاد ماستر دوثي الإشارة إليها في صف التاريخ كمثال عن منبوذي الإمبريالية. «كان الرجل هو أول من وقعت عيناه على أطلال المدينة العظيمة، وبدلًا من مشاركة اكتشافه مع العالم، اختار –وبشكل مثير للشفقة– الاستسلام للكحول والتحوُّل إلى واحد من السكان المحليين. أصبح متوحشًا كالأفارقة، واضح! يقولون إنه أصبح متوحشًا حقًّا في نهايته، يا للعار! كان بمقدوره دخول التاريخ كواحد من الرجال العظماء وبدلًا من ذلك، تخلى عن هذا الشرف لكارل ماوخ[36] عندما أرشده إلى الآثار. بعض الرجال ضعفاء في داخلهم... فشلٌ فطري لا يتيح لهم تحقيق إمكاناتهم الحقيقية، هذه هي مأساتهم، وتلك كانت مأساة آدم ريندرز التراجيدية».

تدرب البائسون على مسرحية مأساة آدم ريندرز التراجيدية في غرفة ماستر آرتشي، وتحت إشرافه، لم يدع ذلك أيَّ مجال للشك باحتمال وقوع أيِّ شيء، وبعد الضحك الصاخب في عرض إيميل وراذرفورد، والتشجيع المتواضع لماثيو فوليت في عرضه المهزوز «إيف ماريا»، كان المسرح جاهزًا لعرض كورتني.

سرعان ما ظهر نجاح البائسين في التفوق على أنفسهم، لقد بنوا منصة متحركة تحتوي على مظلة لعربة يجرها ثور في الخلفية، ونار مخيم في المقدمة، وبفضل مهارة الفتيات من عائلة سميث سينكلير، ارتدى الفتية ملابس واقعية، وأُعدَّت وجوههم لتبدو مثل الرجال، في البداية، جلس الفتية الست عشرة حول نار المخيَّم وهم يُديرون جثة مخلوق مصنوع من الورق المقوَّى حول سيخ الشَّي، بدأ كورتني بمناجاته مثل راوي القصص القديمة، بينما يمثِّل البائسون الآخرون ما يقوله:

- اسمي آدم ريندرز، ولدت في ألمانيا عام 1822، لكنني هاجرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأنا صغير، أوقَعتْني تلك الرحلة عبر الأطلسي في عشق المغامرة الذي سيرافقني طيلة أيام حياتي، كانت تلك أوقات غنية بإغراءات المغامرة، انفتحت أبواب العالم فجأة على مصراعيها، بحيث استطاع أي رجل... أي رجل... دخولها، الرجل المولود وسط الفقر والغموض أصبح قادرًا على إزالة أغلال المصائب التي لاحقته أجيالًا، وأن يخط لاسم عائلته سطرًا في التاريخ، كانت تلك الفكرة... وما تنطوي عليه من احتمالات... أمرًا مُسكِرًا يبعث النشوة، استنشقنا هواءً مثقلًا بالإثارة الخالصة، أصيب بعضنا بالجنون، يا له من قدر! توجَّه غربًا أيها الشاب! كنت قادرًا على اختيار المغامرة في الغرب الأمريكي، ولكنني اخترت جنوب إفريقيا، إفريقيا! السوداء... البرية... والمجهولة، قد يصادف الرجل شيئًا مألوفًا –صنفٌ من الأزهار، شلال منبثق منذ الأزل– فيُطلق عليه اسمَه أو اسم ملكَته ليجد نفسه –فجأة– شخصية محترمة في إحدى المدن الأوروبية، مخاطبًا جمعيات مختلفة، يمكن أن يصطاد أنواعًا من الحيوانات غير المألوفة أو شبه المنقرضة، غاصًّا الطرف عن حقيقة

أن القصور والمساكن الكبرى في أوروبا ستتهافت مسرورة لاقتناء تشكيلاتها الخاصة من الحيوانات، وإذا وطئت قدمك منطقة مجهولة، وكنت محظوظًا بما يكفي لعدم تعرضك للقتل جرَّاء مرض استوائي خبيث، من المؤكد أنك ستجد طريقك نحو كتب التاريخ، هكذا ودون مقدمات، يستطيع رجل عادي دخول التاريخ ليصبح جزءًا منه، اسمه، واسم عائلته، قد يسطران للأجيال القادمة، لقد غامرتَ بالخروج لأجل جميع رجال عائلتك الذين سبقوك وعملوا في أراضي رجال آخرين، وأبحروا على متن سفن رجال آخرين، وقاتلوا في حروب رجال آخرين... رجال راحت أسماؤهم طي النسيان مباشرة بعد أن دقت ساعة منيَّتهم، لقد فعلتَ ذلك لنفسكَ أيضًا... بينما كنت تمشي في الهدوء الغادر لأراضي السافانا العشبية، كانت أشعة الشمس تنهال بسياطها عليك بلا هوادة، والمرض الذي ترك جسدك كله في الوهن والمرض يهدد بإيقافك أخيرًا في مساراتك، ويستهلكك بالكامل... لقد استخدمت طاقتك الاحتياطية الشحيحة التي تركتها لتدير رأسك وتلقي نظرة وراءك لتشاهد الفلاحين، والبحارة، والجنود الذين كان من السهل جدًّا نسيان وجودهم خلفك... وتجد القوة للاستمرار، على الأقل، حصل هذا الأمر معي، أتيتُ لاهثًا وراء الشهرة، وجاء آخرون للبحث عن الثروة، كانت الأغاني مختلفة، ولكن بنفس الألحان المُنذِرة.

بمجرد وصولي إلى جنوب إفريقيا، انضممت إلى الفورتريكرز[37]، وتزوجتُ إلسي بريتوريوس، ابنة قائدهم أندريس بريتوريوس، هويتُ التجارة والصيد واستكشاف البلاد، وخلال إحدى بعثاتي العديدة، وفي عام 1876، صادفت الآثار القديمة للمدينة العظيمة، كان المشهد مهيبًا حقًّا، حاولت إلحاق الأرض بجمهورية ترانسفال، وفي المقابل، وعدتُ الزعيم المحلي بتأمين الأسلحة للدفاع ضد القبائل المغيرة في المنطقة، تأثرتُ بتلك الأطلال لدرجة أنني جلبت عائلتي إليها في عام 1868، وعرَّفتهم بمكان إقامتهم الجديد، زوجتي إلسي كانت معارضة للاستقرار بعيدًا عن الحضارة، وبين السكان الأصليين. فعدتُ مع عائلتي إلى ترانسفال، وأجريت زيارات سنوية لتلك الآثار، وفي واحدة من تلك الرحلات، أصابني سهم مسموم وقاتِل من أحد السكان الأصليين.

بدت تلك نهاية الفصل الأول، لأن البائسين انهمكوا في إعادة ترتيب أنفسهم على المسرح، علَت بعض التصفيقات المتناثرة والمترددة، واسترق أكثر من صبي النظر باتجاه ماستر دوثي لتقييم كيفية استجابته للعرض حتى يردوا بالمثل؛ كان جالسًا بظهرٍ مستقيم وجبين مغضَّن، لم تقع أيُّ إساءة حتى الآن، ومع ذلك، قال ماستر دوثي بوضوحٍ سمعه جميع من في القاعة:

- ما الأمر؟ هل من مزيد؟ إلى متى سيتحمل الناس المحترمون الجلوس هنا لمشاهدة هذا الهُراء؟

أثار هذا التعليق ضحكات معظم الفتيان، فانبعث السرور في نفس ماستر دوثي.

بدأ الفصل الثاني مع كورتني في شخصية آدم ريندرز مخاطبًا الجمهور مباشرة، وفي هذا الوقت قام البائسون الآخرون بتفكيك مظلة العربة التي يجرها ثور، وأعادوا بناءها على شكل خريطة أولية لإفريقيا.

قال كورتني:

- أرضٌ خِصبة لقصصٍ مذهلة، أليس كذلك؟ ليس من المستغرب أن نجد فيها الخيال ممتزجًا بالحقيقة، الحقيقة هي أنني كنت متزوِّجًا من إلسي بريتوريوس، وأنجبنا أربعة أطفال هم هيلينا بارندينا نوربيثا، وجان آدم، ووبليم أندريس بريتوريوس وهندريك جاكوبوس، الحقيقة أيضًا هي أنني تركت عائلتي في عام 1869 لأستقر بالقرب من الآثار القديمة للمدينة العظيمة، الحق يقال إنني عشت هناك مع ابنة الزعيم بيكا، وكنت والدًا لطفل آخر ذي بشرة بنية فاتحة، قيل عني إنني أصبحت من السكان المحليين، أعتقد أن هذه الرواية كانت أخف وقعًا من الحقيقة، الحقيقة هي أنني رفضت الإمبراطورية، مأساتي هي أنني رأيت السرد الإمبريالي للحقيقة عملًا خياليًّا محضًا، حقيقتي هي أنني لم أكتشف شيئًا، لأنه لم يكن هناك أي شيء لأكتشفه.

البناة الحقيقيون لأطلال المدينة العظيمة عرفوا بوجودها، وأولئك الذين استخدموها علموا بوجودهم، كنت قادرًا على دخول التاريخ كأول رجل أوروبي يرى تلك الأطلال، لكنني لم أكن كذلك؛ حضر البرتغاليون إلى هذه المنطقة في القرن الخامس عشر، ثم جاء العرب من تجار الرقيق...

- ماذا! ماذا تقول! عن أيِّ عرب تتكلم!

تدخَّل ماستر دوثي بين الجمهور، وصاح دون أن يُتيح لكورتني أيَّ فرصة لاستكمال ما بدأه:

- سميث سينكلير، انزل عن المسرح، فورًا!

ودون انتظار المزيد، قفز إلى خشبة المسرح، وجرَّ كورتني بعيدًا، وزمجر:

- سأجعلك تندم على هذا يا صبي.

وساد صمتٌ مروع في القاعة.

أراد ماستر دوثي طرد كورتني والبائسين، وهدد ماستر آرتشي بالاستقالة إذا تم الأمر على هذا النحو، واتهم ماستر دوثي ماستر آرتشي بأنه وقَّع العرض بنفسه، واستخدم البائسين ليتكلموا بلسانه؛ فهل يُعقَل أن يكتب صبي في الخامسة عشرة من عمره مثل هذه المسرحية؟ استُدعيت عائلة سميث سينكلير إلى المدرسة، فجاؤوا جميعًا: الأب والأم، والأخوات الستة، لم يجدوا أي خطأ في المسرحية، في الواقع، كانوا فخورين بها، وبابنهم كورتني الذي ألَّفها، فاستنتج ماستر دوثي أن الأسرة كلها مجموعة من المعتوهين.

وبقدر عالٍ من الحساسية والدبلوماسية، ذكّر السيد سميث سينكلير مدير المدرسة بأنه كان عضوًا في مجلس الأمناء، ومتبرعًا سخيًّا للمدرسة، عند هذه النقطة، أكد مدير المدرسة أنه سعيد بترك المسألة تمرُّ دون عقاب، هم في النهاية مجرد أولاد، وما نفعُ الشباب لولا الطيش وجنوح الخيال؟

بالنسبة إلى إيميل، أثبتت له الأحداث شكوكًا ساورته خلال قضية السرقة الفكرية، وبعدها؛ أن ماستر آرتشي -الذي كاد أن يفصل إيميل وحارب ضد طرد كورتني- وجد في الأخير شيئًا افتقده في إيميل، أقنع إيميل نفسه أن هذا الأمر لا يستحق الحزن، فهو ببساطة يعني أنه رجلٌ، خلافًا لكل من ماستر آرتشي وكورتني... وبقية البائسين، ومع ذلك تذكَّر الوهج الدافئ للمصباح الكاشف في تلك الليلة عندما تقابلوا أول مرة؛ تذكَّر كيف أكل قلب الحيوان وهو ما يزال دافئًا، وتذكَّر تلك اللحظة القصيرة عندما كانوا سادة محترمين معًا، وسمح لنفسه بلحظة قصيرة من الندم على فقدان ذلك الدفء.

داني بوي من الأغاني الأكثر شعبية في الذخيرة الموسيقية الأيرلندية، ألّفها الشاعر الإنجليزي فريدريك ويذرلي، وأُعدَّت على اللحن الأيرلندي القديم «لندنديري أير»؛ ولها أهمية خاصة لدى الجاليات الأيرلندية. (المترجم)

آدم ريندرز، مغامر بريطاني اكتشف أطلالًا حجرية مذهلة في زيمبابوي، وافترض خطأ أنها بقايا حضارة أجنبية بيضاء هاجرت للجنوب. –صحيفة الرياض، العدد 13748.

كارل ماوخ (1837-1875) مستكشف وجيولوجي ألماني، ينسب إليه اكتشاف آثار زيمبابوي العظمى. – الموقع الإلكتروني لصحيفة البيان الإماراتية، 12 نوفمبر 2002.

الفورتريكرز، أو الأفريكان، هم طلائع المهاجرين الأوروبيين الذين هاجروا من مستعمرة كيب البريطانية في جنوب إفريقيا بعد عام 1834، وتوغلوا في أعماق الشمال عبر النهر البرتقالي. –نقلًا عن موسوعة «بريتانيكا». (المترجم)

الفصل التاسع

لم يعرف إيميل ماذا يسميها، ولن يعرف ذلك أبدًا، وأيًّا كان ما جرى، فإنه لم يستمر طويلًا، ما جعله ممتنًّا طيلة حياته.

خلال هذا الشيء الذي لم يستطع إطلاق اسم عليه، التقيا ربما ست مرات، عرضت عليه إعطاءه دروسًا إضافية، لم يكن يبلي حسنًا في أيِّ مادة، وكان بحاجة إلى كل مساعدة ممكنة تجنبًا للخضوع إلى فترة اختبارٍ أكاديمية، أو حتى الطرد، صحيح أنه عنصر لا غنى عنه في المجال الرياضي، ولكن المدرسة تفخر بأدائها المتميز في الامتحان الوطني، ما اضطره إلى إظهار ما وصفه مدير المدرسة بـ «التحسن الملحوظ» في واجباته المدرسية، وهكذا كان مضطرًّا جدًّا إلى الاستفادة من مساعدتها في البداية.

وفاءً بوعدها، تضمنت اللقاءات الثلاثة الأولى دروسًا، أنهى سلسلة من صور الفحم التي كان فخورًا بها نوعًا ما، واستخدم الألوان المائية في لوحة حرص على استكمالها. لا بد وأنها لمست كتفه وركبته، لكن الأمر بدا عَرَضيًّا، أصلحت تسريحة شعره التي عبثت بها الريح، لكنها بدت طبيعية ومنشغلة بشكل دائم، لذلك لم يُعر إيميل بالًا لتلك التفاصيل.

في تلك الزيارة الرابعة، وبمجرد دخوله إلى الغرفة تقريبًا، قالت:

- ليس لديك أدنى فكرة كم أنت جميل، ستحطم الكثير من القلوب يومًا ما.

اعتقدَ بأنها تريد رسمهُ، لكنها لم تفعل، وبدلًا من ذلك، أخذت يديه ووضعتهما على صدرها. قالت:

- لا تخجل! عليك احترام الشكل الأنثوي خلافًا لجميع الرجال في هذا المكان المهجور.

طلبت منه الإحساس بشكل تفاحتيها ووزنِهما، وفعلَ كما قالت له، وأدرك حقيقة الأمر بعد فوات الأوان، عندما مالت برقبتها التي تشبه البجعة نحو الخلف وبدأت بالأنين. لم يرسم أيَّ لوحة في ذلك اليوم.

لم يحضر الدرس الإضافي طيلة الأسبوع التالي، ولم تذكِّره بذلك، بعد ذلك بأسبوعين وأمام الصف قالت:

- كويتزي، لا تنسَ درسك الإضافي معي هنا اليوم عند الثانية والنصف.

كان إيميل متأكدًا أن أيًّا مما قد جرى في السابق، لن يتكرر مطلقًا، ليس بعد أن أعلنت عن اجتماعهما أمام جميع طلاب الصف، وكان محقًّا، فلم يحدث مرة أخرى، قالت وهي تضحك بخفة:

- أنت لطيف، وستسامحني على جنوني، أليس كذلك؟ نحن صديقان، أنت وأنا، والأصدقاء يسامحون بعضهم، أليس كذلك؟ سأرسمك يومًا، وسترى كم أنت جميل لدرجة مذهلة، عندها ستفهم ربما... أصدقاء؟

قالت عبارتها وهي تمد يدها، وصافحها إيميل مرتاحًا.
سار الدرس على ما يرام. وعلى الرغم من أنها وقفت قريبة جدًا منه، إلا أنها لم تلمسه قط.
وكان لقاؤهما السادس مختلفًا تمامًا، لا بد وأنها خلعت ثيابها بينما كان منشغلًا بقماش اللوحة، مستغرقًا في محاولة الحصول على الظل الصحيح للوحة الحياة الساكنة لوعاء من الفاكهة، فعندما التفت إليها، كانت مستلقية على أريكة، ويدها الوردية مرخية على فخذها الأبيض. كانت عارية تمامًا. بدأت يدها تبتعد عن جبل مكمنها، فأشاح إيميل عنها بناظريه ووقف سريعًا فاهتزت اللوحة وحاملها. قالت ذلك وهي تنهض عن كرسيّها وتمشي باتجاهه:
- كل هذا جزء من الدرس... لا تخف. تخلصتُ من الجنون، أؤكد لك، لكنك لن تستطيع رسم أو تلوين أو نحت جسد بشري دون أن تلمسه... دون أن تدركه حسيًّا.
أحس بأنفاسها الحارة عند أذنه اليمنى وهي تهمس له:
- المسني إيميل ... المسني يا عزيزي الصغير، عليك أن تشعر بي... الفنّ شيء ملموس... محسوس... مادي... وحتى جسدي.
تناولَت يده اليُمنى الملطخة بالطلاء ووضعَتها على شفتيها، وطافت بها على مفاتن جسدها حتى شهقت، وفي نوبة من الجنون، كادت تخنقه بقبلاتها، فدفعته نحو الأرض ليسقط فوق لوحته عن الحياة الساكنة، دارت بينهما تجربة غريزية سرعان ما ندم عليها إيميل، صرخَت واهتزّت فوقه وهي تدعوه «عزيزي الصغير».
سرعان ما انتهى الأمر، لكنه لم ينته بالسرعة الكافية.
بعد وقت قصير من مغادرته لغرفة الفنون، تقيأ إيميل، وتقيأ... وتقيأ... كما لو أن جسده كان يحاول التخلص من كل القوت الذي حصل عليه في مدرسة سيلوس للبنين، حتى عندما تقيأ كل شيء، كان لا يزال يشعر بالغثيان في معدته.
وبينما كان يتخبط في ترتيب هندامه خارج باب غرفة الفنون، شعر بالدموع تنهمر من عينيه، وعد نفسه –منذ زمن بعيد– ألَّا يبكي مجددًا، لكنه لم يستطع تمالك نفسه؛ لقد فقد شيئًا ثمينًا، وكان بأمس الحاجة إلى البكاء، والحداد.
لم يشعر إيميل بتعابير الرعب في نظرات ماستر آرتشي إلا وهو يثبت الزر الأخير في قميصه، وتبدلت الشفقة على وجه ماستر آرتشي بالرعب، بينما راح نظره ينتقل بشكل متكرر بين إيميل وباب غرفة الفنون، يبدو أن ماستر آرتشي قرر أخيرًا ما يقوله، وكان على وشك أن يتحدث، عندما انضم إليهما كورتني مع ابتسامة على وجهه، مستعدًّا لإخباره بشيء هام.
كان هذا أكبر من قدرة إيميل على التحمل، ركض هاربًا بعيدًا عنهما، وحاول تجنب التفكير في تلك الليلة عندما تقابلوا تحت ذلك الألق الدافئ للصداقة،

تلك الليلة، التي يبدو وكأنها مرت قبل عمرٍ مضى، عندما نظر إيميل بابتسامة مشاكسة ودامية.

في تلك الليلة، حلم إيميل بامرأة الصورة البنية ذات النظرة الميتة من عينين رماديتين. حدَّقت إليه طويلًا دون أن تقول أو تفعل شيئًا، وعندما فتحت فمها لتتحدث أخيرًا، أدرك إيميل أنه خائف مما ستقوله، فاستيقظ سريعًا.

فور استيقاظه، تذكر إيميل الوشاح الأزرق والأبيض الذي انتزعه في حلبة لاجرانج للتزلج، وشعر بالسعادة لأن الظروف منعته من تحقيق نواياه، وجلبِه إلى مدرسة سيلوس للبنين؛ فبئسًا لمثل هذا الشيء الجميل والحساس من منزل كهذا!

جاءت مشرفة السكن للاطمئنان على إيميل، وأخبرته أن ماستر آرتشي يمنحه الإذن للتغيب عن الصف والأنشطة، واصطحبَتْه إلى قسم المرضى، وبحلول وقت الظهر، تجمَّع بعض الصِّبية حول إيميل بعد أن سمعوا أن ميستريس وماستر فيندلاي حزما حقائبهما وغادرا المدرسة في جوف الليل، كثرت الشائعات حول أسباب المغادرة، وأشارت كلها إلى إيميل، وإيميل مملوء بالرعب، آخر شيء أراده من زملائه هو الشعور بالشفقة، لم يُرد أن يُنظر إليه على أنه الضحية، ومع ذلك، سرعان ما فهم أن الأولاد حوله لم يكونوا هناك لتقديم تعاطفهم، وإنما لهدف مختلف تمامًا، كانوا هناك ليقدموا... احترامهم.

- أعتقد أنها كانت تتوق لاهثة إليه، أليس كذلك؟

سأل راذرفورد بنبرة صوت يمتزج فيها الحسد بالرهبة.

- أليس كذلك؟

تلعثم إيميل:

- نعم... نعم كانت كذلك.

- كنت أعرف، إنها من النوع الذي يبقى في حالة هياج دائمة. بائعة هوىً بكل ما للكلمة من معنى.

جفل إيميل من الكلمة، وقرر عدم الرد.

- أعتقد أنك أعطيتها ما أرادته بشكل جيد، أليس كذلك؟

بدا راذرفورد متأكدًا جدًّا لدرجة أنه لم يكن بحاجة إلى الجواب، لكنه طلب ذلك بإلحاح:

- ألم تفعل ذلك؟

- بلى.. بلى، لقد فعلت.

- ماذا فعلت؟

- أعطيتها ما أرادته.

تعالت أصوات الصفير وصيحات التهليل والتقدير.

وجد إيميل نفسه بطلًا بين أقرانه، لم يكن الفتى الذي فقد عذريته في سن الخامسة عشرة وحسب، وإنما الذي نجح في ذلك عبر إغواء امرأة تكبره سنًّا، كانت معلمته في ذلك الوقت، وعندما سئم منها، لم يقم فقط بإنهاء الأمور بينهما، بل حرص على طردها هي وزوجها الديوث.

شعر إيميل براحة كبيرة مع هذه النسخة من الأحداث، لأنها كانت بعيدة جدًّا عن الحقيقة المروعة.

حاول ماستر آرتشي وكورتني الحديث معه في عدة مرات منفصلة، لكنه رفض جازمًا الحديث معهما، كان يعلم أنه إذا تحدث إليهما، فسيخبرهما كيف دعته –على مر السنين– إلى غرفتها وشجعته ليحكي لها عن والديه والحياة في المنزل، وكيف تمزقت عندما أخبرها عن صمتهما، وكيف أخبرته عن جنينها الذي أجهضته، وكيف اعتادت أن تدعوه «عزيزي الصغير»، وكيف بدأت بإعطائه هدايا عيد الميلاد عندما أصبح في الثالثة عشرة: مجموعة من فُرَش الرسم، وعلبة من المناديل مطرزة بالأحرف الأولى من اسمه، وكتاب يضم صورًا كلاسيكية لنساء عاريات، وكيف أتت إليه متسترة بمظهر الأم، ثم تحولت إلى شيء معاكس تمامًا.

بدلًا من ذلك، اختار إيميل التحدث إلى الفتيان الذين جعلوه بطلًا، كرر القصة التي اختلقوها وكأنها قصته، اكتسبت قصة غزوهِ (اختار الكلمة عن عمد) للسيدة فيندلاي مزيدًا من التفاصيل والإثارة في كل مرة، وازداد الطلب عليها قبل النوم.

في الليل، عندما ينام جميع الفتيان الآخرين في المهجع بسلام، كانت امرأة الصورة البنية ذات النظرة الميتة من عينين رماديتين تزور إيميل لتحاول إخباره بشيء ما، لكنه كان يحرص على الاستيقاظ قبل أن تتمكن من ذلك.

الجزء الثاني

المُراهَقة/ لاعبٌ بائس

الفصل العاشر

كانت القَسَماتُ الطفولية في الوجه واضحة بما يكفي ليدرك إيميل أنه كورتني، لم يكن إيميل ليفرح قط مع وجه كهذا، خلافًا لكورتني الذي أحب وجهه، واستخدمه بثقة وحيوية للتعبير عما يريد.

خمس سنوات مرت على آخر لقاءاتهما، أحدهما أصبح رئيسًا لهيئة الطلاب مع سجل أكاديمي ممتاز، وكان الآخر قائد الفرق الرياضية مع سجل أكاديمي غير ممتاز، وبينما انهمك صامتًا في مساعدة والده على وضع صندوق أمتعته في السيارة، ألقى إيميل نظرةً على كورتني الذي وقف وسط مجموعة من سبع نساء يدللنهُ. طوال العامين الماضيين في مدرسة سيلوس للبنين، لم تدُر بينهما أيُّ أحاديث سوى في حالات الضرورة القصوى، لكن اليوم هو الأخير في المدرسة، وأحسَّا بضرورة فعل شيء تكريمًا للمناسبة، أصبحا الآن في الثامنة عشرة، وقد التزمت المدرسة بجزءٍ من شعارها فحوَّلتهما من فتيان إلى رجال، وكان المستقبل وحده كفيلًا بتحديد ما إذا كانا سيصنعان التاريخ أو لا، كما لو أنهما اتفقا على الإشارة مسبقًا، أومأ كل منهما برأسه للآخر قبل أن يتجه كورتني المدلل إلى سيارةٍ ويقودها بعيدًا.

على طاولةٍ في إحدى زوايا سكوبيز، بدا كورتني الآن كما لو أنه من مرتادي أكثر الأماكن احترامًا وتميزًا في سيتي أوف كينجز، نادي جنتلمانز كلوب للسادة المحترمين، كانت أخبار الازدهار الطابعَ الأساسي للنقاشات في جنتلمانز كلوب، حيث الأجواء الفياضة بالدبلوماسية المهذبة، ومما لا شك فيه، ظهَرَ كورتني غريبًا في سكوبيز، حيث تدور الأحاديث عن النساء والرياضة والأحلام المحطمة والآمال الخائبة، وسرعان ما يمكن أن تنتهي بأعمال عنف وبشاعة.

لم تعُد حانة سكوبيز مقصدًا لمنبوذي الإمبريالية، وكانت الوجهة الأمثل لرجل مثل إيميل، ومع ذلك، لم يزُرها منذ أكثر من ست سنوات، آخر زياراته كانت وهو في السابعة عشرة من عمره، حين جاء مع العم سكوت عشية رحيله لخوض معركة مُشرفة، لم يكن العم سكوت ممن يحبون السُّكْر إلى درجة النشوة، وبشكل غير متوقع، تحوَّل إلى شخصية خبيثة وصاح في وجه إيميل: - كانت جدتك بائعة هوى.

وأمام علامات الارتباك على وجه إيميل، تابع سكوت:

- والدة أبيك كانت راقصة، ربما انطلقت كفتاةٍ في جوقة، لكنها بالتأكيد لم تنتهِ كذلك.

وضع العم سكوت ذراعه بلؤم حول إيميل وقال:

- والدك هو ابن زانية... حرفيًّا... وهو من اختارته والدتك ليبقى زوجًا لها.

ومع شعور منطقي بالإهانة، وقف إيميل واستعد للمغادرة، ما أيقظ العم سكوت فورًا من سكرته، فقال متلعثمًا: - أنا آسف... لستَ المُلام على هذا الخطأ يا صغيري... لطالما جمعتنا علاقة طيبة، أليس كذلك؟ علاقتنا أصيلة وحقيقية لا تقوم على مصالح.

على مضض، عاد إيميل للجلوس على كرسي البار.

- يا لك من وغدٍ جميل... هل أنت متأكد أنك لست ابني؟

ابتسم إيميل لمحاولة العم سكوت الفاشلة للمصالحة. تمتم العم سكوت في كأس الويسكي: - يا بني الذي لم أحظ به، عندما سأعود، سنذهب معًا إلى الطابق الثالث من فندق سيسيل، تحدُث هناك أمورٌ ستجعل منك رجلًا... أعدك.

عانق العم سكوت إيميل بيأس سكِّير، وهمس له باكيًا: - أنت الشخص الوحيد الذي أعتبره ابنًا لي.

كانت تلك آخر كلمات سمعها إيميل من العم سكوت، والذي لم يعُد من المعركة المشرفة.

عندما وصلت أخبار عدم عودة العم سكوت عبر رسالة مفاجئة من والده، حصل هو وراذرفورد –الذي زوَّر مذكرة من والده– على تصريح عطلة نهاية الأسبوع، واتجها بالسيارة طوال الليل نحو سيتي أوف كينجز، وهناك، ذهبا مباشرة إلى الطابق الثالث من فندق سيسيل ليقوما بالأشياء التي جعلتهما رجُلين.

جاءه صوتٌ مقاطعًا أحلامه:

- إيميل؟

قال كورتني وهو يبتسم ويجلس على كرسي البار بجوار إيميل: - إنه أنت، أستطيع تمييز مؤخرة رأسك في أي مكان.

قال إيميل مشيرًا برأسه نحو المقعد الذي شغله كورتني للتو: - لقد رأيتك سابقًا... لم أرغب في إزعاجك.

- كان أحد الشباب يخبرني عن هذه المنظمة الجديدة، كابريكورن أفريكا سوسايتي[38]، ألم تسمع بها؟

هز إيميل رأسه، قال كورتني وهو يشير إلى النادل ليعيد ملء كأسه بمشروب توم كولينز الكحولي: - يبدو الأمر مثيرًا للاهتمام، لقد دُعيت، سأذهب وأرى.

نظر إيميل بريبة إلى شريحة الليمون الطافية على بقايا الكوكتيل، وخشي لوهلة أن يحتوي هذا المشروب على الكرز، يفضل الموت على أن يحتسي شرابًا مثل هذا.

قال كورتني وهو يشرب كأس توم كولينز أخرى بسعادة:

- يجب أن تأتي معي.

نزل شعر كورتني المجعد بشكل غير مرتب على جبينه، ما زال خداه محافظين على مسحتهما من اللون الوردي، وقد لوحت الشمس رموشه، فقدَ سُمنة صباه منذ فترة طويلة، ومع ذلك، فقد بقي محافظًا على شيء صبياني... لا... إنه يمتلك صفات أنثوية تقريبًا، فكر إيميل أنه كان يفترض بعائلة سميث سينكلير أن تضم سبع فتيات.

سأل كورتني مقاطعًا أفكار إيميل مجددًا:

- هل تودُّ ذلك؟

- أودُّ ماذا؟

- هل تودُّ حضور اجتماع كابريكورن أفريكا سوسايتي؟

- نعم... أعتقد ذلك.

- جيد!

قالها كورتني مبتسمًا وهو يربت ظهر إيميل، ماذا يمكن أن تسمَّى مثل هذه الشخصية، تساءل إيميل، دمث الخُلُق؟ الفتاة التي كان يقابلها إيميل... حسنًا، إحداهن... كانت مهتمة بعلم النفس والشخصيات، لطالما حاولت فك رموز شخصيته.

- تبدو صعب المنال، أنت منغلق جدًا، وترفض التواصل بأيِّ مستوىً ذي معنىً... أنا عاجزة عن فهمك.

كانت تقول كلماتها وهي تدقق في وجهه باحثة عن شيء بدت خائفة من العثور عليه، هذا ما حصل عليه لتورطه في علاقةٍ مع طالبة جامعية، على أي حال، كانت العلاقة جيدة، لكن حسنًا، لطالما كانت علاقاته جيدة، كان شديد الحرص على ذلك، وترجع خبرته إلى دروسه العديدة التي تلقاها من ساكني الطابق الثالث في فندق سيسيل، ترك الطالبة الجامعية في جنوب إفريقيا، لقد تركهن جميعًا في جنوب إفريقيا، تمامًا كما ترك الجميع قبل أربع سنوات هنا في الوطن، في سيتي أوف كينجز.

«ستحطم الكثير من القلوب يومًا ما ...»

وضع إيميل مشروب البيرة، وأشار إلى النادل، حان الوقت لمشروبٍ أقوى.

سأل كورتني وهو يربت مجددًا كتف إيميل:

- ماذا فعلتَ خلال السنوات الماضية؟

- كنت في جنوب إفريقيا طيلة السنوات الأربع الماضية.

- أنت تمزح! أنا أيضًا، أي جامعة؟

بالطبع، التحق كورتني بالجامعة.

- التحقتُ بجامعة ويتس، درستُ فنون المسرح، وتخرجت منذ فترة قصيرة مع مرتبة الشرف، قابلت فتاة، كانت تدرس اللغة الإنجليزية، أكثر الفتيات

اللواتي قابلتهن ذكاءً، تزوجتها قبل عامين تقريبًا، يا لها من فتاة جميلة ورائعة، إنها الأفضل.

أن يتخرج كورتني مع مرتبة الشرف أمرٌ طبيعي، ومن الطبيعي أيضًا أن يتزوج كورتني من أول فتاة يلتقي بها، بالطبع كانت الفتاة جميلة، بالتأكيد اعتقد كورتني أنها الأفضل، ربما لم تجمعهما أي علاقة قبل الزواج، فهو لا يؤمن باختبار البضاعة قبل شرائها، احترم كورتني فضيلتها، وكرَّمها، حتى ليلة زفافهما، عندما أدى واجبه تجاهها، وتجاه نفسه... بينما كان طوال ذلك الوقت يتصرف كسيد محترم.

أن يتزوج المرء وهو في الحادية والعشرين! لا سمح الله! كورتني فقط من يعتقد بأن هذا الشيء مدعاة للفخر.

- إذًا، ما هي الجامعة التي ارتدتها؟

- ذا وليامز آرمز.

ظهرت الحيرة على كورتني.

- إنه بنسيون جدة أمي في ديربان، ساعدتُ جدتي في إدارته.

- آه، حسنًا... فهمت... يبدو الأمر جيدًا.

قالها كورتني مبتسمًا لتبدو كلماته حقيقية بما يكفي.

عندما رأى إيميل هذه الابتسامة تساءل عن عدد المرات التي تلقى فيها هذا الوجه لكماتٍ من شخص لم يكن في المزاج الملائم ليخاطبه شخص دمث الأخلاق، ظل كورتني يبتسم مشجعًا في انتظار مزيد من تفاصيل القصة، لكن في الحقيقة لا توجد أي تفاصيل أخرى عن قصة إيميل، ليس لكورتني على أي حال.

تخطى إيميل ما يكفي من امتحاناته الوطنية النهائية المؤهلة للعمل في شرطة جنوب إفريقيا البريطانية، فاتخذ الخطوات اللازمة للانضمام إلى صفوفها، خلال المدرسة، كان يحلم بالانضمام إلى صفوف الجيش ليحارب في معركة مشرفة، ولكن الحرب انتهت تمامًا عندما أصبح مؤهلًا وجاهزًا للانضمام، وهكذا، لم يستطع المشاركة والانتقام لموت العم سكوت، تأسَّف إيميل على انتهاء الحرب، وعذبته فكرة أن فريدريك كورتني سيلوس شق طريقه نحو خليج ألجوا، وكاد أن يدخل التاريخ، وهو في التاسعة عشرة من عمره، لكن إيميل لم يستطع في النهاية التصالح مع نفسه، واتبع خطى والده بكل بساطة، فأين المغامرة في كل هذا؟ لو أراد دخول التاريخ، وهو ما أحس به فعلًا في عمر التاسعة عشرة، لما اتخذ المسار السهل، كان الأحرى به أن يرسم مساره الخاص، وهكذا، ومع قليل من الندم، توقف عن التدرب للانضمام إلى شرطة جنوب إفريقيا البريطانية.

سنحت له فرصة القيام بشيء مختلف في حياته من مصدر غير متوقع نوعًا ما، توفي أنتوني سيمونز، زوج جدته، بنوبة قلبية فجأة، وطِلبت جدته –التي لم

تتعلم كيفية العيش دون مساعدة رجل– حضور إيميل عاجلًا إلى ديربان، كانت والدته ما زالت مجروحة من أسلوب تعامل أمها وزوجها معها، لكن إيميل ذهب على أي حال، كان في التاسعة عشرة من عمره، وقد حان الوقت للانطلاق في رحلته الاستكشافية.

لم يخلُ قراره بالرحيل من العواقب، إذ خلَّف وراءه العديد من القلوب في مراحل وحالات انكسار وبؤس متنوعة، ومنذ ذلك الحين أصبح إيميل شخصية مشهورة في الساحة الاجتماعية لمدينة سيتي أوف كينجز. عندما كان في السابعة عشرة من عمره، وقف على لوح الغوص في حمامات السباحة التابعة للبلدية، ولاحظ أن سيدات من جميع الأعمار كن يراقبنه، ويجرين له التقييم والاستحسان المناسبين، رسم على وجهه ابتسامة أثارت ضحك الفتيات الأصغر سنًا، غاص إيميل في المسبح، وسبح إلى الضفة الأخرى في حركة مغازلة طبيعية.

بدأ إيميل بتقدير سيتي أوف كينجز والاستمتاع بها، أصبح متنزه المئوية والمسرح وحمامات السباحة التابعة للبلدية أماكن يستطيع أن يلتقي فيها بالفتيات و... يمر معهن في مختلف المراحل... كما أحب أن يدعوها. وعلى الرغم من ذلك، وفيما شق طريقه نحو ديربان، كان إيميل بحاجة إلى شيء جديد في حياته، بدأت مباهج سيتي أوف كينجز بالتلاشي تحت الوهج المستمر للشمس، بقيت الفتيات مصدر متعة حتى ساورته مشاعر القلق عندما بدأن يشعرن بأنه عامل ضروري لسعادتهن، على الرغم من أنهن كن متنوعات من الناحية الجسدية، إلا أنهن تشاركن الطموح ذاته، وهو الزواج به.

ومع مشاعر الحنين، تذكَّر إيميل –وربما أضفى طابعًا مثاليًّا– على مغامرات طفولته في البلدة الاستعمارية التابعة لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية عند سفوح مرتفعات ماتوبوس، شعر حينها بالحرية والحيوية، وأراد استعادة عنصر الحرية هذا مجددًا، أراد الوجود في البراح الإفريقي المفتوح ليكون سيدًا على كل ما يراه. وبينما كانت خطاه تنقله من فتاة لأخرى؛ كان يتوق إلى ذلك الشعور الصافي بالانتماء الذي أحس به ذات مرة، لكن ذلك لم يحدث قط.

في الحقيقة، وافق على عرض جدته لأنه كان الطريقة الوحيدة للعثور على روحه التائهة.

بمجرد وصوله إلى ديربان، حاول إيميل الوقوع في حب المدينة، ومُنيَ بفشل ذريع، كان الطقس شديد الرطوبة بالنسبة إليه، كان الغطاء النباتي الاستوائي غريبًا جدًّا بالنسبة إلى الرجل الذي اعتاد التقاط أنفاسه بين أحضان السافانا، وجعلها جزءًا منه.

أعجبته فتيات ديربان إلى حد جيد كفاية، ولحسن حظه، أُعجبن به أيضًا، كن أقل سذاجة من الفتيات في بلده، ما جعله أكثر سعادة، لكن هذا النوع من السعادة لا يصح إلا أن يكون عابرًا، وبصورة حتمية، وكما اعتادت النساء في

كل مكان؛ بدأت سيدات ديربان –ومع كل ما لديهن من دنيوية– بإظهار الرغبة في الحصول منه على التزام دائم لم يكن مستعدًّا لتقديمه.

سرعان ما شعر إيميل بأنه محاصر ومقيد مجددًا، وأنه بأمس الحاجة إلى الهروب، لذلك، عندما أخبره راذرفورد عن استخدم صِلات والده لتوظيفه بمستوى مبتدئ في وزارة شؤون السكان الأصليين، وهي وظيفة من شأنها أن تضمن له استكشاف أراضي السافانا العشبية والرحلات إليها، غادر إيميل ديربان دون تردد.

وبينما تناول رشفة من كأس الويسكي، أدرك إيميل أن كورتني غير معني، ولا يستحق معرفة أي شيء بهذا الخصوص.

صفعةٌ على مؤخرة رأسه كادت أن تخنقه بالشراب، وكانت كفيلة بتعريفه أن راذرفورد انضم إليهما.

- كويتزي.

- راذرفورد.

- وماذا لدينا هنا؟

قالها راذرفورد وهو يحشر نفسه بين إيميل وكورتني.

- كورتني "الساذج" سميث سينكلير.

ضحك راذرفورد بينما جلس على كرسي عند البار ليجعل نفسه أكثر راحة.

- هل ستخبرنا أخيرًا بحقيقة علاقتك مع ماستر آرتشي؟

وجه سؤاله إلى كورتني.

نظر كورتني بشفقة نحو إيميل، لم يفهم إيميل دوافع كورتني للأسف عليه، بينما هو الشخص الذي تعرض لمضايقة راذرفورد بشأن ماستر آرتشي، كما أن إيميل لم يرغب في الحصول على تعاطف كورتني، لا حينها، ولا الآن، ولا في أي وقت.

وقف كورتني، وأخذ رشفة طويلة من كأس كولينز خاصته قبل أن يربت ظهر إيميل ويقول: - حسنًا... أراك يوم السبت في نادي جنتلمانز كلوب، يبدأ الاجتماع في السادسة، سيكون الاجتماع حاشدًا كما أظن، لذلك أفضِّل الوجود هناك في الخامسة والنصف لأضمن حضوري.

ضرب سطح المنضدة بيده، وقال بأسلوب مسرحي:

- ستكون تلك فرصة انطلاقي!

تفرَّج إيميل وراذرفورد على كورتني وهو يقف بجانب رف المعاطف قريبًا من الباب، ويرتدي معطفه وقبعته ليتحوَّل أمام أعينهما، هكذا، وفجأة، اختفت كل المظاهر الصبيانية والأنثوية في كورتني سميث سينكلير، ليتحوَّل إلى السيد المحترم الذي كان عليه، قال راذرفورد: - ما زال هذا الساذج يعتقد أنه أفضل منا جميعًا.

هز إيميل كتفيه وسأل:
- هل تودُّ الذهاب إلى فندق سيسيل؟
قال راذرفورد وهو يفرغ كأسه:
- أنت تعرف الإجابة بالطبع! تسرني عودتك، لا طعم لسيتي أوف كينجز في غيابك، أنت تعلم الحيل الصحيحة للاستمتاع في هذا المكان.
وقف إيميل مستعدًّا للذهاب مدركًا أن كأسه لم تكن الشيء الوحيد الفارغ.
لطالما كان فندق سيسيل مصدرًا يحصل منه إيميل على بهجة لا توصف، لكن ذلك الزمان ولى، والمستقبل غامض، اعتمد إيميل على الطابق الثالث من الفندق ليتعلم عن العلاقة بين الرجل والمرأة، وقد تعلَّم الكثير بالفعل، لكن، وبعد أن أجاد استخدام معرفته، لم يستطع إلا أن يشعر... بنوعية الصفقة... بالانحطاط... بتدهور نفس العلاقة التي تعلَّم عنها، لذلك، وفي تلك الليلة، وقبل أن يحدث أي شيء فعلًا، وجد إيميل العذر لنفسه، فدفع للسيدة وتجول في شوارع سيتي أوف كينجز وحيدًا.
واسى إيميل نفسه بأنه تخطى الحاجة إلى مثل هذه الأماكن، لكنه يدرك أن ذلك غير صحيح، رؤية الحقيقة لن تمنعه من العودة إلى المكان، كان يعرف نفسه بما يكفي ليصل إلى هذه الحقيقة، كان الأمر مجرد اشتياق لحظي كبير وصادق إلى المطاردة، كيف أَحَبَّ المطاردة، وكيف أَحبَّت النساء أن يكن الطرائد، المطاردة ليست جزءًا من اللعبة في الطابق الثالث من فندق سيسيل، والذي لم يحوِ إلا النزر اليسير من ضرورات الحياة.
تتمثل أفضل حالات المطاردة، دون أدنى شك، في وجود الطريدة بين مجموعة، أفضل مطارداته تمت في حفلة، أو في رقصة، أو في نزهة، أو أي تجمُّع، كان إيميل يتفرَّد بالطريدة -يفضِّل ألا تكون الأجمل لأنها تتوقع ذلك– فيستهدفها، ثم ينتقل نحو مرحلة الصيد، يقترب منها وهي ما زالت بين صديقاتها، ويتحدث معها حصريًّا كما لو أنها –بالنسبة إليه في تلك اللحظة– الكائن الوحيد الموجود، لم تفشل خطته قط، كان دائمًا يحصل على مُراده.
اكتشف إيميل أيضًا أن الجنس الأضعف يفضل الاختيار على المطاردة، أحببن فكرة إغوائه لاختيارهن –من بين كل الأحجار الكريمة في العالم– بسبب طريقتهن الخاصة في التألق واللمعان.
أصبحت المطاردة والطريدة أسلوب عمل إيميل، وبينما كان الاختيار أمرًا متعبًا بالنسبة إليه، لم يجد إيميل أيَّ صعوبة في المطاردة.
كان إيميل يدرك في قرارة نفسه وجود طريقة أخرى للتعامل مع الأشياء، عرف ذلك عندما التقى الصبيَّةَ على الشاطئ في ديربان، استشعر اختلافها منذ النظرة الأولى، وبدلًا من انتظار اختيارها، برزت متفردة بين الأخريات، بينما كانت مجموعتها تلهو في المياه الزرقاء المخضرة للمحيط الهندي،

جلست وحيدة على الشاطئ ذي الرمال البيضاء، وملامحها تعكس الرضا والسعادة.

مع ذلك، عندما وقع نظر إيميل عليها أول مرة من داخل الحدود الآمنة لمجموعة أصدقائه، لم تكن هذه السعادة والرضا وحدها ما لفت انتباهه؛ كان الوشاحَ الأزرق والأبيض الذي ربطته حول خصرها، كان يرفرف مع الرياح بشكل جذاب، في تحد صارخ لأي شخص يتجرأ على الاقتراب.

مستحيل أن يكون ذلك حقيقيًّا، لكن... ماذا لو كانت... هي؟

لم يشعر إيميل بنفسه إلا وهو يبتعد عن رفاقه ليسير باتجاه الوشاح الأزرق والأبيض، وفي طريقه نحو الشابة، بدأ يلاحظ شعرها البني والذهبي المشاكس تحت قبعة كبيرة من القش، وزي السباحة العاجي الذي يُبرز بشرة لوحتها الشمس، تلك الرِّجلان والذراعان الطويلة واللامعة تحت أشعة الشمس، بدت كمنارة في بحر من ألوان الأزرق والأسود، حيث جلست على منشفة شاطئ كبيرة زرقاء اللون عليها رواية بغلاف سميك وسلة من الخوص، كانت تنظر إلى المحيط مبتسمة، وقد انحنت إلى الوراء وغرست يديها في دفء الرمال.

تخيل إيميل نفسه جالسًا بالقرب منها، يشعر بحرارة بشرتها تحت الشمس، ويميل ليدسَّ وجهه في انحناء رقبتها الدافئة، تصوَّرها وهي تدير رأسها لتقبِّل ما تطاله شفتاها من رأسه، كان يدرك أن الانسجام لن يبدو جديدًا، فهما على معرفة قديمة ببعضهما.

قبل أن يصل إليها بثلاثة أمتار تقريبًا، استدارت لتلفحه بعينين مثل اخضرار المحيط، ابتسمت له، ولشدة ذهوله، وجد إيميل نفسه عاجزًا عن المشي أكثر، فجلس في مكانه الذي بدا –على الرغم من قربه– بعيدًا جدًّا.

لا بد وأنه خطط ليحدثها عن شيء لم يعُد يذكر ما هو، كان الوشاح هو كل ما فكر في الحديث عنه، لكن، ما الذي يمكن أن يقوله؟ «قبل ست سنوات، في الثامن عشر من أبريل، هل كنتِ تتزلجين في حلبة لاجرانج في سيتي أوف كينجز؟» ما الذي سيحصل لو أنها قالت لا؟

قالت الشابة:

- اليوم جميل جدًّا، أليس كذلك؟

وكل ما استطاع إيميل فعله كان الرد بإيماءة وابتسامة، أدارت وجهها بعيدًا عنه، شعر إيميل أن العالم كان بين يديه لتلك اللحظة، ثم سُلب منه.

لحسن حظه طارت قبعة القش عن رأسها وحطت في حضنه، وقفَت، واعتذرت وهي تأخذ القبعة من بين يديه، عندما رأى الألق الكامل لخصلات شعرها المجعد والمشاكس، كان شبه متأكد أنها هي، تلك الفتاة الجميلة التي تقف أمامه تحت الشمس، كانت ذات يوم نفس الفتاة التي تتزلج فوق الجليد برشاقة.

بينما حدَّق إيميل إليها، ناداها صوت من المحيط باسم لم يسمعه جيدًا بسبب النسيم، فحمل الصبيَّة بعيدًا وراحت تركض نحوه، والوشاح الأزرق والأبيض يتدلى خلفها، لاحظ إيميل حينها كيف أبرز الوشاح خطوط خصرها النحيل، وفخذيها المكتنزين، راقبها وهي تلقي قبعة القش إلى امرأة وقورة قبل أن تركض ضاحكة نحو المحيط الهندي، راقبها مطولًا، حتى حان موعد مغادرته مع رفاقه.

على الرغم من زياراته المتكررة لاحقًا إلى الشاطئ، فإنه لم يرها مجددًا.

لو أنه سمع الاسم الذي حملته الريح! كان هذا الاسم شيئًا يستطيع الاحتفاظ به وحمله دون أن يشعر بثقله، اسمٌ ربما كان ليصاحبه الآن في مشواره بمفرده في شوارع سيتي أوف كينجز.

منظمة سياسية متعددة الأعراق تسعى للنهضة بإفريقيا خالية من التمييز العنصري، تأسست في روديسيا الجنوبية عام 1949 على يد ديفيد ستيرلينج وإن. إتش. ويلسون. –عدة مواقع إلكترونية. (المترجِم)

الفصل الحادي عشر

بمجرد وصوله إلى قاعة جريت هول في جنتلمانز كلوب، أدرك إيميل أن كورتني نسي إخباره عن كثير من التفاصيل، وأحدها محرجٌ شخصيًّا لإيميل ويتعلق بقواعد اللباس، ظهَرَ إيميل كراعي بقرٍ –كاو بوي– يحاول التوغل بين قطيعٍ من البطاريق المترنحة، لم يستفد من وصوله المتأخر، حيث كان الجميع تقريبًا جالسين على طاولات مختلفة، عاقر الكثير من الشراب والنساء خلال الأيام القليلة الماضية، ولم يكن قد شفي تمامًا من مغامراته، وستجعله هذه التجربة يعرف متى يحين الوقت للتوقف.

خلع إيميل قبعة رعاة البقر عن رأسه وأمسكها بيديه دون أن يدري ماذا سيفعل، لحسن الحظ، رأى يدًا تلوح له من طاولة بالقرب من مقدمة القاعة، إنه كورتني، وبارتياح، شق إيميل طريقه نحو اليد الملوحة، ولاحظ تفاصيل أكثر إثارة للدهشة، والتي غفل كورتني عن ذكرها أيضًا: كان الحشد من أشخاص متعددي الأعراق، ضمت القاعة أوروبيين وأفارقة وملونين وهنود، منذ أيامه في المدرسة الحكومية للقرية، لم يفكر إيميل في أنه سيوجد في مثل هذه الغرفة مع أفارقة لا يخدمونه بطريقة أو بأخرى، تعثرت خطوته، لم يكن هذا الوضع مجرد خروج عن المألوف وحسب، وإنما... أمرًا خاطئًا... وغير قانوني، ما هذه الورطة التي وضعه فيها كورتني؟ ما هذا المكان الذي قصده برجليه؟ استدار إيميل للمغادرة، لكن وقبل الوصول إلى الباب، كان كورتني إلى جانبه. قال كورتني وهو يشير إلى ملابس إيميل، ويقوده إلى الطاولة بالقرب من المقدمة: - يا له من اختيار مثير للاهتمام.

صُعق إيميل من أن كورتني لم يذكر أي شيء بخصوص قواعد اللباس، لأنه اعتقد أن إيميل يعرف ما هو متوقع منه، في المجتمعات التي يرتادها كورتني، كان هذا النوع من الأشياء أمرًا مفروغًا منه، وفي عالم إيميل، ينبغي توضيح مثل هذه الأشياء، لأن أمثاله من الرجال لا يملكون بدلة توكسيدو فاخرة، وبالتالي، يجب إخبارهم مسبقًا ليتمكنوا من استئجار واحدة.

جلس إلى طاولة كورتني أوروبي آخر، ورجل هندي، واثنان من الملونين وإفريقيان. قال كورتني كاذبًا مع ابتسامة ساحرة لتوضيح سبب اختلاف ملابس إيميل: - لطالما تصرف إيميل على سجيته.

قال الرجل الهندي معربًا عن تفهُّمه عبر إيماءة من رأسه: - ما كنا لنجتمع هنا لو لم نكن مثله.

قال كورتني وهو يشد على كتفَيْ إيميل:

- أنا مسرورٌ لحضورك اليوم.

تساءل إيميل عما إذا كان كورتني مدركًا لكثرة ملامسته للناس... للرجال الآخرين.

وقبل أن يبدأ كورتني تعريفه بالموجودين، رن جرسٌ أوقف ضجيجَ المحادثات، وأفسح المجال لصمتٍ مهيب، اتجه رجلٌ نحو المنصة، كان مذهلًا تمامًا مثلما بدا ماستر آرتشي في أول مرة رآه فيها إيميل: طويل القامة، وسيم، مع عينين متقدتين بالذكاء، وظهر مشدود مستقيم. حدَّق إيميل إلى الرجل مثلما حدَّق إلى ماستر آرتشي... كما لو أنه شهد المجيء الثاني.

قال الرجل إن المستقبل يبدأ الآن، وشدد على وجوب العيش المشترك بين الأعراق، وضرورة إدارة البلاد عبر حكومة مشتركة، قال بأن العنصرية ونظام الفصل العنصري لا مكان لهما في عالم ما بعد الحرب، وبأن زمن السكان المحليين ولى ليحل زمن الإفريقيين، وأكد على حق جميع الرجال المتحضرين بالتصويت، وأن البلاد لن تحقق التقدم إلا بتكاتف جهود جميع رجالها.

ترددت همسات الاستحسان طوال الكلمة التي ألقاها الرجل، البعض -ومن بينهم كورتني- كانوا متأثرين جدًّا بما قاله الرجل لدرجة أنهم كانوا يصيحون «اسمع! اسمع!» وبين الوقت والآخر، كان الرجل يتحدث عن السياسات التي ينبغي تنفيذها، والإجراءات التي يجب تعديلها أو إلغاؤها، والقرارات القانونية التي يتعين عكسها، وعندما انتهت كلمته، تلقَّى الرجل تهليلًا حارًّا، وقف إيميل، ربما لأنه كان مميزًا أصلًا ولم يرغب باستقطاب مزيد من الاهتمام، ولأنه لم يكن متحمسًا مثل بعض الآخرين، لاحظ إيميل مجموعة أفارقة يجلسون في الخلف، لم يقفوا أو يصفقوا، وتساءل عن الجزء الذي أثار حفيظتهم في الخطاب.

خلال الاستراحة، سمع إيميل مقتطفات من الحوارات التي أكدت له ما كان يعرفه بالفعل؛ أنه لم يكن بين نوعه المفضل من الجمهور، هؤلاء الرجال يقرؤون الكتب والمجلات، ويتبادلون الأحاديث حول السياسات والإجراءات والقوانين، قطع وعدًا على نفسه بالتوجه نحو سكوبيز مساءً بمجرد انتهاء الاجتماع.

لاحظ إيميل أن أحد الأفارقة الذي لم يشارك في التصفيق الحار يشق طريقه نحوه، وبقدر ما استطاع، استعد لأولى محادثاته الفعلية مع إفريقي.

وقبل أن يتسنى لإيميل سؤال الإفريقي عن رأيه، بادره الرجل قائلًا: - ما رأيك في الخطاب؟

توقَّع إيميل سماع كلمة «سيدي» في نهاية السؤال. انتظرها ثانية أو اثنتين قبل أن يجيب: - أعجبني بما فيه الكفاية.

بدت على وجه الرجل الإفريقي ابتسامة عريضة كان إيميل متأكدًا من أن الأفارقة وحدهم قادرون على فعلها، كانت ابتسامة سخية تهيمن على ملامح الوجه، وتحوِّلها إلى معالم كاريكاتورية.

سأل الرجل:
- هل تؤمن بأن ذلك ممكن التحقق؟
بقي إيميل منتظرًا سماع كلمة «سيدي» التي لم ينطقها قط، فتأخرت إجاباته نوعًا ما.
- هل أؤمن بتحقق ماذا؟
- أن دولتنا هذه يمكن أن تديرها حكومة متعددة الأعراق.
- بصراحة، لم أفكر كثيرًا في هذا الشيء... لكنني أعتقد أنه في الوقت المناسب... نعم... يمكن الوصول إلى حكومة متعددة الأعراق.
- في الوقت المناسب... دائمًا... في الوقت المناسب.
قال الرجل الإفريقي وأطلق ابتسامته العريضة مجددًا، حدَّق إلى إيميل مطولًا لدرجة غير مريحة قبل أن يسأله: - هل شاركت في الحرب؟
- لا، لم يكن عمري مناسبًا للمشاركة.
قال الرجل الإفريقي:
- حسنًا، لقد شاركتُ فيها، حاربتُ لحماية مصالح الإمبراطورية البريطانية.
لم تعد الابتسامة العريضة مفاجئة لإيميل.
- علمتني تلك الحرب درسًا قيمًا جدًّا.
- ما هو؟
- ينبغي أن يعرف كل رجل قيمة ما يحارب لأجله.
خاب أمل إيميل، كان يرجو أن يكون الدرس القيم جديدًا عليه. قاطع كورتني المحادثة: - أستميحكما عذرًا، أعتذر على مقاطعة حديثكما الخاص، لكننا مضطران إلى المغادرة الآن.
أثبتت أول حواراته الهادفة مع إفريقي أنها مخيبة للآمال، ومعاكسة للمناخ، ولم يمانع إيميل مقاطعتها عبر كورتني.
أوضح كورتني في أثناء خروجهما من الباب الأمامي: - وصلت ماريون.
من هي ماريون، تساءل إيميل وهو يتبع كورتني بعيدًا خارج حدود جنتلمانز كلوب المضاء جيدًا، نحو الشارع ذي الإنارة الخافتة.
بمجرد وصوله إلى العتمة، أعاد إيميل وضع قبعة رعاة البقر وتثبيتها على رأسه، عندئذ رآها، إنها هي... إنها هي... أحدثت انطباعًا بأنها خُلقت لهذه اللحظة بالتحديد، حيث وقفت هناك تدخن سيجارة، وتتكئ بأناقة على سيارة إستر قديمة الطراز.
بدت جريئة مع فستانها الأحمر، ووشاحها الأحمر، وقفازيها الأحمرين، وحذائها الأحمر، وشفتيها الحمراوين.
حتى من دون الوشاح الأزرق والأبيض، كان إيميل شبه واثق من أنها هي، روضت تصفيفة الشعر شعرها البني والذهبي المجعد والمشاكس، ومع ذلك...

كان إيميل يحاول العثور على طريقة مهذبة ليتخلص من رفقة كورتني، ويتجه نحوها، عندما صاح كورتني
- آه، ها هي ذي.
وقاد إيميل نحو المرأة.
لا... مستحيل أن تكون...
- إيميل، أعرِّفك بزوجتي، ماريون هارتلي. ماريون، هذا إيميل كويتزي، إنه الصديق الذي أخبرتك عنه من مدرسة سيلوس للبنين.
لا يذكر إيميل أنه تخيل صورة زوجة كورتني: حتى وإن فعل، من المؤكد أنها لن تبدو هكذا في خياله، لم يستطع إلقاء اللوم على كورتني هذه المرة لأنه أغفل التفاصيل، بعد كل شيء، قال إن زوجته جميلة، افترض إيميل أن الجمال الذي يعنيه كورتني هو من النوع الحلو، والممتلئ قليلًا مع بعض الإثارة، ذلك النوع من الجمال، وليس هذه الهالة من الفتنة التي تقف أمامه الآن.
رمت ماريون سيجارتها على الأرض، وداستها بقدمها، ونفخت الدخان على وجه إيميل وهي تمد يدها اليمنى ذات القفاز الأحمر للتحية، بدت كل تصرفاتها مثيرة... جذابة... كما لو أنها تقصد شيئًا آخر. قالت ماريون بصوت مبحوح مع ابتسامة: - ساحر، أنا متأكدة من ذلك.
لم يكن لديه أدنى فكرة عما سيقوله، أو كيف سيقوله، على الأقل حافظ على ما تبقى من رشده ليصافح يدها.
لم تُبعد عينيها عنه قط، ولا حتى عندما عرضت خدها ليقبِّلها كورتني، هل كانت تحاول تذكُّر المكان الذي التقيا فيه من قبل؟
عندما ابتسم لها إيميل، باحت له الرقصات الناعمة في تلألُئ عينيها الزرقاوين أنها ليست محصنة تمامًا ضد غمازتيه.
وحده الله كان يعرف ما تلعثمت به شفتاه عندما سحبت يدها فجأة من يده، والتفتت إلى كورتني لتقول: - سنتأخر، وهو ما لا نستطيع تحمل عُقباه، بتعبير أكثر دقة، لن أستطيع أنا تحمل عواقب التأخير، والدتك وأخواتك يكرهنني بما فيه الكفاية، أنت تعلم أنني أدعوهن دائمًا إلى تناول الشاي كل ثلاثاء في هادون آند سلاي تي رومز، وهن لا يقبلن ذلك أبدًا، يمكنهن تحمل وجودي فقط عندما تكون حاضرًا.
قال كورتني وهو يتجه نحو جانب الراكب من السيارة: - إنهن لا يكرهنكِ، ما زلن يحاولن أن يتعودن وجود امرأة أخرى في حياتي.
قالت وهي تدير ظهرها إلى إيميل، وتجلس في السيارة دون أن تنظر إليه: - الأمر سيان.
قبل أن يغمس رأسه في السيارة، قال كورتني: - أريد أن أعرف رأيك بكابريكورن أفريكا سوسايتي والخطاب.

قالت ماريون قبل أن تشغل محرك السيارة:
- أتساءل عن مدى التقدم الذي يمكن أن تحققه مجموعة تعقد أول اجتماعاتها في جنتلمانز كلوب، الأمر كله مدعاة للسخرية، إن لم يكن مأسويًّا بشكل رهيب.
انطلقا بعيدًا، وقد لوح كورتني بيده مودعًا عبر النافذة، لم تُعر ماريون أي اهتمام لوجود إيميل، وسرعان ما أحيلت هذه التجربة إلى الذاكرة.
لقد كانت هي، أليس كذلك؟ لم تعد عيناها بالاخضرار الذي يتذكره، لكنهما كانتا رماديتين في السابق، وبالتالي، لم تكن قدرتهما على التغير شيئًا غير متوقع، كانت أكثر تعقيدًا واعتدادًا بنفسها، عندئذ تذكرها وهي في الرابعة عشرة من عمرها، عندما رفعت ذقنها بإصرار، وأبرزت ملامح خصرها في وشاح أزرق وأبيض، وأدرك أنها ربما كانت تتمتع دائمًا بهذه الصفات التي أصبحت أكثر وضوحًا الآن، كانت هي... يجب أن تكون هي، امتازت بشيء خاص في تقاسيم أنفها، واكتناز شفتيها، لم تمتلك أي امرأة أخرى القدرة على اقتحام حديثه ومنطقه لتحوِّله إلى حيوان غبي أبكم يعجز إلا عن إصدار أصوات مبهمة.
لفترة طويلة بعد ذلك الاجتماع، اعتاد إيميل السير في شوارع سيتي أوف كينجز المألوفة، مستمتعًا بهواء الليل البارد، كان مشواره جيدًا، لكن، وقبل أن يصعد الدرج نحو شقة والديه في برينسز مانشنز، أدرك إيميل أن أحاسيسه ستبقى مضطربة حتى رآها مجددًا.

الفصل الثاني عشر

كانت النساء أكثر التخصصات التي يجيد إيميل التعامل معها، أدرك أن ماريون هارتلي أشارت إلى عادتها تناول الشاي في هادون آند سلاي تي رومز أيام الثلاثاء، لأنها أرادت إخباره هو بهذه العادة.

استذكر لقاءهما مرات كافيةً في ذهنه ليعرف أن نظرات عينيها كانتا خاليتين من التعابير، حاول –فاشلًا– الوصول إلى قناعةٍ تامة بأن ماريون تذكرته، وأرادت لقاءه بعيدًا عن كورتني، لذلك عندما قرر الذهاب إلى هادون آند سلاي تي رومز بعد ظهر يوم الثلاثاء، أقر بأن مبرراته غير شريفة، كان عليه أن يقبل بهذا الرضا... المزعج... عن كورتني، ما يوضح أسباب قيامه بما فعله بعد ذلك.

وصل إيميل إلى هادون آند سلاي تي رومز، فوجد ماريون جالسةً بمفردها على طاولة لشخصين، بالتأكيد لم تكن بانتظار والدة كورتني أو أخواته الستة! ربما كانت بانتظار شخصٍ ما، وربما كان هو ذلك الشخص المنتظَر، عندما رأت ماريون إيميل، رفعت حاجبها وابتسمت وهي تحتسي فنجان الشاي، فعرف إيميل أنها كانت تتوقع مجيئه.

كانت ترتدي فستانًا خوخي اللون بلا أكمام، مع وشاحٍ متطابق ينسدل عن رأسها وكتفيها، كان زيُّها بسيطًا وفي غاية الأناقة لدرجةٍ دفعت إيميل للخجل مما ارتداه: بنطال جينز تحت قميص أزرق فاتح، وعلى رأسه قبعة راعي البقر، ودون أن يدري ما ينبغي عليه فعله مشى نحوها وجلس أمامها، لم تتِح له أي فرصة للكلام، ودون أن تتفوه بكلمة، أعطته قطعة ورق بلون أزرق سماوي، وغادرَت مع تلك الابتسامة على وجهها.

تأمل إيميل جسدها بإعجاب وهي تغادر، أحبَّ رقبتها، وانحناءات خصرها وتقاسيم مشيتها، ألقى نظرة خاطفة على الورقة بين يديه، بخط جميل يميل نحو اليسار، قرأ العنوان: المنزل رقم 1. بايونير رود.

توجه نحو المنزل رقم 1. بايونير رود، فوجد ساحةً تضم حديقة، ومنزلًا جميلًا على الطراز الكولونيالي الهولندي، بدا وكأنه أكثر من مجرد منزل وسط الأراضي الزراعية، في هذا المنزل الكولونيالي الهولندي، شاهد توأمتان في منتصف العمر تجلسان –وحولهما عدد لا بأس به من الكتب عن الاشتراكية والشيوعية والماركسية– في غرفة معيشة واسعة ومكتظة بالعناصر والمفروشات، كانتا ترتديان فستانين متطابقين تمت خياطتهما من نفس قماش الستائر، ابتسمتا ترحيبًا به، لكنه لم يرتح لاتقاد الذكاء في عينيهما، فجلس على حافة الكرسي الذي عُرض عليه.

- أشك في أنه هنا ليكون في صحبتنا يا تيلدا.

- يا للأسف يا مارج، لا يمكن أن يكون هنا أيضًا لمصاحبة روبرت، لا بد وأنه هنا لمصاحبة ماريون اللطيفة.
- لقد تأخر حوالي عشرين عامًا بالنسبة إلينا، أليس كذلك يا تيلدا؟
- لست متأكدة يا مارج، ما زال عندي بعض الأمل، لا أمانع في التقاعد مع شاب كهذا.
لمعت عيناهما بالمرح والشيطنة وهما تتلاعبان به، ماذا لو كان الأمر برمته مجرد مزحة متقنة؟ هل يُعقل أن كورتني وماريون أوقعا به لإهانته؟ وقف إيميل، وكان على وشك وداع الأختين عندما سمع صوت سيارة تقف، عادت آماله فجأة، فعاد للجلوس.
دخلت ماريون إلى الغرفة بعد قليل من وصولها، لو لم يكن الوضع مريحًا، لما سمحَت باستمراره. قالت وهي تقبِّل خدَّي الأختين:
- تيلدا، مارج، إيميل هو أحد أصدقاء كورتني.
قالت ماريون كلماتها وهي تقف بجانبه، ركزت على هذا التفصيل بالذات كما لو أنه ضروري، ووضحت الأمر للأختين اللتين هزتا رأسيهما دلالة على الفهم.
يبدو أن إيميل وحده كان يجهل حقيقة ما يجري، عندما ذهب إلى هادون آند سلاي تي رومز في وقت سابق من النهار، اعتقدَ أنه سيد أفعاله، والمسيطر على من هم حوله، لكنه يشعر بالسذاجة الآن، كما لو أنه تورط في شيء لن ينتهي، ضمن عالم أكبر منه.
ابتعدت ماريون فتبِعها، ليس لأنه يدرك ما يفعل، بل لأنه لم يدرِ ما يفعله غير ذلك، قادته نحو ما اتضح أنها غرفة نوم في الجانب الخلفي من المنزل، فاضت الغرفة بألوان الباستيل، مشت ماريون نحو سرير أبيض عريض بأربعة قوائم، وبكل أناقة، لفَّت وشاحها من الشيفون بلون الخوخ حول أحد الأعمدة، فتذكَّر حينها فقط السبب الذي دفعه للسعي وراءها منذ البداية.
التفتت إليه، وابتسمت، وبدون حياء أو تردد أو خوف في أي من حركاتها، سارت واقتربت منه بما يكفي ليلمسها، ووقفت مترقبة ما سيأتي، فاحت منها روائح كاد أن يتذوقها إيميل بالفعل؛ الفانيليا وجوز الهند، وأريج استوائي حلوٌ وخطير.
هل يُعقل أن يتم الأمر بهذه السهولة؟ ألم يكن عليه مواجهة بعض الصعوبة قبل الوصول إلى ما كانا على وشك القيام به؟
حدقت إلى وجهه، ما زالت عيناها زرقاوين، وخاليتين من أي تعابير تشير إلى أنها تذكَّرته.
«قبل أربع سنوات، هل كنتِ عند الشاطئ في ديربان؟» أراد إيميل أن يسأل، لكنه قال كلمتين فقط:
- هل أنتِ...؟

لمع شيء خطير ومثير في عينيها، وانتقل الشرر إليه.
- هل أنا... ماذا؟
- هل أنت شيوعية؟
ما الذي خطر بباله ليطرح هذا السؤال.
ارتبكت ماريون قليلًا، قبل أن تميل برأسها نحو الخلف وتضحك بصوت ساحر أسر أحاسيسه كلها، اقترب أكثر منها حتى تلامس جسداهما.
- هل أنا شيوعية؟ لا أعرف... من الناحية السياسية الراهنة، أنا... منفتحة على الأفكار المقنِعة.
جف ريقه وهو يشاهد شفتيها تنطقان الكلمات، ثم فعل ما حلم به قبل أربع سنوات؛ دس وجهه في انحناء رقبتها الدافئة، وفعلت ما أرادها أن تقوم به قبل أربع سنوات: أدارت رأسها لتقبِّل أي جزء تمسه شفتاها من رأسه.
سمعها تقول:
- في هذه اللحظة بالذات، هل يهمك أن تعرف حقيقة من أكون؟
عند أول لقاء بين ثغريهما، أدرك أن حقيقتها غير مهمة أبدًا في تلك اللحظة.
مع غروب الشمس، تأمل إيميل بسعادة ماريون وهي ترتدي جوربيها، وتتحقق من ارتدائهما بشكل جيد. أصبحت رائحتها الاستوائية أكثر قوة وجاذبية، عندما مدت يدها لتأخذ السيجارة من فمه، كان مفتونًا وهو يرى شفتيها... تلك الشفتان الممتلئتان والمغريتان... تلتفان حول السيجارة، أحس إيميل بالإثارة من هذه الحركة، كان ذلك واضحًا على جسده، أصبح دورها الآن لتنظر إليه بتقدير، ضمته قليلًا بين يديها، وترددت بعض الوقت قبل أن تعيد له السيجارة وتقفز من السرير.
- يا لك من فحل!
قالت كلماتها وهي ترتدي الفستان.
- شرهٌ... ومعطاء بشكل مفاجئ... وحنون... ويكمن فيك شيء خطير. شيء لا أودُّ اختباره، غضب... غضب عميق.
توقفت عن تثبيت سوستة الفستان، ونظرت إليه بعينيها الزرقاوين.
- ما الذي يغضبك؟
لحسن حظه أنها لم تكن تنتظر إجابته.
- لا تقلق، سأدعك تحتفظ بأسرارك، وستتركني أحتفظ بأسراري أيضًا.
انتعلت حذاءها، وجلست على جانبه من السرير وظهرها باتجاهه، رفعت شعرها الرائع الذي تتموج فيه ألوان البني والذهبي، وقالت:
- من فضلك!
بينما انتظرَته ليرفع ما تبقى من سوستة الفستان.

فضل إيميل تقبيل رقبتها على الانصياع لما طلَبتْه، أطلقت ضحكة عميقة قبل أن تستدير نحوه، وضعت وجهه بين راحتيها وقبلته... وقبلته أكثر... وأكثر، في تلك اللحظة، أخذت منه ماريون شيئًا لم يكن ينوي تقديمه، فوجئ بمدى رغبته بإعطائه لها، وكيف انتزعته منه بكل سهولة.

بنفَس متقطع، وضعت جبهتها برفق وخفة على جبهته، قبل أن تختفي.

الفصل الثالث عشر

لم يكن إيميل ليلتقط الكتاب لو لم تمسسه ماريون، فعلَت ذلك بتشتت واضح وهي تحادث امرأة مسنة، لكنها لمسَته على أيِّ حال، راقبَها باهتمام، وانشغل بأصابعها التي سافرت على طول جسده تاركةً آثارها عليه، وهي تقلب صفحات الكتاب أمامه بذهن شارد.

اعتقد خاطئًا أن الوجود مع ماريون مرة واحدة سيشبع حاجته –سيكفيه لإحداث تأثير كبير في رضا كورتني– لكنه أصبح الآن توَّاقًا للوجود معها مرة ثانية... وثالثة... ورابعة، صاحبَتْهُ ذكرى ماريون عدة أسابيع بعد لقائهما، بالتأكيد لم تكن ماريون الوردة الخجولة ولا الزنبقة ذات الحياء ولا أي شيء مما يفترض بالنساء حسنات التربية الاتصاف به في غرفة النوم، كانت شعلة ملتهبة، واظب على استعادة ذكرى لقائهما حتى أصبح كعديمي النفع، حتى وجد نفسه في الطريق إلى هادون آند سلاي تي رومز ليومي ثلاثاء متتاليين، وحتى وجد نفسه غارقًا في حاجته إليها مع أكواب لا تنتهي من الويسكي، وحتى وجد نفسه في الطابق الثالث من فندق سيسيل وصوت يواسيه «لا تقلق يا عزيزي، تحدث هذه الأمور لأفضل الرجال».

أصبح عديمَ النفع لدرجة تخلى فيها عن كل حذره واعتزازه بنفسه، فحضر ثلاثة اجتماعات لكابريكورن أفريكا سوسايتي أملًا بلقائها وهي تنتظر كورتني في نهاية الاجتماع... أن يراها مرة أخرى... وتراه... وتشتهيه.

وكما هي عادته، كان كورتني يقرأ الموقف بدقة، وبينما كانت عينا إيميل تجوبان الشارع بحثًا عن سيارة إستر قديمة الطراز، قال كورتني:

- للأسف، ماريون ليست من المجرمين الذين يكررون فعلتهم.

بهذه البساطة، اكتشف إيميل أن كورتني يعرف بما جرى، وأن ماريون أخبرته بنفسها عن ذلك.

أمام تعابير الحيرة على وجه إيميل، ابتسم كورتني وقال:

- أنا وماريون متفقان.

ووسط غموض هذه الإجابة، تابع كورتني:

- زواجنا... مفتوح للآخرين، بمجرد لقائكما أدركت أن شيئًا كهذا قد يحصل، بدا ذلك واضحًا في الطريقة التي نظر فيها كل منكما للآخر، لماريون طريقتها الخاصة... و... حسنًا، شهيتك معروفة في هذه البلدة، بعض الأشياء طبيعية جدًّا بحيث لا تستدعي العراك لأجلها، حذرتها منك، كان ينبغي لي تحذيرك منها.

بعد توضيح المسألة، رفع كورتني كتفيه ليقول بأن هذه هي المسألة باختصار، لكن بالطبع، لم يكن الأمر بهذه السهولة.

كيف استطاعت فعل ذلك بالضبط؟ كيف أخبرَته؟ كانت الإجابة عن سؤال «لماذا» واضحة بما فيه الكفاية، أخبرَت كورتني لأن ما تَشاركاه لم يكن بالتميز الكافي لإبقائه سرًّا، أمرٌ منصف.

لكن، كيف فعلَت ذلك؟ هل دخلت إلى المنزل، وخلعت قفازيها، وقالت بلا مبالاة «كنت مع إيميل للتو»؟ أو على العشاء، طلبت تمرير الملح وتذكرت فجأة أن تخبره: «أوه، بالمناسبة، كنت مع إيميل»؟ أو هل كانت جالسة على حافة حوض الاستحمام تشاهده وهو يمتلئ بالمياه الساخنة ذات الرائحة العطرة، وبينما كانت يدها تداعب الرغوة، التفتت إلى كورتني وهو يحلق ذقنه أمام المرآة فوق المغسلة لتقول: «التقيت إيميل في وقت سابق»؟ أو هل انتظرت دخولهما إلى السرير، وبينما كانت تقرأ كتابًا قبل النوم، ودون أن تنظر إليه، أغلقت كتابها ومدت يدها نحو المصباح وقالت: «كنا أنا وإيميل معًا»؟

بغض النظر عن الطريقة، قالت ما ينبغي عليها قوله، وتركت حياتها تستمر بشكل طبيعي.

بعد كل ما جرى بينهما، كيف تحوَّل إلى شخص يسهل عليها نسيانه؟

كم يبدو فعلها قاسيًا ولئيمًا، ما الذي دفعها لإغرائه والحصول عليه، ومن ثم لفظِه؟

ضغط كورتني كتفَيْ إيميل لمواساته، ما الذي يدفع كورتني لمنحه هذا التعاطف دائمًا، تساءل إيميل وهو يبتعد عن لفتة المواساة هذه، ما السبب الذي يجعل هذا اللعين متفهمًا، بدلًا من أن يكون غاضبًا أو مجروحًا أو محبطًا؟ هل أخبرت ماريون كورتني أنه -هو إيميل- انتحب وصاح باسمها ثم بكى؟ هل حوَّلت لحظته العميقة والهامة تلك إلى شيء مثير للشفقة، شيء يستدعي رأفة كورتني؟

اقترب كورتني من إيميل مجددًا، ومجددًا ابتعد إيميل عن مجال لمساته، فقال كورتني:

- نحن نقيم حفلة خلال عطلة نهاية الأسبوع، نودُّ كلانا دعوتك إليها.

هكذا، وجد إيميل نفسه جالسًا في إحدى الزوايا محاولًا –دون جدوى– تجنب النظر إلى ماريون طوال الليل. عندما لم يكن يراقبها، كان يعيد مشاهد لقائهما تتلاحق معًا في ذهنه، مرارًا وتكرارًا.

تذكر الطعم الحلو لقُبلتها؛ تذكّر يديها تشدّان خصلات شعره؛ تذكّر نعومة جسدها.

كيف استطاعت مشاركته هذه العلاقة الحميمية، لتعود إلى حرم زواجها بكل سهولة؟

رأى إيميل ماريون وهي تضحك، وتقدم لكورتني كأس توم كولينز خاصته، بينما امتلأ قلبه بمشاعر الحسد التي كانت جديدة وغريبة بالنسبة إليه، ازدادت

تلك المشاعر عندما علِم –وبعد فوات الأوان– بأنه وصل معها إلى حد لا رجعة من بعده. لا أمل له في الخلاص.

حاول مواساة نفسه بتخفيف القوة التي كانت تمارسها عليه، راح يراقبها بموضوعية بعد أن فقد الأمل بوجوده معها مجددًا، لم يرها جميلة –على الأقل ليس بالمعنى التقليدي للكلمة وهو المعنى الوحيد الذي كان يفهمه قبل أن يتعرف عليها-، تلك العينان الزرقاوان المتلألئتان، وذلك الثغر الممتلئ كبرعم الورد، والكبير قياسًا بوجهها، تلك المسحة الزيتونية في بشرتها، والنمش المتناثر على أنفها وعظام وجنتيها، وذلك الشعر السميك المموج بلونيه البني والذهبي... هذه الأشياء لم تجعلها جميلة... لم تجعلها مليحة حتى... جعلتها فاتنة بشكل ساحر... حوَّلتها إلى إلهام خالص.

في هذه اللحظة، كانت ماريون مشغولة في حديثها مع سيدين، وتساءل إيميل إن كانت قد دخلت في علاقة معهما، إن كانت تعتبرهما جرائم لن تكررها أيضًا.

كما لو أنها قرأت أفكاره، فنظرت إليه للمرة الأولى في هذه الأمسية، ولمست بلطفٍ مرفَق أحدهما كما لو أنها تخبر إيميل «هذا هو الشخص، انظر كيف أواصل الحديث معه، فهو ما زال يمتلك شيئًا مثيرًا لاهتمامي، خلافًا لك».

ابتسمَت له بعدئذ بنفس الفم الذي التهمه سابقًا. شاهد إحدى شفتيها تطلقان ابتسامة شريرة.

لم يختبر إيميل مثل هذا الكم المتناقض من المشاعر دفعة واحدة، لم يتحمل فكرة أن تثيره ماريون وتحبطه بنفس القدر، حقيقتها التي لا يعرف ما يفعل بها.

همس أحد الرجال في أذن ماريون، فضحكت وهي ما تزال تنظر إلى إيميل، أقنع إيميل نفسه بأنهما كانا يسخران منه، وأن ماريون لم تكن فتاة خياله، بالتأكيد لن تعذبه بهذا الشكل تلك الشابة التي صادفها على شاطئ ديربان، وقالت له حينها «اليوم جميل جدًّا، أليس كذلك؟» لم تكن لتبذل قصارى جهدها لتتأكد من تدمير ما تبقى من أيامه، لم تكن ماريون تلك الفتاة بالتأكيد. لقد أخطأ، وهو يدرك ذلك الآن بعد فوات الأوان.

نهض إيميل فجأة ليغادر، حين بدأ أحدهم بالطرق على طرف كوب زجاجي، انتهى الهرج والمرج في الغرفة تدريجيًّا، وتحوَّل كل الاهتمام باتجاه كورتني. بدأ كورتني حديثه:

- عائلتي... أصدقائي، قبل أربعة أعوام من اليوم ابتسم لي الحظ عندما تهت في متاهة حرم جامعة ويتس، وطلبتُ من هذا المخلوق الرائع إرشادي إلى الطريق.

أشار كورتني إلى ماريون التي تركت السيدين وانضمت إليه.

- من الواضح أنها لم تثق في قدرتي على إيجاد الطريق وحدي، لأنها ما زالت هنا بجانبي منذ ذلك الحين.

صدحت ضحكات لطيفة على هذه الفكاهة.

- منذ عامين، ذهبنا معًا إلى كنيسة... وتزوجنا... ومنذ ذلك الحين إلى اليوم، أنا أسعد رجل على وجه الأرض.

تفاجأ إيميل الذي وجد نفسه ضيفًا في حفل الذكرى السنوية لزواج كورتني وماريون، ما الذي يجعل كورتني يغفل دائمًا عن ذكر أهم التفاصيل؟

تساءل إيميل ما هي اللعبة التي كان يلعبها كورتني وماريون، ولماذا قررا جعله جزءًا منها؟ إن كانا يحبان بعضهما لهذه الدرجة، فلم يفتحان زواجهما لأشخاص آخرين؟

لم يكن إيميل مضطرًّا إلى البقاء، وبدأ يتجه نحو الخارج بالفعل عندما شاهد ماريون وهي تمسح بخفة خصلة الشعر التي لطالما وجدت طريقها إلى جبين كورتني، في تلك اللحظة، كانت تلك الحركة البسيطة أكثر الأشياء التي رآها إيميل روعة على الإطلاق.

لم يكن إيميل مضطرًّا إلى النظر إلى عينَيْ ماريون ليدرك أنها تركز على كورتني بكل محبة، ولكنه نظر على أي حال لتبقى هذه الصورة راسخة في عقله حتى المنزل، كان وجهها مشرقًا وهي تنظر إلى زوجها، في تلك اللحظة، لم تعد ماريون ذلك اللغز الذي فشلت جهود إيميل الحثيثة لفك أسراره، كانت مجرد امرأة متزوجة تحب زوجها، وضع طبيعي جدًّا.

بينما كان إيميل يهم بالخروج من المنزل، التقط الكتاب الذي لمسته ماريون، وعندما وضع يده على مقبض الباب سمع أنغام «سكوكيان» تصدح من ترومبيت لويس آرمسترونج عبر غراموفون هيز ماسترز فويس الموجود في غرفة معيشة كورتني وماريون، تردد إيميل وهو يستمع إلى اللحن، تذكَّر... السعادة، متى كانت آخر مرة أحس فيها بتلك السعادة؟ هل كانت في البلدة الاستعمارية التابعة لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية وهو يشاهد والديه يرقصان؟ لا، لم تكن هي، لا بد وأنها ذكرى سعادة أخرى باتت طي النسيان.

الفصل الرابع عشر

لم يكتشف إيميل أن هذا الكتاب لمؤلف أسود البشرة إلا بعد خمس صفحات، شعر بالحيرة والارتباك، فأغلق الكتاب.

تجربته الموجزة مع الكتاب كانت كافية لاستحضار ذكرى كورتني سميث سينكلير وماريون هارتلي، كل ما يعرفه عنهما –منظمة كابريكورن أفريكا سوسايتي متعددة الأعراق، وكر الخطيئة والظلم الذي تديره الشقيقتان الشيوعيتان، الزواج المفتوح، والكتب التي ألفها زنوج– يوضح أسباب قرارهما بأن يكونا زوجين عصريين، بكل ما لهذا الوصف من معنى.

دفعت الحرب إيميل لتفهُّم ضرورة التغيير، على أن يتم بوتيرة ثابتة، وفي المقابل، أحس باندفاع كورتني وماريون لاستعجال الأمور وتقريب المستقبل، ولدت حداثتهما ليبرالية تسعى إلى تحقيق الكثير في وقت قصير جدًّا، ما سيُحدِث آثارًا مدمرة إذا تُركت الأمور على عواهنها، تفاجأ إيميل بتفكيره في مثل هذه الأشياء، ليس ذلك وحسب، بل وأنه بدأ بتكوين رأي حولها! بعد تفكير متروٍّ، شعَرَ بضرورة الابتعاد عن كورتني وماريون لأنهما بدآ التأثير فعليًّا على تفكيره، حتى ولو كان ذلك عبر إبداء خلافه معهما.

بعد مضيِّ أسبوعين على ذكراهما السنوية، وبينما كان مستلقيًا على السرير في منزل والديه ريثما يتخلص من آثار الخمور التي شربها في الليلة السابقة مع راذرفورد وداعًا لسيتي أوف كينجز قبل أن يبدأ عمله مع وزارة شؤون السكان الأصليين، أيقظتْه والدته وأشارت بأن شخصًا ما يريده على الهاتف، أشار إليها بأنه قادم، ونهض ببطء عن السرير.

بدأ والداه باستخدام لغة إشارة معقدة من ابتكارهما، وقد بذل إيميل جهدًا في تعلمها ليتمكن ثلاثتهما من التواصل مرة أخرى.

- مرحبًا؟

قال إيميل بصوت أجش، وهو يتوقع أن يكون راذرفورد على الطرف الآخر من الهاتف.

- إيميل؟ أنا ماريون.

لم تكن مضطرة إلى ذكر اسمها، فقد ميَّز بحة صوتها بدقة، واستفاق من سكْرتِه على الفور.

سألته بصوت بدا متفائلًا نوعًا ما:

- إذًا، هل قرأتَه؟

- قرأتُ ماذا؟

- النهوض من العبودية[39]... رأيتك تأخذه.

بالطبع، كان الكتاب سبب اتصالها.
- لقد بدأتُ...
- أكمِله لو سمحت، أودُّ أن أعرف رأيك به.
فاجأه ذلك، لماذا تريد أن تعرف رأيه؟ ما الذي يهمها في رأيه؟ ألم ترَه وتعتبره «فحلًا» بكل بساطة؟
- أحاول إقناع... حسنًا... لا يهم حقًّا ما أحاول القيام به... المهم أنك ستكون موجودًا هناك، ستكون هناك، أليس كذلك؟
- أين؟
- منزلنا... بعد أسبوعين... قل إنك ستأتي... أرجوك.
- أنا...
- ممتاز، سنراك عندئذ، إلى اللقاء إيميل.
أغلق إيميل سماعة الهاتف في حالة ارتباك تامة، كان شبه متأكد من أنه لم يكن وحيدًا في هذا الارتباك.
مما استطاع فهمه، ينتظر ماريون وكورتني زيارته لهما في غضون أسبوعين لمناقشة كتاب النهوض من العبودية، كاد أن يضحك من الفكرة، لكن بالطبع هذا ما يفعلانه بشهاداتهما الجامعية: كانا يدعوان الناس لمناقشة الكتب، بدا الأمر طبيعيًّا تمامًا بالنسبة إليهما، طبيعي جدًّا في الواقع لدرجة تدفعهما للاعتقاد بأنه سيلبي دعوتهما.
على الرغم من توضيب الكتاب في حقيبةٍ مع بقية الأشياء التي سيأخذها معه إلى وزارة شؤون السكان الأصليين، عرف إيميل أنه لن يلبي الدعوة، الأرجح أنه أخذه ليحُول دون اكتشاف والديه للكتاب في غرفته، فما هي الإشارات التي سيتبادلانها للتعبير عن وجود مثل هذا الكتاب الذي ألّفه رجل أسود البشرة في منزلهما؟
لم يُدرك إيميل مدى افتقاده الحقيقي إياها إلى أن توغل بين أحضانها، السافانا المألوفة، والمعروفة، والمعشوقة، وموطن الانتماء، نظر إلى ظله الأسود المُلقى على الطريق الترابية ذهبية اللون، مد يده ولامس أعشاب الفيل المترنمة التي كانت بمثل لون شعره، أغمض عينيه وتنفس بعمق في البراح الإفريقي وكاد يُبكيه الشوق.
لم يكن الحب وحده دافع إيميل للعودة إلى السافانا؛ عاد ليساهم في تحويلها. بعد الحرب العالمية الثانية، بذلت الحكومة جهودًا حازمة لاستقطاب الأوروبيين، ولا سيما البريطانيين، وتوطينهم في مستعمرة، وليزداد العرض جاذبية، وعدت الحكومة المستوطنين المحتملين باقتطاع مساحاتٍ واسعة من الأراضي لاستخدامها في الزراعة لأغراض تجارية، كانت الحكومة مقتنعة أن هذا النوع من الزراعة سيصبح مستقبل البلاد، ومحرك عجلة ازدهارها بعد

الحرب، وتحقيقًا لرؤية الحكومة، كان لا بد من إبعاد الأفارقة عن أراضيهم الصالحة للزراعة، وترحيلهم إلى أراضٍ قاحلة يفضَّل ألَّا تكون قابلة للازدهار، فعملهم مطلوب في المزارع والصناعات والمناجم التي ستقام اعتمادًا على ثروات الدولة، وبالنتيجة، ينبغي أن لا تكون أراضي إعادة توطين الأفارقة واسعة، مع الحرص على التخلص من مواشيهم وذبحها، وهنا يأتي دور إيميل، فوظيفته هي التجول في الأراضي العشبية بحثًا عن أراضٍ تصلح لإعادة التوطين، ومع مساعديه من السكان الأصليين، كان يقسِّم الأرض إلى حصص، ويحدد الحجم المسموح به من الماشية في كل حصة.

عمل إيميل جيدًا مع مساعديه من السكان الأصليين، وكانت أيامه مشغولة باستكشاف الأراضي -قسمه المفضل من العمل- وكتابة التقارير -الجزء الأقل تفضيلًا-. في المقابل، كانت لياليه فارغة بشكل مخيف، ولم يجد ضيرًا في قراءة كتاب النهوض من العبودية، عندما فرغ من قراءته اكتشف أن ذلك تم في غضون الأسبوعين اللذين تحدثت عنهما ماريون، فلم ير مانعًا من زيارتها وكورتني لقضاء أمسية.

أغلق الكتاب، ونظر مطولًا إلى صورة المؤلف على الغلاف الخلفي كما لو أنه يحاول التركيز لاستكشاف عيبٍ خفي، بوكر تي. واشنطن[40]. ما الذي سيقوله ماستر دوثي لو أنه رآني الآن؛ فكر إيميل في ذلك مبتسمًا.

السؤال الحقيقي، والسؤال المهم، كان ما الذي ينبغي عليه قوله؟ ما هو رأيه في الكتاب؟ كان متأكدًا من فضول كورتني وماريون لمعرفة أفكاره ورأيه حول هذا الموضوع، ولهذا قرر إيميل أن الاستعداد هو الحل الأفضل، فبدأ بصياغة رأيه الخاص. أحَبَّ فكرة واشنطن حول تعليم الأعراق المختلفة لأغراض مختلفة. بصراحة، شعر أن منهجية التعليم هذه في تنشئة المواطنين ستحد من الارتباك، وتحدد وظيفة معروفة لكل عرق بما يحقق إدارة سلسة وفعالة للمستعمرة، كان إيميل فخورًا بمدى فصاحة رأيه، وتحلى ببعض الثقة وهو يغادر باتجاه منزل كورتني وماريون.

- لكن هذا بالضبط هو ما تقدمه دولتنا للإفريقيين، والملونين والآسيويين.

- العقول الإفريقية والملونة...

- آآه... أرجوك! لا تعد إلى ذلك مجددًا، هذه مغالطة نكذب بها على أنفسنا منذ فترة طويلة جدًّا، نحن فقط نريد الأفضل لأنفسنا، ولا نريد المنافسة.

- لكنك بالتأكيد لا تقصد الإشارة إلى أن العقل الإفريقي متطور...

- أنا لا أفترض أي شيء، أنا أقول حقيقة، والأدلة موجودة في كل مكان حولنا.

- لا أعرف أين تعيش، لكن الدلائل حولي تبين أن العقل الإفريقي بدائي.

- أعتقد بأنك تخلط بين زنوجٍ من أمثال السيد واشنطن، والإفريقيين هنا، السيد واشنطن رجلٌ متحضرٌ لأن الزنوج في أمريكا الشمالية على اتصال

مباشر بالحضارة الغربية.
- كواحد من العبيد! كواحد من الرق! كواحد من الممتلكات!
- الحضارة الغربية هناك تمتد لأكثر من أربعمائة عام، فيما لا تزال الحضارة هنا تدب خطواتها الأولى بالنسبة إلى الإفريقيين.
- لست أدري من أين أبدأ لأوضح الخطأ الذي أنت فيه؟
- أنا على حق، فلا تزعج نفسك.
- ومع ذلك، مجددًا، لقد انحرفنا بشكل مؤسف عن صُلب الموضوع.
- نحن بحاجة إلى حكومة يقودها أهل الكفاءة، وسيفضح هذا النوع من الحكم أكذوبة تفوق العرق الأبيض.
- المسألة بالنسبة إلى واشنطن ليست قضية عِرقية بالتأكيد، على الأقل ليس بالطريقة التي نتحدث عنها، النهضة العنصرية هي قضيته، هو يعرف مسبقًا مقدرات الزنوج، وتكمن مخاوفه في مكان آخر، كيف تنهض بالأشخاص الذين كانوا عبيدًا ورقيقًا وممتلكات لتحوِّلهم إلى أفراد ذوي قيمة وجدوى اقتصادية عملية بما يصب في مصلحتهم؟ كيف تجعل هؤلاء الناس يعطون أنفسهم حق قدرها؟ التعليم هو الحل الذي يطرحه واشنطن في سبيل تحوُّلهم إلى جزء أساسي من إدارة البلاد.
- لكنهم كانوا دائمًا جزءًا أساسيًّا من إدارة البلاد.
حضر الاجتماع ستة أشخاص هم كورتني وماريون، وثلاثة رجال وامرأة، كان مستوى حديثهم أعلى من حدود استيعابه، إلا أنه كان معجبًا بمدى شغفهم بالموضوع، كانوا يتجادلون ويعبِّرون عن إحباطهم دون أن يصل بهم الأمر إلى الغضب، لم يرَ أشخاصًا يتجادلون بمثل هذه الطريقة من قبل، ولم يسمَع أحدًا يتطرق للمسائل التي تحدثوا عنها من قبل، متى وجدوا الوقت الكافي للتفكير في كل هذه الأشياء؟ كيف وصلوا إلى تلك الدرجة من الإيمان بالفكرة، فكرة المشاركة مع ذوي البشرة السوداء؟
وجه كورتني السؤال إليه وهو يناوله كأس الويسكي:
- ما رأيك؟
لم يكوِّن إيميل أيَّ صورة واضحة عن رأيه، اعتقدَ أن فكرة واشنطن بضرورة إقامة مدارس فنية أمرٌ منطقي عندما رآه في عينَيْ واشنطن، لكن... الآن... وبعد هذه النقاشات التي سمعها للتو... لم يعد متأكدًا مما إذا كانت هذه الطريقة الوحيدة لرؤية الأمور.
لم يُخضع إيميل أيًّا مما تعلمه للاستجواب من قبل، طوال فترة تعلمه، كان – وبكل بساطة– يقبَل ويجتر كل ما يدرسه، حتى في صف ماستر آرتشي، وعلى الرغم من تشجيع النقاش والآراء المتباينة، فإن عددًا قليلًا فقط من الإجابات كانت تعتبر صحيحة في الامتحان.

ستة أزواج من العيون تسمرت باتجاهه. قال موجهًا حديثه إلى كورتني:
- لا رأي لي في هذا الموضوع.
كان عازمًا على تجنب النظر إلى ماريون لأنه لم يرد أن يرى ردود فعلها على كلماته.
أحس إيميل بخيبة أمل الحاضرين، لطالما كانوا -هم- يعرفون بالضبط رأيهم في أيِّ موضوع، وكانوا على أتم الاستعداد للإدلاء به عند الحاجة، كانوا يقرؤون الكتب، ويختلفون مع الكاتب حيثما لزم الأمر، لم يفعل إيميل هذا مطلقًا، وحتى موعد هذا الاجتماع، لم يكن يعرف بإمكانية القيام بهذا الأمر، هل يمكن أن تتعارض آراؤك مع أعمال سيلوس وهاجارد وبوروس وكيبلينج وكونراد؟ ألّا تكون معجبًا بهم هذا طبيعي، ولكن كيف للمرء أن يختلف معهم في الرأي؟
قالت ماريون في محاولة لإنقاذه من مأزقه بطريقة غير مباشرة:
- ارتاد إيميل المدرسة مع إفريقيين، يمكنه التحدث عن قدراتهم وكفاءاتهم العقلية.
لم يشعر بالنجاة، وإنما الخيانة، أسرَّ إلى كورتني بموضوع المدرسة الحكومية الخاصة بالسكان المحليين عندما كانا فتية معًا في مدرسة سيلوس للبنين، لقد كان سر إيميل، لو اكتشفه أيٌّ من الفتية آنذاك، لتعرض لمضايقات باعتباره «أخو الكافر[41]». طوال تلك السنين، لم يفكر إيميل في المرحلة التي ارتاد فيها المدرسة الحكومية الخاصة بالسكان المحليين، لكنه شعر -على أي حال- بخجل عميق لأنه تلقى مثل هذا التعليم في يوم من الأيام، وها هي ماريون الآن تضفي على التجربة أهمية لم يشعر بها قط من قبل.
هل يخفي أيٌّ من كورتني وماريون أسرارًا عن بعضهما؟ ألا توجد بينهما أسرارٌ على الإطلاق؟
«لا تقلق، سأحفظ أسرارك، وستحفظ أسراري» هذا ما قالته ماريون في المنزل رقم 1. بايونير رود. ما الذي كانت تقصده بذلك؟ ما هي الأسرار التي كانت تعرفها عنه مسبقًا؟ وماذا تعرف عنه أيضًا؟
تملكت إيميل رغبة مفاجئة في أن يبتعد عن هذا المكان، وأن يكون بعيدًا عن متناول أيِّ شيء آخر تعرفه ماريون عنه، كان بحاجة إلى وضع مسافة تفصله عن هؤلاء الناس وآرائهم التي حددوها مسبقًا، نهض على عجلٍ فترنَّح الكرسي من عجَلَته.
- أستميحكم عذرًا... لديَّ ارتباط آخر للأسف.
ودَّعَته بعض الابتسامات المهذبة وهو يخرج من الغرفة.
لم يكن ينتمي إلى هنا، ما الذي جعله يعتقد بضرورة حضوره؟
رافقتْه ماريون إلى الممر بينما كان يرتدي سترته، قالت بنبرة منمقة، وهي تقدم له قبعة رعاة البقر خاصته:

- لم تجد في اجتماعنا ما يسرك، أليس كذلك؟ أخشى أننا قد نصبح متوحشين في بعض الأحيان.

وضعت لمساتها على ياقته في إشارة أثارت دهشة إيميل، تلك الرقة، والاهتمام، ذلك القرب، وحميمية اللمسة.

ابتسمت له:

- لا تكترثْ بنا، نحن مجرد مثقفين محبَطين ومغرمين بسماع أصواتنا إلى حدٍّ مثير للشفقة، أرجو أن تنضم إلينا في المرة المقبلة، وسنتصرف بشكل أفضل، أو على الأقل سنحاول ذلك.

ما الذي أرادته منه؟ أفعالها زادت من حيرته وارتباكه.

ألم تعرف ذلك؟

أو أنها تعرف ذلك؟ هل كانت تتلاعب به بطريقة أو بأخرى؟ هل ستعود إلى مثقفيها المحبَطين فرِحةً بالحالة التي تركتْه عليها، وتطلق بعض الدعابات عن حشرة قَرادة؟

ابتعدت فجأة عنه لتبحث عن شيء ما، عثرَت عليه وقدمته له، كان كتابًا آخر.

لمسته بلطف على مرفقه وقالت:

- أرجو أن تأتي مرة أخرى، أعدك بأن اجتماعاتنا قد تُسعدك جدًّا.

راقب فمها –ذلك البرعم الجميل– والكلمات تخرج منه، وأراد تقبيله، لكنه عرف أن قدرته على ذلك ولت إلى غير رجعة، لا بد وأن ماريون قد وجدت استخدامًا آخر له، ولم يكن متأكدًا منه.

كان الكتاب الجديد لرجل آخر ببشرة سوداء، دبليو. إي. بي. دي بويز[42]. هل تقتصر قراءاتها على الكتب التي يؤلفها رجال سود البشرة؟

بذل إيميل جهودًا حثيثة لقراءة الكتاب الذي حمل عنوان أرواح الشعب الأسود، كانت اللغة جميلة، ولكن المحتوى كان بعيدًا عن مستوى إدراك إيميل، تاه في الصورة المجازية للحجاب، ولم يستطع تخطيها.

أدرك إيميل أنه لن يعود أبدًا إلى اجتماعات كورتني وماريون، لم يكن من الرجال الذين يخوضون نقاشات فكرية، كان من الرجال الذين يحبون الوحدة في منازلهم مع أفكار باتساع البراح الإفريقي، بالنسبة إلى ماريون وللحظة وجيزة، حاول ربما أن يكون شيئًا مختلفًا، أو شخصًا آخر، لكنه الرجل الذي تمت قولبته منذ زمن بعيد عبر صفحات إتش رايدر هاجارد: «أنا إيميل كويتزي من ديربان، ناتال يا سيد...»

لم تكن ماريون مذنِبة، هي ببساطة أخطأت في تفسير سبب أخذه لكتاب النهوض من العبودية، واعتقدت بأنه مهتم بالموضوع نفسه، كدليل على شيء ربما تدعوه «الفضول الفكري»، في حين كان جل اهتمامه بالكتاب رغبةً منه في التقرب منها.

أرسل إيميل كتاب أرواح الشعب الأسود إلى ماريون بالبريد مع ملاحظة يعربُ فيها عن شكره واعتذاره عن حضور أي اجتماعات أخرى، فوظيفته في وزارة شؤون السكان الأصليين أصبحت تتطلب منه التزامًا أكبر مما تخيله، وستكون رحلاته إلى سيتي أوف كينجز قليلة جدًّا.

ردَّا على رسالته، وردتْه ملاحظة مكتوبة على نفس ورق الملاحظات ذي اللون الأزرق السماوي، وبنفس الخط الرائع والمائل نحو اليسار والذي كُتِب فيه العنوان المنزل رقم 1. بايونير رود؛ ونصها:

«في العقل حوضٌ تطوف فيه الكلمات حول فكرة، والفكرة حول صوتٍ ورؤية، ومن ثم يأتي عُمقٌ لا تمسه الكلمات، وفجوة مشاعرَ خَرِبةٍ أعمق لا تمسها الأفكار».

– زورا نيل هيرستون.

دقق إيميل في ورقة الملاحظة لفترة طويلة، ودرس كافة انحناءاتها وانحرافاتها وخطوطها قبل أن يضعها –وبكل عناية– في جزدانه الصغير بجوار ورقة العنوان الأولى، أغلق محفظته، وضحك متسائلًا عما إذا كانت زورا نيل هيرستون هذه مؤلفة أخرى ببشرة سوداء.

لم يستطع إيميل تحديد سبب واضح لتعلقه بماريون، ولم يمتلك الجرأة على تركها، لم تسعفه المسافة أو الزمن بتوضيح حقيقتها، وأصبحت أكثر تعقيدًا بشكل مثير للفضول، كانت حياته بسيطة، فهو رجل يستمتع ببعض الملذات، ويناور في طريقه في الحياة والعالم بحثًا عن هذه الملذات، لم يطلب من العالم أيَّ شيء سوى السماح له بأن يكون جزءًا من السافانا.

طرحت ماريون أسئلة عن العالم، وعندما لم يستطع العالم تزويدها بالإجابات، بدت مستعدة لتغييره.

إيميل وماريون كانا مختلفين تمامًا لدرجة يُستغرب معها وجود انجذاب بينهما على الإطلاق، لكن ومنذ البداية، جذبها شيء ما إليه وثبتته بقوة في دائرة نفوذها، الأفضل هو تعريف الشيء باسمه الصحيح، بعد رؤيتها بضع مرات فقط؛ وقع إيميل في حب ماريون، بمجرد اجتيازه لعتبة الحميمية الخاصة تلك، لم تكن هناك أي عودة إلى الوراء، ويتأرجح كل ذلك حائرًا بين المعاناة من معرفة أن مشاعره من طرف واحد فقط، ونشوة الإحساس بتلك المشاعر، هذا هو الحب بالنسبة إليه.

عرف إيميل أن ماريون لم تشهد التغييرات التي مر هو بها بمضيِّ الوقت الذي قضياه معًا، انكفأت بسعادة إلى حياتها، وتركته محاصرًا ووحيدًا في هذا الشيء الجميل الذي صنعاه.

النهوض من العبودية هو سيرة ذاتية للتجارب الشخصية التي مر بها مؤلف الكتاب بوكر تي. واشنطن، وطبع للمرة الأولى عام 1901. –مصادر من الإنترنت. (المترجِم)

بوكر تي واشنطن (1856-1915) معلم ومؤلف أمريكي أسود البشرة، ومستشار للعديد من رؤساء للولايات المتحدة الأمريكية. كان واشنطن زعيمًا بارزًا في مجتمع الأفارقة الأمريكيين، والنخبة

السوداء المعاصرة. –مصادر من الإنترنت. (المترجِم)

أخو الكافر (kaffirboetie) هو تعبير عنصري كان يطلق على ذوي البشرة البيضاء ممن تكتشف صداقتهم أو تعاونهم مع ذوي البشرة السوداء. -مصادر من الإنترنت. (المترجِم)

وليام إدوارد برجهارت دي بويز (1868-1963) مؤلف ومؤرخ وعالم اجتماع أمريكي، وناشط في الحقوق المدنية والدفاع عن الإفريقيين. –مصادر من الإنترنت. (المترجِم)

الفصل الخامس عشر

كان راذرفورد ملاذَ إيميل الوحيد للهروب من ذاتِه التوَّاقة إلى ماريون، ودون أيِّ سبب.

معًا، إيميل وراذرفورد، ذهبا للصيد، ورحلات المسير في البراري والجبال، ورحلات التخييم وصيد الأسماك، ومع كل نزهة، تصبح مناقب إيميل أكثر جرأة: صارعَ تمساحًا، وقفز من أعلى شلال، وعبرت سيارة أوتوموبيل فوق جسده، واصطاد أسدًا برمح أسيجاي. اعتاد راذرفورد التهكم من مآثر إيميل هذه في كل مرة، واصفًا إياه بصاحب النزعة الانتحارية، لكن إيميل كان يدرك دوافعه الحقيقية لتحقيق هذه الإنجازات.

اكتسب إيميل بعض الشهرة عندما بدأت صورته بالظهور على صفحات ذا كرونيكل. وكاد أن يُقنع نفسه بأن هذه المناقب ما هي إلا تكريمٌ لفريدريك كورتني سيلوس، الرجل الذي اتبع أوامر الله، وبيَّن للعالم الطريقة الصحيحة لترويض البراري الإفريقية الجامحة، على أيِّ حال، كان يُدرك في قرارة نفسه أن جزءًا منه -ذلك الجزء غير العقلاني– ما زال يأمل بأن تتوقف ماريون يومًا ما عن متابعة ما تقوم به أيًّا كان بمجرد مصادفة إحدى صوره في الصحيفة، أو سماع أخبار أيٍّ من مآثره، لتستعيد ذكريات الوقت الجميل الذي جمعهما، لو فعلَت ذلك، لعلِمَت أن هذه محاولةٌ بائسةٌ منه لإيصال الحقيقة التي لم يستطع إخبارها بها.

مسخَت ماريون هارتلي إيميل كويتزي إلى مخلوقٍ مثير للشفقة؛ فأصبح بحاجة إلى يدٍ تنتشله من بؤسه، وكانت تلك اليد هي اللورد والليدي أشتونبيري، كان اللورد والليدي أشتونبيري بصدد الاستيطان في نفس الأرض التي نشأ إيميل عليها، في البلدة الريفية التابعة لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية، والقرية المحيطة بها عند سفوح مرتفعات ماتوبوس، تولى إيميل مهمة إعادة توطين سكان القرية في الأرض التي مسحها سابقًا، واعتقدَ هو ورؤساؤه في العمل أنها مناسبة للأفارقة، وبدأ الإشراف على تحويل البلدة الريفية والقرية إلى هكتارات من الأراضي التي تستطيع عائلة أشتونبيري ترقيتها إلى مزرعة مجدية من الناحية التجارية.

لم يتعرف الأفارقة في القرية على إيميل بعد عودته إلى البلدة الريفية التابعة لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية. ربما عرفوه، ولم يُظهروا له ذلك، فضَّل إيميل أن تبقى هويته مجهولة في مهمته، ولم يُدرك، على أي حال، أن الأفارقة تعرفوا عليه حقًّا، في الواقع، اختاروا عدم إظهار ذلك لأنهم عرفوا منذ وقت بعيد أن الأوروبيين –ولا سيما أطفالهم– يعودون مختلفين جدًّا من رحلاتهم حول العالم.

وهكذا لم تحدث أيُّ حالات تواصل في الاجتماعات التي عقدها إيميل مع القرويين لتهيئة إعادة توطينهم، في هذه الاجتماعات، وبلسان أهلها، يتحدث زعيم القرية عن الأرض... أرضهم... وأرض أجدادهم... وأرض أبنائهم وأطفالهم، أوضح لإيميل أن القرويين هم مجرد أوصياء على الأرض التي ورثوها عن أسلافهم، وتقتضي مهمتهم الحفاظ عليها لتستلمها الأجيال المقبلة، لهذه الأسباب، لا يمتلكون حرية اتخاذ القرار بالتخلي عن الأرض.

هذا النوع من الكلام كان متوقعًا بطبيعة الحال من الأفارقة، وتوجب على إيميل إخبارهم بأن الأرض –كل الأرض في المستعمَرة– مملوكة للحكومة التي قررت وحددت الحصص وشاغليها، وليس الأجداد.

أدركت الحكومة احتمال مواجهتها لتمرد القرويين، وفي هذه الحالة، تم إبلاغ إيميل بقدرته على طلب الدعم من شرطة جنوب إفريقيا البريطانية، كان إيميل يرجو ألا يحدث ذلك، فحاول استخدام المنطق مع الزعيم الذي عاد إلى التحدث عن الأجداد، دُفن الأجداد في هذا المكان، ولا يستطيع الناس الابتعاد عن أرض أجدادهم، فذلك أشبه بتدمير تاريخهم، وما قيمة الشعب دون تاريخ؟ وبتشجيع من زعيمهم، رسَّخ القرويون أنفسهم أكثر، وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فشيدوا هياكل خرسانية.

في النهاية، لم يجد إيميل أمامه من حل سوى استدعاء شرطة جنوب إفريقيا البريطانية.

أُجبر القرويون على الانتقال في شاحنات مصطحبين ما استطاعوا من ممتلكاتهم القليلة، وجدوا أنفسهم مُحمَّلين مع مواشيهم وحبوبهم وأوانيهم، فأدركوا أن الحكومة الاستعمارية لا تميزهم كثيرًا عن ممتلكاتهم.

بعد أن توصل الأفارقة إلى هذا الإدراك، التزموا الصمت.

لطالما كان الصمت عنصرًا مزعجًا بالنسبة إلى إيميل، فانشغل في وضع الأشياء التي خلفها الناس في الشاحنات، أشياء أحس بأنهم سيفتقدونها لاحقًا، لعبة بلبل دوار، ومقلاة صدئة، ومقلاع، وحذاء جلدي أزرق. كانت هذه بادرةً لطيفةً من جانبه، كان يعرف أنها لم تعد هامة في المخطط الكبير للأشياء، وأنها ربما لم تعد ضربًا من اللطف، لكنه رجا أن يستحث مشاعر مماثلة بمجرد أن يستقر الأفارقة في أرضهم الجديدة، ويدركوا حاجتهم إلى الأشياء التي خلفوها وراءهم.

انطلقت الشاحنات المكتظة، وأصبحت الأرض التي كانت مملوكة لشعب ما خالية من سكانها فجأة، اختفت كل تلك الحياة الصاخبة بهرجها ومرجها، وبدى ما بقي قديمًا مثل الأطلال.

وصلت الجرافات، فتغيرت ملامح المنطقة بسرعة، مُسح الماضي بأكمله، ولم تهتم الجرافات بما قد يعنيه ذلك للمستقبل.

بينما كان إيميل واقفًا وسط هذا العدم الجديد الذي كان قريةً إفريقية، تذكر ماستر دوثي وحديثه أن الأفارقة يمتلكون ماضيًا، وليس تاريخًا، أحس بفكرة تتشكل في عقله، أدرك أن مشكلة الإفريقي تتلخص في الديمومة التي يفتقدها أسلوبه في إنجاز الأشياء، لم يشيد الأفارقة هياكل دائمة، ولن تستطيع مبانيهم المصنوعة من عمودٍ محوري وقنَّب الداجا الصمود أمام متطلبات الزمن، لم يطور الإفريقي منظومة للتدوين، كل ما لديه كان عبارة عن تقاليد شفهية يمكنه حملها ونقلها معه، دون أن يخلفها وراءه كسجل، كانت الذكريات هي خلاصة ممتلكات الإفريقي، وكان الزمن كفيلًا بطمسها إلى الأبد.

فكر إيميل في ضرورة عدم الاستكانة لهذه الطريقة التي تسير بها الأمور، كانت هذه انطلاقة فكرة من شأنها أن تجعل إيميل كويتزي رجلًا يصنع التاريخ، على أي حال وبينما وقف يتفقد أنقاض القرية الإفريقية التي كانت تحيط به، لم يكن لدى إيميل أدنى فكرة عما سيأتي.

الفصل السادس عشر

سيتي أوف كينجز كانت شبه مغرمة باللورد والليدي أشتونبيري حتى قبل وصولهما، للمُلكية سحرها الخاص، ولا بد أن تشكل إضافةً مرحَّبًا بها في المشهد الاجتماعي للمدينة.

لم يخِب هذا الظن بعد وصول الزوجين أشتونبيري، لقد كان ساحرًا، وكانت رائعة بالتأكيد، حجزا غرفًا في فندق جراند أوتيل بانتظار استكمال إجراءات تطوير أرضهما، نادرًا ما تتم دعوتهما، لكنهما قبِلا كل دعوة وجهت إليهما تقريبًا، فتحوَّلا إلى شخصيتين محبوبتين لما اتصفا به من لطافة وكياسة، كانا وليفين استثنائيين، ولحسن الحظ، لم يحيطا نفسيهما بالأجواء والنعم التي توقعها البعض وخشي منها، باختصار، بدت عليهما اللهفة لاحتضان السعادة ونشرها، كان يدعوها «ليدي»، وكانت تدعوه «لورد»، ولم يكن أيُّ شخص فظًّا لدرجة اعتبار هذه العلاقة نوعًا من الابتذال.

التعارف الأول بين إيميل والزوجين أشتونبيري جاء على شكل دعوة تلقاها بالبريد لحضور حفل عشاء، كُتبت الدعوة على ورق ليلكي يحمل توقيعًا نافرًا بالأحرف الأولى، وعلى الرغم من مرورها بين أيادٍ كثيرة قبل الوصول إليه، حافظت تلك الدعوة على عبق ناعم من رائحة اللافندر، الليدي أشتونبيري.

نظرًا لسمعتهما الطيبة التي سبقت وصولهما، شعر إيميل أنه يعرفهما مسبقًا، ومع وصول بطاقة الدعوة ورائحة اللافندر العالقة بها، وجد إيميل نفسه أكثر فضولًا تجاهها... الليدي أشتونبيري.

في اليوم الموعود ارتدى إيميل بدلة توكسيدو لم تكن ملائمة لقياسه، حيث استأجرها لهذه المناسبة، وفكر في احتمال تعرُّضه لخيبة الأمل، بعد كل ذلك؛ فاجأتْهُ ووصفتْه بأنه رائع لدرجة لا تصدق.

كانت الليدي أشتونبيري مزيجًا من أشياء كثيرة، وكانت رائعة لدرجة لا تصدق، عندما وقعت عينا إيميل عليها أول مرة -كانت جالسة على الأرض متكئة على يدها اليسرى، وفي يدها اليمنى كأس شامبانيا، ورأسها يميل نحو الخلف لإطلاق ضحكة ناعمة، بينما تحلقَت مجموعة من الرجال حولها بإعجاب– ببساطة، كانت أكثر النساء اللواتي رآهن جمالًا -تقليديًّا- على الإطلاق.

بالنسبة إليها، لم تستخدم جمالها كسلاح كما تفعل النساء الأخريات، كان جمالها خصلة متأصلة اعتادتها منذ فترة طويلة، في أواخر ثلاثينياتها، وما زالت متأكدة من جمالها. في السن التي تخشى فيه النساء ذبول مظهرهن وخسارة اهتمام الرجال، ظهرت الليدي أشتونبيري وكأنها ترى في جمالها أمرًا من المسلَّمات، لم تعتقد أنها ستفقد أيَّ شيء لطالما امتلكته، كانت الليدي

أشتونبيري امرأة متصالحة مع ذاتها، وهي صفة وجد فيها إيميل جاذبيةً أكثر من الجمال. كانت ماريون، بالطبع، تتمتع بهذه الصفة في سن أصغر بكثير، ما جعلها أكثر جاذبية لإيميل.

اعتاد إيميل فِعل ذلك، فأخذ يقارن كل امرأة يقابلها مع ماريون، كان يدرك أن هذا الأمر ليس صحيحًا، لكنه لم يستطع تجنبه، نظرَت بعمقٍ في عينيه ثم قبلته برفق على جبينه، قبل أن تلتصق به.

ماريون...

جعَلَته رجلًا تائهًا في أعماقه.

عندما لاحظ إيميل أنه قضى معظم وقته في حفل الزوجين أشتونبيري وهو يفكر في ماريون، أدرك مدى بؤسه، وأن لا ضرورة للتعريف بنفسه لليدي أشتونبيري، قبل مغادرته، دعا اللورد أشتونبيري للتعرف على الملكية العقارية التي يتم إعدادها لهما.

لبى اللورد أشتونبيري الدعوة بعد بضعة أيام، وأحضر معه الليدي أشتونبيري، حضرا في وقت أسرع مما توقعه إيميل، وسرعان ما «انطلق للتجول» كما أحب تسميتها، «الانطلاق للتجول» كان يشغل معظم وقت إيميل الآن.

كان يتجول في البراح الإفريقي بعدم سَكينَةٍ لم تعد تشفيها الزيارات إلى سكوبيز والطابق الثالث من فندق سيسيل، كانت ماريون مصدر قلقه بالتأكيد، لكنه اشتبه في ارتباط هذا القلق مع الفكرة التي دارت في ذهنه، فتملكته رغبة قوية في فعل شيء حيالها، تلك الفكرة حول الطبيعة غير الدائمة لحياة الأفارقة.

ترك اللورد أشتونبيري ملاحظة مكتوبة بخطٍّ عريض على لوح تابع لوزارة شؤون السكان الأصليين، وبمجرد عودته، وجد إيميل الملاحظة بانتظاره، فاتصل هاتفيًّا مع الزوجين أشتونبيري، عندما أوصلت عاملة الهاتف الخط، كانت الليدي أشتونبيري على الطرف الآخر. سألته: - جئنا ولم نرك، متى نستطيع العودة مجددًا؟

خرجت كلماتها بنبرة ذات إيقاع داخلي مميز يبعث السرور في قلب مستمعها، كاد إيميل ألا يدرك محتوى كلماتها، فتركيزه منصب تمامًا على أسلوبها في نطق هذه الكلمات.

- إيميل؟

جعلَت اسمه يبدو وكأنه شيء جديد كليًّا.

بالطبع، لم يكن الزوجان أشتونبيري بحاجة إلى طلب إذن إيميل لرؤية أرضهما، لكنه سحرهما الخاص والحصيف، لقد عاملا الجميع باحترام.

- يمكنكما المجيء وقتما تشاءان.

- نعم، ولكن ما هو الوقت الأنسب لك؟ نحن تحت أمرك، كما ترى. ونود أن نلتقي بك أخيرًا بالشكل الصحيح.

ابتسم إيميل معجبًا بأسلوبها، وقال:

- غدًا بعد الظهر؟

كأنما توقعت ليدي أشتونبيري جوابه، فقالت:

- سيكون الأمر مَبعثًا للبهجة.

وهذا ما جرى.

امتطى إيميل والزوجان أشتونبيري ظهور الخيل وجابوا الأرض، كان الزوجان كريمين كفاية في التعبير عن حبهما لكل ما رأته عيناهما، والإعراب عن شكرهما لإيميل على كل ما فعله، حتى ولو لم يكن مسؤولًا مباشرة عنه.

عندما صادفوا منزل البنجل الحكومي الخالي من الشرفات والمطلي بدهان أبيض، والذي كان شاهدًا على طفولة إيميل، أدرك للمرة الأولى الإهانة الكامنة في عدم السماح بالأشياء الأكثر كولونيالية، والمتمثلة في شرفة تطل على السافانا، أخبر الزوجين أشتونبيري أن المنزل سيُهدم قريبًا لتشييد الدفيئة التي تريدها الليدي مكانها، كان إيميل يرجو ألا يسمعا صوت انكسار جزء عميق في داخله وهو يخبرهما بذلك.

سألت الليدي أشتونبيري:

- آه، هل يتعين علينا هدمه؟ إنه أعجوبة مطلقة، عتيق جدًّا، وأنت تقول إنه المكان الذي نشأت فيه.

اختار إيميل تلك اللحظة ليشيح بناظريه بعيدًا عن الزوجين أشتونبيري نحو الأفق الطبيعي المفتوح.

قالت ليدي أشتونبيري:

- لا بد وأنك كنت سعيدًا جدًّا هنا عندما كنت صبيًّا صغيرًا.

نعم، لقد كان كذلك. قالت الليدي أشتونبيري وهي تترجل عن صهوة حصانها لتتحقق من المنزل عن قرب: - آه، لا يمكنهم هدم المنزل بهذه البساطة! ستحرص على ألا يفعلوا ذلك، أليس كذلك عزيزي؟

- أجل عزيزتي.

لم تكن هذه الكلمات غريبة عن إيميل، وقد سمعها تخرج كثيرًا من فم اللورد أشتونبيري. قالت الليدي أشتونبيري وهي تلتفت بعيدًا عن المنزل لتبتسم في وجه إيميل، الذي بادلها ابتسامة لطيفة: - اللورد، كما ترى يا إيميل، يحقق لي كل أمانيَّ، ستمنحني جولة تعريفية، أليس كذلك يا إيميل؟

سيفعل ذلك بالتأكيد، جال معها في الغرف الريفية الأربعة التي كانت منزل طفولته في غابر الأيام، ولأن اهتمامها بدا حقيقيًّا، شعر بالفخر فيما أظهره لها.

أجرى الزوجان أشتونبيري زيارات متكررة بعد ذلك، وغالبًا ما توِّجت زياراتهما بتناول شاي الرابعة ظهرًا، حيث يشربون البراندي دون أي سندويشات أو بسكويت على رقعة العشب ذاتها التي اتشحت بطابع أكثر برية. هناك، حيث اعتاد إيميل الجلوس لمشاهدة والديه وهما يتعثران في رقصهما المتمايل مع الموسيقى.

لطالما جاء الزوجان أشتونبيري معًا، ومع ذلك لم يثر مجيء الليدي أشتونبيري وحيدة للمرة الأولى أي تساؤلات في ذهن إيميل.

- استُدعي اللورد إلى سالزبوري، أخشى أن هذا سيتكرر، إحدى الشخصيات الهامة تعتقد أن اللورد سيكون فعالًا في تنفيذ مهمة ما، لذلك، وفي المستقبل المنظور، سآتي إلى الزيارات وحيدة إن لم تكن تمانع.

بالطبع لم يمانع إيميل.

بمراجعةٍ للماضي تساءل إيميل فيما لو أن علاقته مع الليدي أشتونبيري كانت ستتخذ منحىً مختلفًا لو أنهما لم يصادفا ديزي.

لم تكن ديزي معروفةً بهذا الاسم حينها، كانت عبارة عن كيس خيش كاكي اللون أشارت إليه الليدي أشتونبيري نتيجة فضولها المعتاد في أثناء جولتهما على طول النهر.

ساورت الشكوك إيميل بمجرد رؤيته لهيئة كيس الخيش، والذي يستخدم عادة لتخزين القطن أو علف الأبقار، قفز من فوق صهوة حصانه، وبشكل غريزي، طلب من الليدي أشتونبيري الابتعاد ريثما يتحقق من محتوى الكيس.

ربما حملت الرياح صوته بعيدًا في الاتجاه الآخر، أو كانت الليدي أشتونبيري ساذجة جدًّا لدرجة أنها لم تشك فيما سيحدث بعد ذلك، لكنها كانت هناك عندما فتح إيميل كيس الخيش ورأى البقايا المقطعة والمنتفخة للمرأة الإفريقية التي سيعرف لاحقًا أن اسمها ديزي.

صرخت الليدي أشتونبيري وغطت فمها وركضت لتتقيأ في مكان بعيد، ذهب إليها إيميل ليساعدها على الراحة، وبينما هي بين يديه، أخبرها بضرورة توجهها نحو منزل البنجل الحكومي الخالي من الشرفات والمطلي بدهان أبيض، والذي كان منزله في يوم ما، أخبرها أنه سيبقى للاتصال بشرطة جنوب إفريقيا البريطانية، وسينتظر مع الرفات حتى وصولهم.

أخبرَته بأنها ستنتظره هناك، ولن تغادر إلا بعد عودته.

لم تكن مجبرة على الانتظار.

كانت ستنتظر، أرادت ذلك.

وصل رجلان من شرطة جنوب إفريقيا البريطانية؛ أوروبي وإفريقي، وقعت حادثة سرقة لقطعان الماشية، وتوجه معظم رجال الشرطة إلى هناك؛ ما يوضح سبب قدوم اثنين فقط للتحقيق، ويبرر وصولهما في وقت متأخر. هذه

الحادثة جعلت إيميل يدرك أن الاستغناء عن البلدة الاستعمارية التي نشأ فيها، والتي تتبع لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية، لم يكن فكرة جيدة تمامًا.
عرَّف الشرطيان بنفسيهما على أنهما مايكل ميريديث، وسبوكس مُولوي.
قال ميريديث مخاطبًا مُولوي الذي هز رأسه ومشى بعيدًا: - تعرف ما عليك فعله.
قال ميريديث لإيميل بمجرد ابتعاد مُولوي:
إنه أفضل رجلٍ لدينا، لن أقول هذا المديح أبدًا في وجهه، أنت تفهم ذلك، من غير المفيد أن يسمع الأفارقة المديح، لأنه يمنحهم أفكارًا تتخطى حدود استيعابهم.
وبينما راقبا مُولوي وهو يلتقط صورًا للرفات، استعد ميريديث لتدوين أقوال إيميل.
- كنت في جولة على الحصان مع الليدي أشتونبيري، فهي التي...
قاطعه ميريديث بحماس:
- هل تعرف اللورد والليدي أشتونبيري؟ أنا عالق هنا في الأدغال... لم أقابلهما، لكنني سمعت الكثير عنهما.
بعدئذ، مر بعض الوقت قبل أن يعودا مجددًا لتدوين الأقوال.
سأل ميريديث وهم جميعًا يحملون كيس الخيش بعناية ليضعوه في الجزء الخلفي من شاحنة الشرطة: - ما رأيك يا مُولوي؟ زوجٌ غيور على ما أظن.
قال مُولوي وقد هز كتفيه وقضب حاجبيه:
- ربما كان كذلك.
عندها، لاحظ إيميل أن مُولوي لديه أروع شارب رآه في حياته: أسود داكن، مشذب جيدًا، ومشمع حتى نهايته، كان علامة فارقة لن ينساها أي شخص إطلاقًا، كان قوة لا يستهان بها.
- من الذي قد يفعل ذلك سوى زوج غيور؟
- لا يوجد خاتم في إصبعها.
- لم يعتد الأفارقة وضع خواتم في أصابعهم.
- الأفارقة الذين يرتدون مثلها قد يفعلون، ربما تعلمت على يد بعثة تبشيرية، أو أنها من الطبقة الوسطى.
- ربما اشترى العاشق هذا الثوب، وأعطاها إياه كهدية، وهنا جاء الزوج الغيور.
هز مُولوي كتفيه، وازداد حاجباه اقتضابًا.
- أعطاه لها كهدية.
كان كل ما قاله.
بعد مصافحة إيميل، استعد ميريديث ومُولوي للمغادرة. قال إيميل: - أرجو أن تطلعاني على مجريات التحقيق لو سمحتما.

- إذا أردتَ ذلك.
- أجل، أودُّ ذلك.
فعل ذلك بصدق، أراد إيميل أن يعرف كيف وصلت المرأة إلى نهايتها هذه، كانت العينان –الميتتان– هما اللتان نظرتا إليه ودفعتاه للتساؤل عن الحياة التي شهدتاها... الحياة التي عاشتها المرأة.
التاريخ: هذا ما كان يهتم به، تاريخ المرأة الإفريقية، في وصفه للمرأة، استخدم مُولوي عبارتين هما «تعلمت على يد بعثة تبشيرية» و«الطبقة الوسطى»، وأدرك إيميل لأول مرة وجود منظومة داخلية كانت في الحياة الإفريقية، على الرغم من أنها ليست واضحة بالنسبة إليه، فوجئ بنفسه، ولم يدرِ ما إذا كانت مفاجأته من التفكير بهذه الطريقة حول حياة الأفارقة، أو لأنه لم يفكر مطلقًا في الحياة الإفريقية بمثل هذه الطريقة.
وجد الليدي أشتونبيري بانتظاره على رقعة المرج العشبي، حيث ينبغي أن تكون الشرفة، كانت تحمل كأس براندي قدمَته له بيدٍ مرتجفة، سرعان ما اتضح أنها تناولت عدة كؤوس مسبقًا.
قالت وهي تسير متوترة ذهابًا وإيابًا:
- يا له من أمر مروع! يا لفظاعة ما رأته أعيننا!
كما لو أن ضوءًا محددًا في داخلها قد انطفأ، براءة لم تعد موجودة.
شعر إيميل بالحزن عليها، ومد يده للمسها، أوقف يده في منتصف الطريق بينهما وهو في شك من أمره، كان قد عزاها في وقت سابق، ولم يُرد أن يساء فهمه.
لكن الأوان قد فات، حدَّقت الليدي أشتونبيري إلى يده الممتدة، وتناولتها بلطف في يدها، وببطء، وبتردد، قبَّلت الكف المفتوح ثم ضغطت تلك الراحة على خدها.
- ليدي أشتونبيري...
همست له وهي تلف ذراعيها حوله، وتضع رأسها على صدره: - ادعُني ماريفون، أرجوك.
قالت وهي تنظر إليه:
- إنه اسمي.
- ماريفون.
بدأت علاقتهما العاطفية بعد بضعة أشهر.
على الرغم من أن الزوجين أشتونبيري لم يزورا أرضهما منذ اكتشاف جثة المرأة الإفريقية، فإن الليدي أشتونبيري هاتفت إيميل عدة مرات، دارت معظم أحاديثهما عن المرأة التي عرف إيميل أن اسمها ديزي من خلال سبوكس مُولوي.

لم يتذكر أحد بالضبط العام الذي وصلت فيه ديزي إلى القرية التي كانت على بعد عدة كيلومترات من النهر حيث تم العثور على جثتها، أحضرها واحد من أبناء القرية الذي كان يعمل في مصانع سيتي أوف كينجز، ويُعتقد بأن ديزي وابن القرية ذاك التقيا في سيتي أوف كينجز، لكن أحدًا لم يكن متأكدًا من ذلك بشكل خاص، كان الجميع يعرف أن اسمها الحقيقي، اسمها الذي أطلقه عليها والداها، والاسم الذي عرفها به أسلافها، لم يكن ديزي، مع ذلك، فإن ديزي هو اسم ربما عرَّفت به نفسها بحرية للقرويين عندما وصلت أول مرة. لم يُعرف الكثير عن حياتها قبل مجيئها إلى القرية، حياتها بعد وصولها... حسنًا، يمكنك سماعها على ألسنة الجميع، كانت ديزي جميلة بأسلوب مختلف عن تصنُّع النساء في المدينة، ما أثار بعض الشكوك حول أصلها من سيتي أوف كينجز، كانت لطيفة جدًّا، وسرعان ما لاحظ القرويون أنها كانت، بالمصادفة، ودودة جدًّا مع أحد المعلمين الذكور في مدرسة تبشيرية قريبة، ومع بائع يوناني متجول، ومع صاحب متجر إيدلازونك جينيرال جودز آند بوتل ستور، على الرغم من أنها تلقت كتابًا من المعلم، وهدايا مجانية دائمة من البائع اليوناني المتجول، ولا يبدو أنها تدفع مقابل أي عملية شراء في المتجر، فإن أيًّا من القرويين لم يرَ شيئًا يكفي لتنبيه القروي الذي عاشت معه أحد عشر شهرًا كاملًا في سيتي أوف كينجز، لم تكن ديزي وابن القرية متزوجين بالفعل، كانا يفعلان ما يدعوه الماتابيلي باسم «أوكوتشايا أمابوتو» (ukutshaya amapoto)، ما يعني أنهما كانا يلعبان لعبة الزوج والزوجة –مثل الأطفال– دون أن يكونا كذلك حقًّا. عاشت ديزي هذه الحياة في القرية لسنوات عديدة -لا أحد يستطيع تأكيد عددها- ثم ابتلعها جوف الليل فجأة قبل أسبوعين من عثور الليدي أشتونبيري وإيميل عليها على كتف النهر جثةً مقطعة محشورة في كيس خيش كاكي اللون، بعض القرويين أكدوا أنهم سمعوا صوت محرك سيارة يهدر مبتعدًا في ليلة اختفاء ديزي، لم يكن في القرية من يمتلك سيارة، وقد سقط المطر لأيام وليال، وبحلول وقت وصول شرطة جنوب إفريقيا البريطانية إلى القرية، تكفل المطر بمحو كل أثر للسيارة، اعتقد الكثيرون أن عاشقًا –المعلم أو البائع اليوناني أو صاحب المتجر– قد جاء ليلًا ليأخذها بعيدًا. خبر العثور على جثة ديزي مقطعة ومحشورة في كيس خيش كاكي اللون كان صادمًا لجميع القرويين الذين سمعوا بالخبر عبر مايكل ميريديث وسبوكس مُولوي.

أخبر إيميل ماريفون أن ما جرى لديزي كان مروعًا، وأن مأساتها تفاقمت مع ندرة الحقائق الفعلية عن حياتها، هذا النقص في التفاصيل حول حياة ديزي أعاد إلى إيميل أفكاره السابقة حول مشكلة الإفريقي المتمثلة في الديمومة التي يفتقدها أسلوبه في إنجاز الأشياء، عندما تحدَّث مع ماريفون، بدأت هاتان الفكرتان بالتجمع والتقاطع في ذهنه، كانت معايير ما أراد إيميل القيام به

غامضة في البداية، فصاغَها عبر محادثاته مع ماريفون حتى اكتسبت خطوطًا عريضة واضحة، وبمرور الوقت، اتضحت له الحاجة إلى وحدة حكومية أكثر مركزية مخصصة للأفارقة، وليست وزارة شؤون السكان الأصليين، وفي كنَف -أحبَّ إيميل استخدام هذه الكلمة- هذه الوحدة، سيتم تسجيل حياة كل إفريقي من لحظة ولادته وحتى الوفاة، بهذه الطريقة، لن يخشى الأفارقة من ترك أسلافهم، سيمتلكون شيئًا يتخطى حدود الماضي، سيمتلكون تاريخًا وهو شيء دائم الوجود. أحس إيميل أن عليه تحمُّل مسؤولية القيام بمثل هذا المشروع، الفكرة نفسها نفخت فيه حياة نابضة أكثر من أي شيء آخر، حتى من فكرة المغامرة. بدا الأمر كما لو أن الغيوم في ذهنه تبددت واختفت ليشرق من ثغرها نور الشمس كـ «نفحةٍ ربانية».

بفضل حديثهما المتكرر، كونت ماريفون شغفًا مماثلًا برؤية إيميل، وعدته بالمساعدة، وسرعان ما أقنعت اللورد أشتونبيري بمساعدة إيميل أيضًا.

اكتشف إيميل الغرض من حياته دون أن يضطر إلى البحث عنه، وأحس أن مصيره –ربما– يدفعه لينضم إلى قائمة الرجال العظماء في التاريخ، ويتحقق الوعد الذي قطعته مدرسة سيلوس للبنين.

في ظهيرة أحد الأيام، زارت ماريفون إيميل في منزل البنجل الحكومي الخالي من الشرفات، والمطلي بدهان أبيض، والذي عاش فيه إيميل طفولته، لم يمض وقت طويل حتى دخلا في مرحلة قُبَلٍ مترددة، وسرعان ما وجدا نفسيهما في الغرفة الموحشة التي كانت غرفةَ نوم والديه، وعلى أرضيتها الخرسانية الباردة، في مرحلة ما من القُبَل، أدارت ماريفون وجهها بعيدًا نحو زاوية الجدار، بدا جسدها مغلقًا، فاستعد إيميل للابتعاد، لكنها، وبقوة مفاجئة، لفَّت ساقيها حوله وأغلقت عينيها.

قالت ووجهها تعلوه حمرة الخجل.

- أنا لا أستمتع به... لم أستمتع به قط... لكنني أريد هذا القرب معك، أريد الاتصال.

رآها إيميل كما بدت له أول مرة؛ متكئة على يدها اليسرى وهي تضحك ورأسها مائل نحو الخلف، وقد تحلَّق حولها مجموعة من الرجال، أحس بالحزن لأن ابتسامتها الناعمة تحمل في ثناياها معرفة سرية تدفعها للوعد بشيء تدرك في أعماقها أنها لن تستطيع الوفاء به.

هنا، أدرك إيميل أن ماريفون تستحق الأفضل؛ عندما منحها هدية العثور على المتعة في جسدها، عندما نظرت إليه بحاجبين مقتضبين وعينين تضجان بالاستغراب، وعندما صاحت باسمه في وحشة الغرفة، وعندما واصلا الاجتماع منذ ذلك الحين، طوال تلك الفترة، أدرك إيميل أن ماريفون تستحق الأفضل، أفضل من إيميل كويتزي، الرجل الذي لا يصلح لأي شيء، والبائس الذي تركته ماريون هارتلي.

الفصل السابع عشر

تعجب إيميل من كيفية توضح الأمور بعد تلك الفكرة الأولية والمبتكرة، بمجرد التأكد من تخطيها لمرحلة الجودة إلى الاستناد إلى مبررات قوية، خطط إيميل لمشاركة فكرته مع الشخص الوحيد الذي يعرف بقدرته على صقلها وصولًا لمرحلة الاستحقاق، كورتني سميث سينكلير، وهنا تعرَّض إيميل لموقف غير مريح نهائيًّا.

مع قلبٍ ينبض بشدة وكفين متعرقتين، وقف إيميل تحت الممر المقنطر منتظرًا تقديمه لمخاطبة المجتمعين، فأحس بشيء من الندم، ربما بالغ في ثقته برأي كورتني، ومن الواضح أن هذا الأمر خاطئ، من الأفضل له لو أدرك منذ البداية أن البدلة وربطة العنق غير الملائمتين، واللتين اشتراهما خصيصًا للمناسبة، كانتا مؤشرًا أوليًّا على عدم انتمائه لمثل هذه الأجواء، لكن وفي ذلك الوقت، كان شديد الانشغال في وضع صياغة جيدة للخطاب، بحيث لم يُعر مظهره الخارجي ما يكفي من انتباه.

صحيح أنه نجح في إحدى المرات بكتابة مقالٍ أثار إعجاب معلمه بضربة من الحظ، وأتاح له ارتياد أفضل مدرسة في البلاد، لكن ذلك لا يعني امتلاكه للعناصر اللازمة للتعامل مع مثل هذه المواقف، على أي حال وبغض النظر عن تحفظاته، وقبل أن يدرك ذلك، كان واقفًا على المنصة متأسفًا على قراره بالموافقة على اقتراح كورتني بإلقاء كلمة أمام كابريكورن أفريكا سوسايتي.

خرجت الكلمات بصوتٍ مرتجف لم يمنع استجابةً خجولةً من أشخاص جالسين في الخلف، لحسن الحظ، لم يطل الأمر حتى انتهى الخطاب، كان سعيدًا بوهج الأضواء العالية التي سطعت لدرجة حجبت عنه رؤية أي شخص من الجمهور بوضوح، ولولاها لأمضى إيميل خطابه بالكامل موجهًا الحديث إلى كورتني، انتهت الكلمة بتصفيق متواضع كان إيميل ممتنًّا له، ثم جاء دور الأسئلة التي أدرك –بعد فوات الأوان– أنه لم يكن مستعدًّا لها.

أغلبية الأسئلة أرادت الوقوف على الفرق بين اقتراح إيميل والدور الذي تلعبه وزارة شؤون السكان الأصليين.

قال إيميل:

- تكمن المشكلة في الديمومة، لقد حان الوقت لإحداث تغيير كبير في حياة الإفريقي الذي وجد نفسه –فجأة– قادرًا على التنقل جسديًّا واجتماعيًّا بأساليب عجز عنها في السابق، لا يقف الأمر عند حد إعادة توطين قرىً بكاملها، بل –ولأول مرة في حياته– يستطيع الإفريقي التنقل كفرد، يستطيع مغادرة قريته والاستقرار في المدن أو المناجم، يمكنه اختيار الذهاب إلى أبعد من ذلك، نحو جنوب إفريقيا على سبيل المثال، وخلال هذه الحركة، ينتقل

بعيدًا عن إملاءات التقاليد، يستطيع رسم مسار جديد لنفسه، الشاب الذي يغادر قرية مثل لوبنجولا، على سبيل المثال، يستطيع أن يصبح صبي الشاي "سيكسبنس" في المدينة.

موجةٌ كبيرة وغير متوقعة من ضحكات الجمهور قاطعت حديث إيميل. تابع بعد انتهاء موجة الضحك: - وزارة شؤون السكان الأصليين تعامل الإفريقي ككائن ثابت، أنا أعمل في الوزارة، وأعرف أن منهجيتها لا تواكب التغيرات المتسارعة لحياة الإفريقي، تحقيق ذلك يحتاج إلى وحدة أخرى، وهو ما أدعو إليه، الوزارة تقوم بعمل رائع، وأنا لا أنتقدها، أنا أسعى فقط لاستكمال هذا العمل.

بدا الجمهور معجبًا بما فيه الكفاية بردود إيميل، وتمكَّن في النهاية من الابتعاد عن المنصة، تملَّكه شعور غريب بالارتياح والسعادة، لقد سارت الأمور بشكل أفضل بكثير مما كان يتوقع، بصراحة، تفاجأ إيميل بقدرته على توضيح مشكلة الإفريقيين بمثل هذه الصورة.

كورتني كان أول من صافحه بحرارة، وربت ظهره.

يبدو أن رغبته بمنح الإفرييقيين تاريخًا لاقت صدىً طيبًا لدى بعض السادة المحترمين، فأقبلوا باتجاهه للتعريف بأنفسهم.

حسنًا، بالطبع، لا يمكن أن تسير كل الأمور على ما يرام.

تقدَّم منه رجلٌ ضئيل الجسم مع وجه متجهم، وسأله:

- من أنت؟

على الرغم من أن إيميل شعر بالارتباك من السؤال، فإنه أجاب:

- إيميل كويتزي.

- أعرف اسمك يا رجل، ولكن من أنت؟

وقف إيميل حائرًا. ما دام الرجل يعرف اسمه فما الداعي للسؤال؟

- من هم قومُك؟ من أين أنت؟

بشكل غريزي، أدرك إيميل أنه لا يستطيع أن يقول «أنا من برينسز مانشنز على زاوية شارع بورو وسيلبورن»، لأن الرجل أراد شيئًا آخر... أكثر ديمومةً من مجرد شقة مستأجرة في سيتي أوف كينجز؛ أراد قطعة من الأرض تحمل اسم كويتزي عليها، أدركَ إيميل برعبٍ عدم وجود مثل هذه الأرض.

قال الرجل ضئيل الجسم ساخطًا:

- أين ولدتَ يا رجل!

أنا إيميل كويتزي من ديربان، ناتال يا سيد...

قال إيميل وهو يعرف أن هذه المعلومات لن تنقذ الموقف:

- ديربان.

ابتسم الرجل ضئيل الجسم بابتهاج المنتصر وقال ساخرًا قبل أن يمشي مبتعدًا: - تصورتُ ذلك، لستَ من هنا إذًا، أليس كذلك؟ أنت لا تفهم إفريقيينا على الإطلاق.

قال كورتني:

- لا تهتم له، دم الرواد، مسحة من النخبوية.

قال إيميل على الرغم من أنه لم يفهم تمامًا:

- آه، فهمت ذلك.

عندئذ، اتجه رجل ملون مهيب وطويل القامة نحوه هو وكورتني، وعرَّف بنفسه كإيزيكيال دي فيلييه. صافحهما قبل أن يسأل إيميل: - ما هو دوري في كل هذا، سيد كويتزي؟

- دورك أنت؟

سأل إيميل بِحيرَة، لم يرَ هذا الرجل من قبل في حياته، فكيف يُقحم نفسه في مقترح إيميل؟

أوضح إيزيكيال دي فيلييه:

- الرجل الملون، نتاجُ الالتقاء بين الحضارتين الأوروبية المتطورة والمدفوعة بالتقدم، والإفريقية البدائية المهووسة بالتقاليد، ما هو دوره في كل ذلك؟

فاجأ السؤال إيميل الذي لم يفكر في الملونين قط في أيٍّ من مراحل حياته، لم تكن لديه أدنى فكرة عن دور الملونين من كل ذلك.

كان إيميل يتحلى بما يكفي من الصدق ليقول الكثير، قال إيزيكيال دي فيلييه: - أواظب على حضور هذه الاجتماعات بشكل دوري، ولطالما دارت الحوارات حول إقامة مجتمع متعدد الأعراق، مجتمع مبني على المساواة، ويحكمه ممثلو جميع الأعراق في البلاد. جميع هذه الحوارات تبدو جيدة جدًّا ومحترمة، على أي حال، عندما يدقق المرء في الكلام يجد أنه مبني على فكرة بائدة حول التاريخ، الفكرة التي تشجع التقاء الأعراق، الحقيقة هي أن الأعراق ملتقية فعلًا، وقد كوَّنت تاريخًا، وهذا التاريخ ليس للبيض، ولا للسود، إنه تاريخ مختلط.

بعد هذه الكلمات، صافح إيزيكيال فيلييه كلًّا من إيميل وكورتني قبل أن يضيف: - من بين جميع الحوارات التي حضرتها، كانت محاضرتك هي الأكثر صدقًا، مثل هذا الأمر يتطلب رجلًا شجاعًا للحديث عن الأشياء التي يعرف ضرورة قولها، وليس الموضوعات التي يعتقد أن الآخرين يودون سماعها، أنا أشكرك حقًّا على شجاعتك.

فوجئ إيميل حقًّا لسماع أن ما قام به للتو كان نوعًا من الشجاعة.

فيما راقب إيميل إيزيكيال دي فيلييه وهو يمشي مبتعدًا، أحس بشيء يضايقه دون أن يعرف مصدره، كانت المحادثة لطيفة بما يكفي، لكنها تركت إيميل مع طعم سيئ نوعًا ما في فمه، التفت إلى كورتني ليوضح له كلمات دي فيلييه

كما فعل مع الرجل ذي الجسم الضئيل والدم الرائد، لكن اتضح أن كورتني كان شديد الإعجاب بدي فيلييه لدرجة أنه لم يفكر في أي شيء آخر.

في النهاية، كان المهم أن إيميل قد جاء، وأنه رأى، وأنه –حتى ولو لم تؤثر كلماته في الجميع– قد تكلم.

في سكوبيز في اليوم التالي، ألقى راذرفورد نسخة من ذا كرونيكل أمام إيميل قبل أن يجلس على كرسي البار، على الصفحة الأولى طُبعت صورة إيميل مع بعض الكلمات التي قالها في كلمته أمام كابريكورن أفريكا سوسايتي، تخطى اهتمام وسائل الإعلام حدود توقعاته، ولم يعرف تمامًا ماذا يفعل، كان ذلك شيئًا مختلفًا جدًّا عن الظهور في الجريدة لأنك سمحت لسيارة أوتوموبيل بالسير فوقك.

تساءل إيميل عن رأي ماريون في المسألة. قالت له مرة «يا لك من فحل»، لكن ذلك كان قبل وقت بعيد من دعوته للاجتماع، هل رأت فيه هذا الجانب، حتى قبل أن يُدرك أنه موجود؟

- أرى أنك صدقت الهراء الذي تسوِّق له كابريكورن أفريكا سوسايتي بسعادة، وبالأطنان.

- الهراء؟

- نعم، الهراء، تلك الفكرة حول إمكانية التعايش بسعادة بين السود والبيض، وغيرها من الهرطقات.

- أعتقد أن الأمر بحاجة إلى الكثير من الجهد، لكنني أتفق معهم على المستوى الأساسي.

طرح راذرفورد سؤاله بشك:

- هل تعتقد بصدق أن "الكفار" يودون مشاركة إدارة البلاد معنا؟

- نعم، ومع التعليم المناسب والموجَّه نحو مهارات محددة، وبعد بضعة عقود يجب أن يكونوا قادرين على ذلك.

- إذًا أنت، يا صديقي، لا تفهم "الكافر"... لا، انسَ "الكافر"... أنت لا تفهم الرجال. إذا جاء أحدهم إلى منزلك وأداره دون إذنك، هل ستوافق على إدارته معه، أو ستحاول إخراجه من منزلك؟

الإجابة كانت واضحة جدًّا لإيميل لدرجة أنه لم يكن مضطرًّا إلى قولها.

- تتكون كابريكورن أفريكا سوسايتي ممن دعاهم ماستر دوثي بـ "السادة المحترمين" أشباه ماستر آرتشي، إنهم لا يفهمون أسلوب عمل الإمبراطورية، قلوبهم الدامية فوق رؤوسهم، لقد أخذنا هذه البلاد بالقوة، والطريقة الوحيدة التي يمكن للإفريقيين استعادتها هي عبر القوة، أي رجل يُقنع نفسه بخلاف ذلك يكذب على نفسه.

بجرعة واحدة، أفرغ راذرفورد محتويات كأسه من البيرة في فمه.

- هناك كثير من الأشياء التي أحبها في بلادنا هذه، حققنا إنجازات رائعة هنا في فترة زمنية قصيرة جدًّا، والأغبياء الذين لا يميزون الغثَّ من السمين يريدون إحلال الفوضى ومحو كل ما أنجزناه.

قال إيميل:

- أحب هذه البلاد أيضًا.

- ما الذي يدفعك لتغييرها إذًا؟ حبك غريب جدًّا، إنه حب لا يقدر ماهية الشيء، بل ما يمكن أو يجب أن يكون، هذا ليس حبًّا، إنها الرغبة في حب شيء ما.

بينما كان إيميل يتجول في البراح الإفريقي مع ذلك الشعور القديم والمألوف بالارتباط، كان يتحدى أيَّ شخص أن يعتبر شعوره للأرض غريبًا، حبه لأرضه كان حقيقيًّا كأي رجل آخر، من المحتمل جدًا أنه كان يستحق الحرقَ للدخول في علاقات عاطفية تخطت الحدود، ولكن هذا –راقب يده وهي تتغلغل بين أعشاب الفيل المترنمة– هو الشيء الأكثر حقيقية.

«من أنت؟» سأله ذلك الرجل الضئيل النخبوي بعد كلمته في كابريكورن أفريكا سوسايتي، وبينما بذل كورتني قصارى جهده لحمايته من الحقيقة كان إيميل قد استيقظ ببطء ليدرك نظرة الناس إليه، كان الشاب الفاجر والفظيع، والفتى الذي تحذِّر فتياتك من التعرُّف إليه، ممن شغفهم لفكرة تزويد الأفارقة بتاريخ لا تعدو كونها مسألة عابرة، كان صغيرًا جدًّا ومتهورًا ليستثمر بشكل دائم في فكرة أو أي شيء آخر، لم يستطع إلقاء اللوم على الرجل ضئيل الجسم، والرجال النخبويين في المنظمة لازدرائهم وعدم احترامهم له، ألم يكن يفعل مثلهم طوال حياته؟ ما الذي حاول فعله باسمه إضافة لإثبات أنه حفيد رجل يحمل اسمه؟

مثل هذه اللحظات تدفعه للإحباط الشديد، بينما كان يتجول على الحصان في الأراضي العشبية، لم يفكر سوى في منزل البنجل الحكومي الخالي من الشرفات، والمطلي بدهان أبيض، والذي كان يدعوه منزله، المنزل الذي شهد طفولته الشاعرية، المنزل الذي ارتأت الحكومة تصميمه بشكل مُذلٍّ دون شرفات، المنزل الذي لم تمتلكه عائلة كويتزي، تمامًا مثل الشقة 2 إيه في برينسز مانشنز، المُلكية عنصر مهم بالنسبة إلى الرجال في كابريكورن أفريكا سوسايتي ونادي جنتلمانز كلوب للسادة المحترمين. المُلكية تعني أن المرء قد رسَّخ نفسه بشكل دائم، بعد ثلاثة أجيال على هذه الأرض، لم تمتلك عائلة كويتزي أيَّ عقار، ولم تتخذ أيَّ خطوات مناسبة لامتلاك أيِّ عقار.

ليزداد الطين بلة، قضى والده عدة سنوات عاجزًا عن الحصول على ترقية في شرطة جنوب إفريقيا البريطانية. من جانب آخر كان والد كورتني ثريًّا يمتلك هكتارات من الأراضي الزراعية في إسيكسفال التي اعتمدت عليها الحكومة، ووالد راذرفورد رجل يمتلك الثروة والسلطة المؤثرة عبر مصانعه

التي شكّلت مصدر فخر لسيتي أوف كينجز والدولة، لم يجرؤ أي رجل نخبوي أو ضئيل الجسم على سؤال كورتني أو راذرفورد، «من أنت؟».

يستطيع أي شخص تخمين ما سيؤول إليه إيميل كويتزي.

حاول كورتني بطريقته تقديم المساعدة لإيميل عبر تشجيعه على مخاطبة كابريكورن أفريكا سوسايتي، لكن وعلى الرغم من الموافقة العامة على فكرته، كان أعضاء المنظمة على درجة عالية من النبل بحيث لم يتفوهوا بحقيقة شعورهم، أن إيميل كويتزي لم يكن الشخص المناسب لهذه الوظيفة، عندما علموا أنه وُلد في جنوب إفريقيا وعاد إليها بعد انتهاء الدراسة، قرروا أنه جنوب إفريقي في صميمه.

كان الأفارقة بحاجة إلى تاريخ، وكان لإيميل فكرة حول كيفية المضيِّ قدمًا في منحهم تاريخًا، لكن نظرًا إلى تاريخه الشخصي، لن ترى هذه الفكرة النور أبدًا، أحس إيميل بمفارقة ساخرة في وضعه، وأن ذلك كان شديد القسوة.

مع ذلك، وبتشجيع كبير من ماريفون، قرر إيميل أنه سيحقق حلمه، سيتطلب الأمر مجهودًا أكبر، كان مشروعًا هائلًا، لكنه يعرف أنه قادر على تحقيقه، أصبح الآن أفضل فهمًا لكيفية سير الأمور في الهيكلية الاجتماعية والسياسية لبلده، وأدرك حاجته إلى شخص آخر... شخصية مؤثرة أخرى... رجل ثري يملك عقارات ويؤمن بقدرته.

بناء عليه، سافر إيميل في طول أراضي أشتونبيري وعرضها ليحرص على الإعداد الأمثل لكل شيء، تجول كثيرًا في جنبات العقار التي كانت لا تزال برية، والتي كانت منطلق أحاسيسه بأنه على قيد الحياة، لقد أحبَّ الهدوء المضلل للسافانا، والذي قد يتحوَّل بطرفة عين إلى شيء متوحش لأنه لم يعرف تمامًا ما الذي يمكن أن يتوقعه، قوطعت أفكاره في أكثر من حادثة عبر حفيف أوراق أفضى به إلى مواجهة وحيد قرن أو نمر أو أسد، عندما يصبح الصياد طريدة، وبينما يقف شعره خوفًا، ويزداد ضخ الأدرينالين في جسده، ينظر إيميل إلى الوحش في عينيه ليحس بنشوة لا يضاهيها سوى الوجود مع امرأة... ليست أي امرأة. المرأة التي عرفت بالضبط ما الذي تريده منك... وما الذي تريده منها... واستطاعت استخدام هذه المعرفة لتدمرك...

ماريون...

الفصل الثامن عشر

لعب الزوجان أشتونبيري دورًا فاعلًا في تحقيق أحلام إيميل، ساعداه في التعرُّف على جميع الشخصيات الهامة، وبفضل صلته بهما، أصبحت تلك الشخصيات منفتحة على فكرته، مع ذلك وعلى الرغم من هذه المساعدة، اتضحت حاجة إيميل إلى شيء آخر؛ عليه أن يصبح واحدًا من السادة المحترمين، خطوة عملية واحدة فقط كانت كفيلة بتحويل إيميل كويتزي، الشاب الأعزب المولود في ديربان، والرجل الذي لا يمتلك عقارات، إلى واحد من السادة المحترمين في سيتي أوف كينجز، كان عليه أن يجد الزوجة المناسبة.

لم يمضِ وقت طويل بعدها حتى ظهرت تلك الزوجة متمثلة في كوكي سيدجويكَ ذات الثمانية عشر عامًا. دخلت كوكي إلى حياة إيميل في الوقت المناسب تمامًا لتحقيق رغباته، ستكون هذه هي المرة الوحيدة التي تستطيع فيها كوكي -بارَك الله قلبَها- تحقيق رغبات إيميل، كان هذا الأمر خفيًّا على كليهما في ذلك الوقت. تسارعت الأحداث خلال الخطبة، وحرصا معًا –كلٌّ لأسبابه الموجبة والمختلفة– على الزواج، وهو ما تم في غضون عام كامل من موعد دخول كوكي حياة إيميل.

لم تكن كوكي سيدجويك في دائرةِ اهتمامات إيميل خلال السنوات القليلة الماضية، كانت فتاة عادية طويلة قليلًا وتعوِّض عن ذلك بتخفيض كتفيها. كانت «ممتلئة نوعًا ما» لفترة، ولم تكن في الحفلات تضع أي شيء في فمها دون إلقاء نظرة خاطفة على والدتها أولًا، كانت من الحضور الدائمين للتجمعات، ووقفت في أركان الصالات تشرب شيرلي تمبل وترتدي الفساتين غير الملائمة لها على ما يبدو، على الرغم من ذلك وإضافة إلى كل ما فيها من صفات خرقاء، حظيت كوكي بشعبية واسعة بين الشباب، كيف لا، وهي من عائلة سيدجويك، لم تكن عائلتها ثرية وحسب، بل تجري في عروقهم دماء الرواد. لهذا وعلى الرغم من أن كوكي لم تكن جميلة جدًّا، فإنها كانت «صيدًا ثمينًا» للشباب، ولحسن حظها، امتلكت كوكي ميزة أخرى جعلتها أكثر جاذبية: امتلكت رغبة قوية بالمرح والدلال، كانت تضحك على كل نكتة يرويها الشباب، وعندما تضحك، يتخيل الشباب أنها ستصبح زوجة ممتعة وغير معقدة.

بالصدفة ومع احتفال كوكي بمرور سبعة عشر عامًا على ميلادها، بدأت حظوظها بالتغير؛ فقدت وزنها وأينعت إشراقتها التي كانت بعيدة المنال، بعد عدة أيام من احتفالها بعيد ميلادها الثامن عشر، وعندما قامت بدخولها الكبير إلى حفل كانت تعلم بوجود إيميل كويتزي فيه، شعرت بالرضا لأنها لفتت انتباه جميع من في القاعة، ومن بينهم إيميل. في وقت لاحق راحت تخبر صديقاتها:

- هل تذكرن التعابير على وجه مونتجومري كليفت عندما وقعت عيناه على إليزابيث تايلور في فيلم "مكان في الشمس"؟ هكذا نظر إيميل كويتزي إليَّ في تلك الأمسية.

لم تُعر كوكي بالًا لخوف معظم صديقاتها من الفيلم، والتحذيرات التي وصلتهن منه، كانت مسحورة بالإطلالة الوسيمة لمونتجومري كليفت بدلًا من الانتباه لأي مغزىً محتمل في الفيلم، جل اهتمامها بسرد قصة أسلوب إيميل في النظر إليها كان لإفهام صديقاتها أن إيميل، بمظهره السينمائي الوسيم، نظر إليها كما لو أنهما جزء من شيء تم إنتاجه في مصنع أحلام.

اتضح لإيميل أنها تحاول لفت انتباهه عشية أول لقاء بينهما، ولم يمنعها من النجاح في ذلك، عندما اتصل بمنزل سيدجويك بعد عدة أيام، تحدث إلى كوكي التي كانت مفتونة بالوقت الذي أمضياه معًا، وكانت توَّاقة إلى بدء علاقة معه.

كانت كوكي تصغره بعشر سنوات، لذا لم تكن علاقتهما من النوع الذي يألفه إيميل، كانت عفيفة بشكل قديم الطراز، شهدت لقاءاتهما ساعات مطولة من إمساك اليدين ومداعبة سريعة للخدين، كل ذلك بهدف زرع بذور الرغبة التي ستزهر بطريقة سحرية وانسجام هانئ ليلة الزفاف، وفوق كل ذلك، امتلكت كوكي فكرة محددة جدًّا عن نوع العلاقة التي ينبغي أن تربطهما، ولم تكن بحاجة إلى اقتراحاته مطلقًا، لم ينزعج إيميل من إدارتها للعلاقة، في الواقع كان مستمتعًا بها، بعد كل شيء كانت هذه علاقتها الأولى التي –ربما– تداعب أحلامها منذ الطفولة.

إلى جانب ذلك، كانت لديه ماريفون.

وضعت كوكي مخططًا جيدًا لعلاقتهما بأكملها، لدرجة أنها –وخلال الشهر الخامس– بدأت ترمي تلميحات غير دقيقة حول الزواج: توجد فتاة تعرفها من أيام المدرسة سمعت بأنها خُطبت، وهناك فتىً كان «يعشقها» تزوجَ مؤخرًا، وقريبة لها تسكن بعيدًا هربت لتتزوج ممن تحب، أكثر من مرة، ألمحت كوكي إلى حقيقة ولادتهما في نفس اليوم من عامين مختلفين: 18 أبريل 1927، و18 أبريل 1937، بما يعني أنهما مقدَّران لبعضهما... إلى الأبد، هكذا، عندما تقدَّم إيميل لخطبتها في ذكرى الشهر السادس على علاقتهما، والتي أحست كوكي بضرورة الاحتفال به، فإن أكثر ما فاجأها لم يكن الخطبة ولكن حجم حجر الألماس، من طريقة فتح فمها على شكل حرف «O» الذي لن يغلق لفترة طويلة جدًّا، اتضح أنها كانت تتوقع شيئًا أكثر تواضعًا، تفاجأ إيميل بدوره من وجود ألماس على الخاتم بالأساس، لقد كلفه شراء الخاتم من تي فوربس آند سانز ثلاثة رواتب وبيع عدة بنادق صيد.

بعد الخطبة سرعان ما اتضح لإيميل أن كل ما عليه فعله للزواج هو الظهور مرتديًا بدلة توكسيدو مصممة خصيصًا له، كوكي ووالدتها دوروثي ستتعهدان كل ما تبقى، تم تحديد الموعد، واختيار المكان، وتحديد قائمة الضيوف بدقة،

وصُمم مخطط الجلوس بعناية فائقة، وتم التعاقد مع أفضل متعهدي تقديم الطعام في سيتي أوف كينجز، مع قائمة مأكولات فاخرة مكوَّنة من سبعة أطباق.

في العام السابق، 1954، تزوجت بطلة كوكي، أودري هيبورن من ميل فيرير -استخدمت كوكي فارق السن بين هذين الزوجين لتبرر لعائلتها وأصدقائها سبب زواجها من إيميل-، ما منحها جعبة غنية بالأفكار لزواجها، كل ما كان عليها فعله هو العثور على أشخاص في سيتي أوف كينجز لمحاكاة ما جرى في حفل الزفاف الذي رأت صوره في مجلات الموضة، ومن شأن ذلك جعلها العروس الأكثر سعادة في العالم. ما دام عرس كوكي سيصبح مناسبة تتحدث عنه سيتي أوف كينجز عام 1955، وتحضيرًا له، أمضت كوكي وقتًا أقل وأقل مع خطيبها الذي لم يمانع ذلك.

الشائبة الوحيدة التي ظهرت خلال الاستعداد للزفاف تمثلت في الأشابين، كل ما توجَّب على إيميل توفيره هو ما اعتبرته كوكي ووالدتها «كبارًا في السن»: اللورد أشتونبيري وكورتني وراذرفورد، كل إشبينات العروس كن –بالضرورة– شابَّات، وكان من واجب العروس وضع وصيفاتها في الطريق للعثور على أزواج، ويفضَّل أن يكون من بين أصدقاء العريس، لم يكن أشابين إيميل كبارًا في السن وحسب، بل متزوجين أيضًا، قررت عائلة سيدجويك أنه من الأفضل وجود ستة شبان يقفون خلف إيميل عند المذبح، وكان الحل الأوسط هو أن يقف اللورد أشتونبيري في مكان الإشبين.

ومع صخب كبير في سيتي أوف كينجز، جاء موعد الزفاف أخيرًا.

كانت العروس متألقة، قضت ساعات طويلة حقًّا لتحرص على إطلالتها هذه، فكانت عروسًا استثنائية.

بينما كان إيميل يراقب كوكي وهي تمشي في الممر مع والدها، أحس بشيء في حلقه، يفترض بهذه المرأة الشابة أن تكون السبب في ارتقائه، ما سيجعله ممتنًّا لها دائمًا.

كان الاحتفال رائعًا: كانت العروس متألقة، وكان العريس أنيقًا ومنطلقًا، وكان الضيوف مندهشين، تم كل شيء على أفضل ما يرام، الشيء الوحيد الذي أثار انتقادات خفية هو الغياب الواضح لليدي أشتونبيري.

كان من المقرر أن يستمتع العروسان بشهر العسل في فندق فيكتوريا آند ألفريد أوتيل في كيب تاون، لهذا السبب انطلقا بالقطار من سيتي أوف كينجز في رحلة طويلة بالدرجة الأولى، شهدت الرحلة لحظات طويلة من إمساك اليدين، والتحدث مع الركاب الآخرين في عربة الطعام، والتباهي بالخواتم و– عند وجودهما في خلوة– تبادل بعض القبل السريعة التي لم تصل لدرجة إثارة المشاعر، من غير اللائق إتمام خطوات الزواج في جناح بالقطار، بغض النظر

عن كونه فاخرًا من الدرجة الأولى، كانت كوكي سعيدة جدًّا مع هذه العلاقة العاطفية، خلافًا لإيميل.

عندما وصلا إلى فندق فيكتوريا آند ألفريد أوتيل، عثر الزوجان على برقية من دوروثي تخبرهما باختيار كوكي عروس الأسبوع في ذا كرونيكل، عند سماع هذه الأخبار، غمرت كوكي البهجة لدرجة أنهما –وبمجرد دخولهما إلى جناح شهر العسل– اتخذا الإجراءات المناسبة لاستكمال خطوات الزواج.

في مرحلة ما، بدأت الأمور تسير في الاتجاه الصحيح، بدا أن كوكي تفهم الحاجة لما كانا يقومان به بشكل كاف، ولكنها لم تدرك ضرورة أن تستمتع به، في الحقيقة، لقد دفعت إيميل بعيدًا عنها في لحظات غير مناسبة، واندفعت نحو الحمام وأغلقت الباب خلفها.

كانت مستعدة فقط لفعل هذا الأمر بالطريقة التي أمر بها الله، أخبرته ذلك بصوت باكٍ عبر باب الحمام.

بالطريقة التي أمر بها الله؟

نعم!

وعيناها تنظران نحو السماء.

أوه...

و... و... لا يمكن أن تقبل شفتاها سوى شفتيه، و... و... لا يمكن أن تقبل شفتاه إلا شفتيها.

بالطريقة التي أمر بها الله؟

نعم! لقد فهمَت أن لديه... تاريخ... لكنها، بصفتها زوجته، توقعت احترامها طوال العملية.

لم تخرج كوكي من الحمام إلا بعد أن قطع إيميل وعدًا على نفسه بأنه سيحترم جسدها، وأمانيها ورغباتها.

وهكذا قضى الزوجان كويتزي ليلتهما الأولى كرجل وزوجته.

كانت كوكي سعيدة جدًّا مع هذه العلاقة العاطفية، خلافًا لإيميل.

الفصل التاسع عشر

عرف أن الهدية منها بمجرد رؤيته لها، وليست منهما، بل منها. كانت علبة هدايا ملفوفةً بورق ملون بين العديد من الهدايا الأخرى التي تلقاها الزوجان إيميل وكوكي كويتزي عند عودتهما من كيب تاون، لم تكن العلبة الأكبر على الطاولة، ولم تكن الأصغر أيضًا، تم اختيار حجم الهدية بعناية فائقة، يفترض بها أن ترمز إلى شيء ما، دون أن تعني الكثير، لم يكن إيميل مضطرًّا إلى رؤية خط يدها؛ فورق التغليف الملون كان كافيًا: قرمزي في بحر من الباستيل الذي لا روح فيه. كانت علبة جريئة، تمامًا مثل مُرسلتها، ماريون هارتلي.

أزال إيميل ورق التغليف بعناية، فلاحظ أن أصابعه ترتجف، هدِّئ من روعك يا رجل... ما الذي كان يتوقعه؟ كانت هدية زفاف له ولكوكي، وليست شيئًا مثيرًا للحماس، كان يتوقع شيئًا مفيدًا، تشكيلة أدوات أو محمصة خبز. بدلًا من ذلك، وجد مجموعة من خمس عشرة فراشة زجاجية غريبة وملونة بشكل مذهل، مرر إيميل إصبعه برفق على الفراشات كلٍّ على حدة، وأبدى إعجابه بالعناية التي تطلبها إتقان كل واحدة منها.

كانت الهدية جميلة جدًّا وشخصية لدرجة أن إيميل لم يعرف تمامًا ما يفعل بها، ثم انتبه إلى ورقة ملاحظات سماوية اللون تطوف برقة نحو أرضية الغرفة، فكاد أن يتوقف قلبه.

ربما تحتوي ورقة الملاحظة على شيء غير مؤذٍ مثل «ألف مبروك، ماريون هارتلي».

لكن، ربما لم يكن الأمر على هذا النحو.

ربما يكون هذا هو الشيء الذي سيكشف له –أخيرًا– ما تفكر به ماريون، وحقيقة مشاعرها تجاهه، بعد كل هذه السنوات، ما زال إيميل يودُّ معرفة رأيها، أراد أشياء أخرى بالطبع، لكن ذلك لا يمكن تضمينه في ورقة ملاحظات.

وضع مجموعة الفراشات الزجاجية على الطاولة بكل عناية، وانحنى لالتقاط ورقة الملاحظات بأصابع مرتعشة، ما جعل الأمر أشبه بعلاقة خرقاء.

لو لم يكن قلقًا لسخر من نفسه، وقد كان رجلًا لم يضحك على نفسه تقريبًا قط، بدا أن ماريون هارتلي تمتلك القدرة، بل القوة، على جعله يستكشف المسارات المختلفة لهذا الشيء الذي يسمونه الرجولة، حيث وجد نفسه فجأة، وهي المساحة التي لم يكن من السهل عليه دائمًا التنقل بين تضاريسها.

خط يدها، الذي يميزه بدقة منذ أن حمله معه أينما ذهب من سنين طويلة، كان لا يزال رائعًا وأنيقًا يميل نحو اليسار بتحد.

بغض النظر عن مكانها وانشغالها الحالي -تجادل بشغف حول نقطة ما في أحد اجتماعاتها أو تضع أحمر شفاه في منزلها رقم. 1 بايونير رود استعدادًا

للتخلي عن عاشق آخر- هل لديها أدنى فكرة عن قوة تأثيرها فيه؟ في تلك اللحظة السابقة، والآن، ودائمًا.

قرأ ما كتبته على ورقة الملاحظات:

«توجد سنوات لطرح الأسئلة، وأخرى للإجابة عنها».

– زورا نيل هيرستون.

طرَفَ إيميل بعينيه وهو ينظر إلى ورقة الملاحظات، ربما اتضح له الأمر أكثر لو أنها كتبت عن الفراشات، إن لم تكن الرسالة نفسها، إذًا فحقيقة أن الفراشات يفترض بها أن تكون استعارة مجازية عن الزواج، لكنها لم تكتب عن الفراشات، كتبت عن أسئلة وإجابات.

أرادت ماريون استخدام ورقة الملاحظات للتعبير عن شيء ما كتابيًّا، دون أن تصرح له بماهيته الحقيقية.

بأصابع مرتجفة، فتح إيميل جزدانه الصغير ووضع ورقة الملاحظات مع الأوراق الأخرى التي كُتبت على ورق سماوي اللون بنفس الخط الأنيق والمائل نحو اليسار، وسيحمل هذه الورقة معه في كل مكان، تمامًا كبقية أوراق الملاحظات.

أدرك إيميل جيدًا أنه في حال مثيرة للشفقة، وعرف أيضًا أنه المُلام في ذلك، كان سيشعر بحرج كبير من عجزه عن هزها لو لم يكن خاضعًا لقبضة شيء قوي بالفعل، في مرحلة ما على مدى سنوات معرفته بماريون، أصبح إيميل رجلًا يرتجف تحسبًا لما كتبته له امرأة، كان مدركًا لهذا التحوُّل في داخله، لكنه لم يفهمه تمامًا، لم يفهم نفسه، لم يفهم السبب في كونها هي من غيَّرته، وليس هو، لماذا هي دونًا عن غيرها. كانت ذكية، كانت جميلة، كانت مشوِّقة. كثيرات هن النساء اللواتي يتمتعن بنفس هذه الصفات، فما الذي جعلها مميزة؟ هل السبب هو لحظة تمت مشاركتها قبل سنوات، ووعدٍ تم قطعه في تلك اللحظة؟

في البداية، حاول جاهدًا أن يمضي قدمًا ليجد راحته في غزوٍ جديد، بعدئذ وعندما أدرك أنه عاجز عن تحرير نفسه من قبضتها، حاول علاج نفسه برسم خيالات ساخرة عن ماريون. ها هي ذي، هذه الليبرالية الحريصة على صورتها التقدمية لدرجة أنها قرأت بنهمٍ أعمال مؤلفين ذوي بشرة سوداء، يعجز أحد في سيتي أوف كينجز عن التفوق على الليبرالية ماريون هارتلي ذات القلب النابض في الاجتماعات، لكنه لم يستطع قط السخرية منها لفترة طويلة، لأنه يتذكر جيدًا الشغف الذي ناقشت به وجهات نظرها، ذلك النوع من العاطفة لا يوجد لإثارة إعجاب الآخرين، وإنما دليل على السلام الداخلي في قلب صاحبه.

والآن ينبغي مواجهة هذا الشيء الجديد، هذه الهدية القرمزية مع ملاحظتها التي تحمل الوعد بالإجابة عن الأسئلة.

قام إيميل بأصابع غير مرتجفة بفتح المزيد من الهدايا مدركًا لحالة الريبة المبررة التي ستقع فيها كوكي عندما تعود إلى المنزل وتجد هدية واحدة فقط مفتوحة، واكتشف محمصتي خبز، وجرس عشاء فضي، وفتاحة رسائل بمقبض عاجي مع مجموعة شاي كاملة من ماركة ويدجوود، لا بد وأن كوكي ستغمرها السعادة.

عدة مرات في اليوم، كان إيميل يخرج ورقة الملاحظة من جزدانه ليعيد قراءتها بعناية، كأنها شيفرة من نوع خاص، ما الذي كانت تحاول إيصاله إليه؟

عندما يعود إلى رشده، يذكِّر إيميل نفسه بأن الملاحظة لم تكن موجهة إليه وحده، بل لهما: له ولزوجته، ربما لم تتوقع ماريون أن يكون هو الشخص الذي يفتح الهدية، أيُّ زوج يقدم على مثل هذا الفعل؟ ربما كانت كوكي هي من تفتح الهدية وتقرأ الرسالة لترى في كلماتها مباركة بالزواج السعيد، كما هي حال معظم الملاحظات المرفقة بهدايا الزواج، وستتجاهل كوكي ورقة الملاحظة من شخص لا تعرفه بشكل جيد، كان احتمال عدم رؤيته وقراءته لورقة الملاحظات كبيرًا جدًّا، وماريون تعرف ذلك.

وجد هدية أخرى من الزوجين، كورتني وماريون، وهي من مستلزمات المطبخ العصرية جدًّا، والتي تم اختيارها من سجل زفاف كوكي، وشراؤها من متجر ميكلز متعدد الأقسام، كادت كوكي تطير فرحًا من تلك الهدية؛ فهي أكثر ما أرادت الحصول عليه، وقد حملت الهدية توقيعًا بسيطًا: «من ماريون وكورتني»، بنفس الخط الأنيق المائل نحو اليسار.

ما الذي دفع ماريون إذًا لإرسال هدية أخرى منها وحدها؟ لماذا الفراشات؟ ما الذي جعلها تكتب عن وعد تم الوفاء به؟ لا بد وأنها تقصَّدت أن يرى الملاحظة، ويفهم منها شيئًا، لكن ما هو هذا الشيء؟ بدأ هذا المخلوق البائس –إيميل– يتتبع بسبابته الخط المائل للكلمات، ويحاول قدر الإمكان تخيُّل كل أنواع الأشياء المستحيلة.

في النهاية لم يعرف إيميل ما يفعل بشأن ماريون، فقرر أن الحل الأفضل هو الابتعاد عنها، عدم رؤيتها هو الحل الأكثر أمانًا للتأكد من حفاظه على عقله.

لم يمض وقت طويل على اتخاذ هذا القرار حتى تمت دعوة السيد والسيدة كويتزي إلى حفل في منزل كورتني وماريون لسوء الحظ، سارعت كوكي ببراءة إلى الموافقة على الدعوة وأبلغت إيميل أنهما سيحضران فقط بعد أن وضعت البطاقة في صندوق البريد، لا يمكن لأحد أن يلوم كوكي؛ فمن مهامها كزوجة أن تتولى تنظيم حياتهما الاجتماعية، لذا قرر إيميل أنه سيقضي الحفلة كلها متجنبًا التحديق إلى ماريون، والاستعاضة عنها بالنظر إلى كوكي.

وفاءً بوعده، بدا إيميل للجميع في ذلك المساء منهمكًا في الاعتناء بعروسه، وبما أن كل شيء سار وفقًا للخطة، كان واثقًا من أن الأمسية ستنتهي بشكل جيد دون أي إحراج، أحس بالأمان من هذه الثقة، وربما بالغ في هذه الثقة،

حتى دخل إلى الحمام ورآه... معلقًا بتراخٍ ولا مبالاة على عمود الحمام، أليس هذا حمام الضيوف؟ فكر إيميل عندما وقَعت عيناه عليه، هذا الشيء الشفاف والمتلألئ الذي أغراه بتوسل للاقتراب واللمس، لماذا هو هنا، لماذا تركَتْه هنا؟

عقله الواعي أخبره أنه مجرد ثوب نوم ماريون، وربما نسيَتْه دون قصد نتيجة انشغالها بالحفل، لكن مجددًا فيما يخص ماريون، لم تكن عقلانية إيميل تدوم طويلًا، ربما خمنت بأنه سيدخل حمام الضيوف، فتركت ثوبها بحيث يستطيع رؤيته ولمسه، واصل هذا الشيء اللامع والشفاف إغواءه، فاستجاب للنداء، ذهب إليه ولمسه... وكاد يلتهمه بعينيه... وغمر وجهه فيه... تنفس رائحته، فاحت منه رائحة الأشياء التي أراد تذوقها: الفانيليا وجوز الهند، وذلك الأريج الاستوائي الحلو والخطير، كاد إيميل يبكي من فرحته.

راقبَ يديه بخبَلٍ وهما تحملان ثوب النوم، وتمزقانه.

تفاجأ تمامًا من عنف فعلته، كان سعيدًا ومرحًا، فمن أين جاء هذا العنف؟

رمى الثوب على الأرض –ثوب النوم البائس هذا الذي نسيته صاحبته بإهمال، وانتهكه شخص غريب تمامًا– ثم مشى بعيدًا عنه.

أحس إيميل بالخوف يعتريه، خاف مما كان قادرًا على فعله، حسمت هذه الحادثة الأمر؛ لن يرى ماريون مجددًا أبدًا.

الفصل العشرون

حقيقةُ أن إيميل لن يرى ماريون مجددًا لا تعني أنه لن يلتقي كورتني، هذا الشيء الذي يجمعهما موجود حتى قبل ماريون، وسيبقى حتى دون وجودها، وهكذا، واصل إيميل وكورتني الالتقاء في قاعة البلياردو من نادي جنتلمانز كلوب للسادة المحترمين، كان كورتني من أعضاء النادي خلافًا لإيميل الذي اعتاد الحضور والجلوس في قاعة البلياردو بصفته من ضيوف كورتني.

نادي جنتلمانز كلوب للسادة المحترمين، بسياسته الصارمة المتمثلة في عدم السماح للنساء والكلاب والسكان الأصليين بالدخول، كان مكانًا أحب كورتني ارتياده، كورتني نفسه الذي دافع بقوة عن حقوق المرأة وضرورة تحقيق المساواة بين الجنسين، وكورتني نفسه الذي مثَّل مشاهد استقطبت آراء النقاد من مسرحيات شيكسبير -هاملت ذي البشرة السوداء وكلاوديوس ذي البشرة البيضاء، عطيل ذي البشرة البيضاء، وديدمونة ذات البشرة الملونة وإياجو ذي البشرة السوداء، لير الأنثى التي لديها ثلاثة أبناء، الليدي ماكبيث التي تستعد لتكون أول ملكة، وماكبيث الذي يدفعه جشعه للعرش نحو تخريبها- في مسرح ريبيرتوريثياتر، والذي أشادت به ذا كرونيكل بصفته «صوت العصر الحاضر»، وكورتني نفسه الذي اعتقد أن العنصرية يجب أن تصبح شيئًا من الماضي، وكورتني نفسه الذي تطوَّع في جمعية الرفق بالحيوان ودعا علنًا للتعامل مع الحيوانات بطريقة أفضل هو نفس كورتني الذي أحب امتياز شرب توم كولينز وتدخين سيجارة في قاعة البلياردو من نادي جنتلمانز كلوب للسادة المحترمين، كما يفعل الآن، والتحدث عن الأعمال مع رجال أوروبيين آخرين، وهو يعلم طوال الوقت أنه من غير المسموح للنساء أو الكلاب أو السكان الأصليين بالدخول إلى المبنى، كغيرهم من البشر؛ لم يعرف الليبراليون حقيقتهم، وكغيرهم من البشر، يمكن أن يكونوا متناقضين مع أنفسهم، على أي حال، لم يكن إيميل من الرجال الذين تزعجهم تناقضات الآخرين.

ربما كان اختيار كورتني طبيعيًّا من منظور آخر، ربما كان النادي أكثر وجهاته أمانًا في سيتي أوف كينجز بأكملها، لن يضطر هنا للقلق من مصادفة ماريون مع أحد عشاقها، بغض النظر عن مدى انفتاح كورتني، فإن رؤية ماريون مع حبيبها ستؤذيه بالتأكيد، كان إيميل متأكدًا من ذلك، نظر إيميل إلى أركان النادي، فوجده مكانًا لن تودَّ ماريون الوجود فيه أبدًا، يمكنه على الأرجح التغاضي عن رسوم العضوية المرتفعة جدًّا، والانضمام إلى النادي.

جر إيميل أفكاره بعيدًا عن ماريون مع بعض الجهد، وحاول التركيز في الأسباب التي دفعته لطلب مقابلة كورتني، لقد حان الوقت لتنفيذ خطته في

منح الأفارقة تاريخًا.
سأل كورتني:
- هل ما زال اللورد أشتونبيري يدعم الفكرة؟
أومأ إيميل برأسه.
- حتى بعد كَبْوته مع الليدي أشتونبيري؟
جفل إيميل من كلمة «كبوة»، كانت ماريفون تستحق أفضل من ذلك.
تقدمت الليدي أشتونبيري بطلب الطلاق من اللورد أشتونبيري، وقد أصابت الفضيحة التي تلت ذلك مدينة سيتي أوف كينجز بالذهول.
على الرغم من أنهما -اللورد أشتونبيري وإيميل- توسلا لتوقف الليدي أشتونبيري إجراءات الطلاق، فإنها أصرت عليه، وبقلب مكسور ومذلول لم يكن أمام اللورد أشتونبيري أي خيار سوى منحها الطلاق، وتركها دون أي شيء تقريبًا، غادرت مزرعة وعقارات أشتونبيري، وذهبت لتعيش في كوخ في تنث أفنيو باسمها قبل الزواج، ماريفون دي رازبريدجر، وقف سكان سيتي أوف كينجز حائرين فيما قد يفعلونه، يودون متابعة حبها، لكنها لم تعد الليدي أشتونبيري، فما كان أمامهم سوى تجنبها بشكل عملي.
كان إيميل يحقق خطوات حقيقية نحو إقامة مؤسسته، ولهذا السبب لم يكن قادرًا على تحمُّل تبعات طلاقه من كوكي، ليس الآن، وبالتأكيد ليس لأجل ماريفون دي رازبريدجر. إضافة إلى ذلك، حاول بصدق ثني ماريفون عن المضيِّ قدمًا في إجراءات الطلاق. لذلك وعندما دمرها الطلاق لم يشعر حقيقة بأنه الملام بشكل كامل.
لم يعلن اللورد أشتونبيري والليدي أشتونبيري سبب طلاقهما، وقد شعر إيميل بأنه مدين جدًّا لهما على ذلك، لكن بالطبع انتشرت الشائعات والأقاويل في سيتي أوف كينجز حول علاقة عاطفية جمعت الليدي أشتونبيري وإيميل كويتزي، ووصلت الأخبار إلى مسامع الجميع، بمن فيهم كوكي.
استطرد كورتني:
- إذا كان اللورد أشتونبيري يدعمك، فأنت في أمان، سيرغب الجميع في إظهار دعمهم لك أيضًا.
كان إيميل ممتنًّا لأن اللورد أشتونبيري كان سيدًا محترمًا فيما يخص مسألة العلاقة العاطفية مع ماريفون. ربما كان يحفظ ماء وجهه عبر مواصلة دعمه لفكرة إيميل، كان يضمن حصول مشروع إيميل على ما يكفيه من تمويل للانطلاق.
قال كورتني ضاحكًا:
- يا لك من محظوظ، عندما بدأت مع الليدي أشتونبيري، كيف تخيلتَ ما ستؤول إليه الأمور؟

هز إيميل كتفيه وحاول إبعاد المحادثة عن حياته الشخصية، وقال: - إذًا، كنت أحاول الوصول إلى اسم، ما رأيك في "مؤسسة شؤون السكان الأصليين"؟
- تبدو شديدة الشبه بوزارة شؤون السكان الأصليين، قد يضع الاسم الأفارقة في حيرة من أمرهم، لكنني أحب وقع اسم «المؤسسة».
قالها كورتني وهو يدخن سيجارته ويغمض عينيه في حالة تركيز.
- ما رأيك باسم "مؤسسة الشؤون الداخلية"؟
- يبدو اسمًا لنادٍ اجتماعي نسائي، شيء تودُّ كوكي الانضمام إليه.
- لا تتسرع... خذ وقتك في التفكير في الاسم.
هز إيميل رأسه بلا مبالاة.
- أيًّا كان الاسم، ما يشغل تفكيري الآن هو ضرورة الابتعاد عن أيِّ تدخل حكومي.
حدَّق كورتيني إلى إيميل لفترة طويلة عبر دخان سيجارته، ثم هز رأسه باحترام: - سعيدٌ لأنك توصلت إلى هذا القرار، أشعر أنك بصدد إقامة شيء مهم حقًّا.
في تلك اللحظة أدرك إيميل مدى عظَمة المشروع الذي يعمل على إطلاقه، كان مسعىً جريئًا حقًّا، مؤسسة شؤون السكان الأصليين... مؤسسة الشؤون الداخلية... أيًّا يكن اسمها فإنها من سيرتقي به نحو آفاق أكثر علوًّا، كان قادرًا على الإحساس بها.
قال كورتني:
- يمكنك البدء بمكتبين في سينكلير كورت، وتنطلق من هناك، سأحرص على ألا يتقاضى منك والدي أي إيجار عن الشهور الثلاثة الأولى.
في البداية اللورد أشتونبيري، والآن كورتني سميث سينكلير، لم يصدق إيميل حظه الجيد في حصوله –بطريقة أو بأخرى، ودون أيِّ ميزة خاصة به– على دعم اثنين من السادة المحترمين الحقيقيين.
لم يقصد إلحاق الأذى باللورد أشتونبيري، لكنه فعل ذلك، كان يقصد إيذاء كورتني، لكنه هو الشخص الذي تعرَّض للأذى، عاملهما بخِسة، وبدلًا من تدميره جراء خيانته، أظهرا له أنهما رجال أفضل منه.
ما الذي يمنعه من أن يكون مستقيمًا وحقيقيًّا مثل هذين الرجلين؟ ما الذي يمنعه من أن يكون سيدًا محترمًا؟ ما هي نقطة ضعفه التي تمنعه عن الارتقاء فوق كونه مجرد إيميل كويتزي آخر؟
ها هو ذا مجددًا، يشعر بالضعف حيال نفسه... ويحاول... ويفشل في رؤية الأمور بكليتها، لقد سئم من هذه الحالة. هل يُعقل أن تصبح النفس لغزًا محيرًا لصاحبها؟
- هل مزقتَ ثوب نوم ماريون؟

تفاجأ إيميل تمامًا بهذا السؤال الذي طَرح ببراءة.
كان بمقدور إيميل الكذب، لكنه لم يرغب في ذلك، ومن ناحية أخرى لم يستطع أن يجد الكلمات المعبرة عن مبرراته لما فعل. سأله إيميل: - ما الذي يجعلني صديقًا لك حتى الآن؟ على الرغم من كل ما تعرفه عني، ما الذي يجعلك تهتم؟
- كل ما أعرفه عنك؟ ما الذي أعرفه عنك؟
سئم إيميل من اللف والدوران.
- أنت تعرف أنني خنتك مع زوجتك، وتعلم أنني مزقتُ ثوب نومها، وتعرف أنني شخص عديم النفع... ومع ذلك، ما زلت تعتبرني صديقًا لك.
- عشنا مرحلة الصبا معًا.
- هذا ليس مبررًا لكل هذا الغفران...
- لا... إنه لا يعذر أو يغفر أي شيء، ولكنه من ناحية أخرى، يجعلني أفهم.
- تفهم! تفهم ماذا؟
كان كورتني على وشك أن يقول شيئًا، قبل أن يتخذ قرارًا معاكسًا ليقول: - ماريون تعتقد بأنك تكرهها، تظن بأنها السبب الذي جعلك تمزق ثوب النوم.
فكرة أنه قد يكره ماريون كانت تبعث على الضحك.
- أنا لا أكره ماريون.
بهدوء، وفي خضم تيار مستمر من التعاطف والتفهم، قال كورتني: - إذًا، هذا ما في الأمر.
نعم، هذا ما كان الأمر عليه.
- لطالما افترضتُ أنك لا تحب النساء بشكل خاص. أعرف أنك تقدِّرهن جسديًّا، لكن نهم شهيتك جعلني أعتقد أنك لا تهتم بالمرأة على المستوى العاطفي. لطالما اعتقدت...
قال إيميل الذي لم يرغب في سماع المزيد عن اعتقادات كورتني وظنونه: - يمكنك أن تبرحني ضربًا لو أردت، يعلم الله أنني أستحق ذلك.
كانت الصورة المرسومة له مثيرة للشفقة إلى درجة لم يتحملها إيميل.
نظر كورتني إلى إيميل بعينين يملؤهما حزن العالم، كان رده الوحيد: - عشنا مرحلة الصبا معًا.

الفصل الحادي والعشرون

بين عامي 1956 و1960 كان إيميل مقتنعًا بقضاء أيامه ولياليه بعيدًا عن الصخب، اعتاد قيادة سيارته في مسارب ترابية وأزقة ضيقة من الشوارع الطينية التي تجوب القرى، والعقارات الزراعية، ومجمعات التعدين، والبلدات ومحطات البعثات التبشيرية، ويتحدث إلى الأفارقة ليخبرهم بمدى أهمية التسجيل لدى مفوَّضي شؤون السكان الأصليين والمشرفين الميدانيين، ويبين لهم مسوغات الإبلاغ عن جميع المواليد والوفيات، وحالات الزواج والطلاق، والحضور إلى المدرسة والعمل، كان يحث البالغين على تدوين معلومات حول أنفسهم وحول أبنائهم، وحول جميع المتوفين ممن تُعرف تفاصيل عن سيرتهم الذاتية.

تساءل الأفارقة عن مكامن الاختلاف بين مهمة مؤسسة الشؤون الداخلية وأعمال المفوَّضين والمشرفين. أخبرهم إيميل أن الدافع الرئيسي للمؤسسة من جمع هذه المعلومات هو إنشاء تاريخ للأفارقة، وعندما يعبسون ويتمتمون في الأمر -وهي ردة فعلهم الدائمة- كان إيميل يلجأ إلى قصة ديزي، كان إيميل يبدأ بقصتها التي تتوه تفاصيلها مع الحقائق، وبعد إخفاقه في المجادلة حول حقيقة أن الأفارقة لا يمتلكون تاريخًا، توصَّل إيميل إلى حقيقة أنهم يفضلون القصص على الحقائق، لذلك بات ينهي حديثه بقصة ديزي، لم تفشل هذه الطريقة قط، تركت ديزي –أو حياتها العابرة بشكل أكثر دقة– انطباعًا دائمًا، لأنها قُتلت في ظل شح المعلومات عن حياتها ليفر القاتل دون عقاب، أدرك «جمهوره» حاجتهم إلى تدوين حياتهم.

اكتشف إيميل أنه يخاطب الأفارقة بسهولة، لم تتعرق راحتا يديه، لم يكن مضطرًّا إلى ارتداء بدلات غير مناسبة حتى يؤخذ على محمل الجد، يمكنه ارتداء ملابسه ذات اللون الكاكي وقبعة الكاو بوي، ويتكفل بياض بشرته بالباقي.

لأن الآخرين أخذوا كلامه على محمل الجد، بدأ يأخذ نفسه على محمل الجد أيضًا، صحيح أنه يمتلك الكثير من خصال جده، لكن هذا لم يعكس حقيقته، كان رجلًا ذا رؤية، كان رجلًا قادرًا على تحقيق إنجازات عظيمة، وترك بصمته، وصناعة التاريخ.

مؤسسة الشؤون الداخلية كانت قدَره، إنها المكان الأمثل بالنسبة إليه، حيث يسافر عميقًا في البراح الإفريقي. الطريقة التي ملأ فيها هو –هذا الشخص دائم التخبط والتساؤل– منصبه أثبتت أن المؤسسة كانت هدف حياته طوال الوقت.

تمنى إيميل أن يستمر هذا الوضع إلى الأبد، لكن ولأسباب مفهومة لا يمكنه ذلك، جمع اللورد أشتونبيري والأشخاص الذين يودون إرضاءه ما يكفي من المال لتحظى المؤسسة بمبنىً خاص بها، بدأ البناء عام 1960 واكتمل عام 1961، اضطر إيميل إلى الإشراف على عملية البناء، ما دفعه بعيدًا عن مساراته المطروقة، برج ذا تاور ذو الطوابق العشرة، والنوافذ الكبيرة والتصميم المعماري الحديث، كان مثيرًا للإعجاب، وأصبح لفترة من الزمن واحدًا من معالم الجذب في سيتي أوف كينجز.

استكمال ذا تاور لم يكن سريعًا، كانت المكاتب الأربعة في سينكلير كورت – والتي تفَضل كورتني بتقديمها- مليئة بالوثائق، ضم كادر العمل ستة موظفين تتلخص مسؤولياتهم في جمع المعلومات، وسرعان ما أصيبوا بالارتباك. حققت المؤسسة نجاحًا باهرًا، وكان عليها النمو، بحلول عام 1963 ضمت المؤسسة خمسين موظفًا إداريًّا وعشرين وكيلًا ميدانيًّا، وتم شغل جميع الطوابق العشرة في البرج، وجد إيميل نفسه على مضض محبوسًا خلف مكتبه، مشغولًا جدًّا بالإشراف على الموظفين، وتسيير الأعمال الناجحة للمؤسسة.

كان محتجزًا في غرفة لم يكن له يدٌ في تصميمها الرائع، تولت كوكي هذه المهمة بأكملها، هي التي أدركت أهمية المظاهر، وحددت نوعية أثاث الغرفة، اختارت الألوان الأخضر والأحمر والأبيض، والتي أسمتها الزمرد والبرغندي والآيفوري، اختارت مفروشات الماهوجني الغنية، انتقت اللوحات والجوائز التي تم تركيبها على الجدران المكسوة بخشب الساج، بعدئذ وبعد الانتهاء من الفرش الأنيق للغرفة انتهى اهتمام كوكي بمؤسسة الشؤون الداخلية.

كانت مؤسسة الشؤون الداخلية تُدار بكفاءة ونجاح لدرجة أن إيميل كويتزي على ما يبدو أصبح بين عشية وضحاها واحدًا من أكثر الرجالات أهمية في سيتي أوف كينجز والدولة، أصبح شخصية ذات سلطة على «الأفارقة»، انتقلت أخباره تدريجيًّا إلى الصفحة الأولى من ذا كرونيكل، حيث تُنشر اقتباسات من تصريحاته. الرجال الذين سألوه بفظاظة «من أنت؟» أصبحوا الآن يتملقونه للحصول على خدماته، ويدعونه للتحدث في جمعياتهم واجتماعاتهم.

إيميل كويتزي من ديربان، ناتال، كان مدركًا تمامًا لانعكاس حظوظه.

الفصل الثاني والعشرون

في أواخر صيف عام 1958، كان حَمْل كوكي بيِّنًا كوضوح عشقها لأغاني الأخوين إيفرلي، كانت تكرر أغنيتيهما «ويك أب ليتل سوزي» أو «باي باي تو لوف» في مختلف أركان المنزل، بغض النظر عن مفاجأة الجميع ومن بينهم إيميل كانت كوكي سعيدةً جدًّا بزواجها ولا شك، بدأت حياتها الزوجية بشكل جيد عندما اختيرت عروس الأسبوع، وعروس الشهر، وعروس العام، وعروس الدولة وملكة العرائس -مع همساتٍ تتوقع فوزها بلقب أفضل عروس في العقد، وربما، أفضل عروس في القرن-. على أي حال وبحلول عام 1956، اهتزت أركان هذا الزواج بفضيحة طلاق الليدي أشتونبيري.

من الصعب معرفة شعور كوكي عندما وصلها خبر هذه القضية لأنها لم تواجه إيميل قط. واختارت بحرص الذهاب مع والديها إلى أوروبا ما بعد الحرب في جولة امتدت لثلاثة أشهر، ربما كانت جولتها تلك مستوحاةً إلى حد كبير من فيلم رومان هوليداي[(43)]. بدت كوكي بعد عودتها أكثر سعادة بزواجها من ذي قبل، وسرعان ما أخبرت إيميل بعبارات واضحة أنها تودُّ إنجاب طفل.

في الحقيقة كان إيميل مرتاحًا في البداية لعدم حصول مواجهة مع كوكي بشأن الليدي أشتونبيري، إلا أنه سرعان ما اشتبه بوجود خطب ما في الطبيعة المتسامحة التي عُرفت بها كوكي، ورغبتها في الدلال.

أي نوع من الزوجات هي تلك التي لا تتخذ أي موقف ضد خيانة زوجها؟

زوجةٌ تحب زوجها، ولكنها لا تحب بالضرورة الرجل الذي تزوجته.

على ما يبدو، أدرك إيميل هذا التناقض متأخرًا، استرجَع الأوقات التي قضياها معًا، ورأى كوكي تدخل إلى الغرفة في حفل العشاء حيث التقيا أول مرة، شاهدها وهي تسعى إلى لفت انتباهه، تذكَّر خطبتهما السريعة، وحفل زفافهما الفاخر، وشهر عسلهما شبه الكارثي، تذكَّرَ انتقالهما للعيش في المنزل المكوَّن من طابقين، والذي اشتراه والدها لهما في ضاحية بروكساید الجديدة والعصرية، والتي بنيت في حقبة الازدهار بعد الحرب، شاهدها وهي تفرش الغرف بالطريقة التي صورتها صفحات المجلات المعنية بالتدبير المنزلي، رأى إيميل باختصار أن كوكي تعيش الحياة التي لطالما حلمت بها، وتحقيقًا لذلك توجَّب عليها العثور على زوج في أقرب وقت ممكن بعد انتهاء الدراسة، أيُّ زوج كان سيفي بالغرض، لكن إيميل كان بعيدًا جدًّا عن دائرة أصدقائها لدرجة الغرابة، هذا هو السبب الذي دفعها لاختياره، لم تختره لأنه إيميل كويتزي، بل لأنه مختلف عن أزواج صديقاتها، خمن أن زواج كوكي منه تم لمجرد أن أودري هيبورن اختارت الزواج من رجل يكبرها باثني عشر عامًا.

أدرك إيميل أن كوكي تزوجت بما ينسجم مع فكرتها حول الزوج، وليس الحقيقة الفوضوية لوجود رجل حقيقي كزوج لها، ومع الوقت عرف إيميل أنه جاء ليستكمل سعادة كوكي، كان زواج والديها ناجحًا، لذلك اعتقدت أن زواجها سيكون ناجحًا بالضرورة، ظنت أن حياتها كانت تسير وفقًا لقدرٍ مرسوم ما جعلها بعيدة عن التصرف بعفوية، لم تكن مضطرة إلى الشك، ولَم يكن عليها اتخاذ أي ردة فعل عكسية بشأن أخبار خيانة زوجها، فليغازل النساء الأخريات إن أراد، طالما أنها ستبقى الأميرة في القصر، سيأتي أميرها في النهاية ليوقظها بقبلة، ويؤدي واجبه معها، ويصبح بعدها حرًّا في الخروج والقيام بكل ما يشاء، مع من يريد.

لو لم يتزوجها طمعًا في الاحترام الذي تتمتع به عائلتها، لشعر إيميل بقسوة المعاملة.

مع ذلك كان الوقت كفيلًا بتغيير هذا الفهم من جانب إيميل، لم يمانع إيميل ارتباط كوكي به لمجرد أن تحصل على الزوج الذي تستكمل معه حياتها التي تسير وفق قدَرٍ مرسوم، ولم يعترض مطلقًا على عدم محاولتها الخروج عن نص هذه الحياة المحددة مسبقًا.

تمكَّن إيميل أخيرًا من خلال كوكي من تقدير السبب الحقيقي لانجذابه نحو ماريون، لم تكن ماريون من النوع الذي يتبع مسارات الحياة ببساطة، كانت تختار تلك المسارات، وتلك الخيارات لم تحددها أحدث المجلات؛ وإنما الأشياء العزيزة عليها تلك الأشياء التي جادلت بشغف دفاعًا عنها، خلال الوقت الذي قضاه معها في المنزل رقم 1. بايونير رود اتبعت ماريون إملاءات جسدها – أمتَعَت واستمتَعَت دون أن تعير بالًا لكلام المجلات حول السلوكيات السليمة للمرأة، كانت ماريون تتصرف على سجيتها دون أسف، استطاع إيميل من خلال كوكي أن يرى ماريون بارتياحٍ كاملٍ لأول مرة.

ربما استطاع إيميل تحمُّل حياته الزوجية مع كوكي لو أنها حاولت أن تعرِفه على الأقل، أو تقدِّره كشخص. ها هو ذا وبعد كل هذا الصراع الطويل مع نفسه ومع سيتي أوف كينجز بات قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلمه، لكن كوكي لم تُظهر أي اهتمام به على الإطلاق، حاول إخبارها عن ديزي وقصتها الملهمة، لكن كوكي غطت أذنيها وأخبرته أنها لا تحب سماع أي أشياء مزعجة.

بالنسبة إلى كوكي كان زواجهما شيئًا مثاليًّا جدًّا لدرجة ينبغي أن يستقطب إعجاب العالم الخارجي، أحس إيميل أن حياته مع كوكي أشبه بالعيش في كرة الثلج الزجاجية التي تحتوي تصويرًا عن الحياة الزوجية السعيدة، ممنوع على أيٍّ كان التقاط هذه الكرة وهزها، وتعكير صفو محتوياتها ولو لفترة قصيرة.

مثل هذه الحياة المنعزلة دفعت إيميل للشعور بالقمع، عجز في أحد الأيام عن تمالك نفسه فالتقط كرة الثلج الزجاجية وهزها بقوة، بينما حاول جاهدًا مقاومة رغبته الشديدة في رميها على الأرض، شعر بشيء يتكسر في داخله،

أخبر كوكي أنه تزوجها طمعًا في اسم عائلتها، وأنه لم يشعر بالانجذاب نحوها في السابق، بيَّن لها رأيه في أنها لم تتزوجه لشخصه، بل لفكرة وجود رجل في حياتها، وكيف أراد أن يصبح أكثر من مجرد فكرة، كيف أراد أن يكون شيئًا حقيقيًّا في حياتها.

رجا إيميل أن تدفع هذه المواجهة كوكي نحو النضج لمواجهة الحياة الحقيقية التي عاشاها معًا، وليس الفانتازيا التي تخيلت فيها حياتها الزوجية، لكن كوكي لم تحقق أماني إيميل، كل ما فعلته كان التوقف عن الغناء في مختلف أركان المنزل، استيقظت «ليتل سوزي» من نومها أخيرًا.

رومان هوليداي فيلم أمريكي يمزج بين الرومانسية والكوميديا من إخراج وليام وايلر. –مصادر من الإنترنت. (المترجِم)

الفصل الثالث والعشرون

وُلد الطفل صبيًّا، وأراد إيميل أن يسميه فريدريك تيمنًا ببطله فريدريك كورتني سيلوس، وأرادت كوكي أن تدعو صغيرها إيفرلي على اسم الأخوين إيفرلي، عندما أصر إيميل على اسم فريدريك وبعد انتهاء نقاهتها في مستشفى ماتر دي هوسبيتال، ذهبت كوكي مع الطفل إلى منزل والديها، لم تمض عدة أيام حتى اتصل والد كوكي ريجينالد، بإيميل ليذكّره أن كوكي لم تطالبه بشيء في الماضي، كانت تلك طريقة محترمة من ريجينالد للقول إن كوكي لم تثر ضجة بشأن الليدي أشتونبيري أو أي علاقات عاطفية أخرى قد تكون خفية، وأنهم يتوقعون منه تحقيق هذه الأمنية الوحيدة لكوكي.

بعد بضعة أشهر، تم تعميد الصبي باسم إيفرلي ريجينالد كويتزي.

مرة أخرى تسير حياة كوكي وفقًا لخطتها، وعادت إلى الغناء في أركان المنزل مجددًا، في هذه المرة وجدت مبررًا أكثر استدامة للاحتفال.

عشقت كوكي هذا الصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك، أصبح بمجرد ولادته مركز الاهتمام في حياتها، قالت في أكثر من مناسبة إن ولادتها أصلًا كانت بهدف جلب هذا المخلوق الرائع إلى العالم، تساءل إيميل أكثر من مرة عما إذا كانت كوكي قد تزوجت أصلًا لمجرد أن تختبر طعم الأمومة، كأم رتبت كوكي حياتها حول الصبي، واصطحبَته معها دائمًا: إلى منزل والديها، وإلى منزل والدي إيميل، وإلى هادون آند سلاي تي روم، وإلى مسرح مونتي كارلو، وإلى صالون ليديز أوف ديستنكشن هير سالون لتصفيف الشعر، وإلى اجتماعات جمعية بايونير سيتي أوف كينجز الخيرية، وإلى حمامات السباحة التابعة للبلدية، وإلى متنزه المئوية، كانت تحب أن يستوقفها الناس في الشارع لإبداء إعجابهم بالصبي، كل من رآه يؤكد أنه طفلٌ جميل.

الصور الوحيدة لإيميل وكوكي معًا كانت تلك الملتقطة في يوم زفافهما وشهر العسل. قبل ولادة الصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك، كانت تلك الصور تزين بفخر رف الموقد في غرفة المعيشة، كان إيميل وكوكي زوجين وسيمين فعلًا، لكن الرف خضع للتغيير بعد ولادة الصبي، كان لا بد من تسجيل كل ما يفعله الصبي، أول رضاعة له، وأول تجشؤ، وأول ابتسامة لثوية، وأول وجه مضحك، وأول بكاء وأول مسكة لإصبع أمه، كل تلك الأدلة كانت موجودة على رف الموقد.

بحلول عيد مولده الثاني تم تخصيص ألبوم كامل للصبي، كان نجم العديد من الأفلام قياس 8 ملم: الخطوات الأولى للطفل إيفرلي، الكلمات الأولى للطفل إيفرلي، أول حفل لمولد الطفل إيفرلي، كما تم تصوير فيلم لإيميل نائمًا على

الأريكة والصبي غافٍ على صدره، كانت كوكي فخورة بعرض هذا الفيلم تحديدًا على الضيوف.

عندما وُضع الطفل حديث الولادة بين ذراعي إيميل أول مرة في مستشفى ماتر دي هوسبيتال اختبر إيميل حبًّا عميقًا لدرجة لا توصف، تعجز الكلمات عن وصف ما أحس به تجاه الطفل، كان منبهرًا من شدة العاطفة التي تركته في رعبٍ دائم، كيف يمكن له، إيميل كويتزي، أن يسهم في جلب مثل هذا الشيء المثالي إلى الحياة؟

في البداية كان الحجم الصغير للصبي مبعث قلقٍ لإيميل، ماذا لو لم يستخدم اللطف الكافي في التعامل مع مثل هذا الشيء الرقيق؟ نتيجة لذلك، نادرًا ما حمل إيميل صغيره، وكانت حركاته حذرة دائمًا، إلى أن نما الطفل قليلًا فأصبح أكثر راحة في التعامل معه، بدت ملامح الصغير أكثر شبهًا به إلى حد ذكَّره بطفولته، ذلك الـ إيميل الصغير الذي عاش في ديربان خلال سنوات ضبابية الذكرى.

أسس إيميل بشيء من التردد نوعًا من العلاقة مع الصبي، اعتاد إيميل في الرحلات الطويلة التي جاء للاستمتاع بها الجلوس في مقعد السائق، وإخبار الصبي الجالس مع كوكي في المقعد الخلفي بأسماء جميع الأشجار والحيوانات التي صادفها، وتشجيع الصغير ليرددها من بعده، أحب إيميل أن يكون ينبوع المعرفة لابنه، عندما كانوا يقطعون شوارع سيتي أوف كينجز أو يزورون مختلف فعاليات المعرض الزراعي كان إيميل –بفخر– يضع الصبي فوق كتفيه ليحظى بإعجاب العالم كله، وعند توفر الوقت الكافي كان إيميل يلهو مع الصبي بلعبة رعاة البقر والهنود، وأخفى قلقه من رغبة طفله الدائمة بلعب دور الهندي.

نعم، كان الصبي أقرب إلى كوكي، لكن إيميل كان سعيدًا بنجاحه في إيجاد مكان لنفسه في حياة الصغير.

بدأ نسيج العلاقة بين الأب وابنه بالاهتراء عندما كان الطفل في الخامسة من عمره، انسل الخيط الأول عندما سأل الصبي من مكانه المتميز فوق كتفي إيميل عن السبب الذي يمنع الأفارقة من السير على الأرصفة، أدرك إيميل أن الصبي كان أصغر من أن يفهم سياسات وقوانين الفصل العنصري، فاختار أن يروي للصبي قصة ما يقوم به من عمل رائع يصب في مصلحة الأفارقة عبر مؤسسة الشؤون الداخلية.

انسل الخيط الثاني عندما اصطحب إيميل صغيره للصيد أول مرة، عند رؤيته للمقلاع وإدراكه الغريزي لوظيفته، رفض الطفل الخروج من السيارة، وبينما طوى ذراعيه وتجهمت ملامح وجهه، أخبر الصغير والده عن رفضه تحمُّل مسؤولية موت أيِّ شيء، روى إيميل لابنه قصة فريدريك كورتني سيلوس، الصياد العظيم ذي البشرة البيضاء، والذي كان من المفترض أن يحمل اسمه،

لكن الصبي لم يتأثر. وانسل الخيط الثالث عندما قرأ إيميل لصغيره كتاب كنوز الملك سليمان، فركض الصغير باكيًا إلى كوكي من كابوس راوده في تلك الليلة حول جاجول وهيئتها الشبيهة بالقرد المنكمش أو الملك توالا وعينيه الشريرتين، الخوف منهما أمرٌ يمكن فهمه، لكن ماذا بشأن الكابتن جون جود وأسنانه المتحركة، بينما حملت كوكي الصغير إلى سريرها المزدوج، أدرك إيميل –وبشعور الغارق– أن الصبي رقيق جدًّا، وأنه لا يعرف ما الذي يمكن فعله مع مثل هذا الابن.

تعرَّض النسيج بأكمله لخطر الانفكاك في إحدى عطلات نهاية الأسبوع التي أطالتها كوكي بعد مغادرتها في إحدى صباحات يوم الخميس مع ابنها لزيارة والديها، بعد عودته المبكرة من نادي جنتلمانز كلوب للسادة المحترمين، وجد إيميل نفسه وحيدًا في المنزل في ليلة سبت، سكب كأسًا من الويسكي ووقف إلى جانب باب غرفة نوم الصبي، جدران الغرفة بالكامل كانت مطلية باللون الأصفر، ومليئة بالألعاب ذات الألوان الفاتحة. وعلى الرغم من أنه كبر عليه منذ وقت بعيد، فما زال سرير الطفل منتصبًا بهدوء في إحدى الزوايا مليئًا بعدد كبير من ألعاب الدببة المحشوة، نظر إيميل إليها وبدلًا من استشعار نعومتها، أعرب عن أسفه لغياب الصبي الذي كان يحبها ويستمتع باللعب معها، غدًا هو عيد الأب، وها هو ذا، أبٌ بعيد عن ابنه لأن كوكي قررت الاحتفال بهذا اليوم مع والدها.

أحس إيميل فجأة أنه شبيه بدب محشو فقد حشوته، رمى كأس الويسكي –التي لم تكن الأولى في ذلك اليوم– وأمسك مفاتيح سيارته، وصمم على إحضار عائلته.

وصل إلى منتصف الطريق نحو منزل أهل زوجته عندما تذكَّر أنهما في ماتوبوس دام أوتيل –«البحيرة الفضية في إطار زمردي»– فاستدار بسيارته متوجهًا نحو الفندق، أحس أنه قضى الليل كله في قيادة السيارة حتى وصل إلى الفندق قبيل منتصف الليل، وبمساعدة موظف كونسيرج نعسان وجد شاليه حمويه وطرق الباب عدة مرات قبل أن يظهر ضوء في الداخل.

قبل أن يفتح أحدهم الباب كان لديه ما يكفي من الوقت ليتخذ قرارًا إما بقضاء عيد الأب معهم، أو العودة مع عائلته إلى بروكسايد في الصباح، فتح ريجينالد الباب ونظر بدهشة ورعب إلى إيميل، عندها قرر إيميل أنه سيصطحب عائلته معه على الفور.

همس ريجينالد بينما كان إيميل يشق طريقه للداخل:

- أنت مخمور يا رجل.

تحولت خيبة أمل ريجينالد إلى اشمئزاز، ما جعل إيميل أكثر إصرارًا على قراره.

ربما سارت الأمور بشكل مختلف لو لم يفتح إيميل باب إحدى غرف النوم ليجد كوكي وابنه الذي لم يكن اسمه فريدريك نائمين بهناء تحت غطاء سرير أصفر ومطرز، قالها إيميل أكثر من مرة أن الوقت قد حان ليتعلم الصبي النوم بمفرده، حان الوقت ليتعلم كيف يكون رجلًا، سحب الصبي بعيدًا عن والدته، وأيقظه. استفاقت كوكي غريزيًّا، وبمجرد أن رأت ابنها قفزت على إيميل كما لو أنه ليس زوجها، بدأ الطفل المصدوم في البكاء بصوت عالٍ، مثل فتاة. وجهت كوكي مخالبها باتجاه إيميل لاستعادة ابنها، وهي تطالبه بتفسير ما يفكر باقترافه.

قال ريجينالد ساخرًا:

- يفكر باقترافه؟ إنه إيميل كويتزي، يتصرف بطريقة بعيدة عن التفكير والوعي.

عندما حمل إيميل الصبي إلى الباب الأمامي، وجد أن دوروثي أغلقته وسدته بجسدها.

بدأ ريجينالد حديثه:

- لا تطلب كوكي الكثير.

قال إيميل مقاطعًا:

- ربما لا تطلب الكثير، لكنها بالتأكيد تأخذ كل شيء.

لم يكن واثقًا مما قصده بهذه الكلمات، ولكنها خرجت من قلبه.

بينما تمسَّك إيميل بالصبي الذي عاد للنوم وهو يشهق من البكاء، حزمت كوكي أمتعتهما وأقنعت والديها أن عودتهما مع إيميل هي الحل الأفضل.

قال ريجينالد وهو يغلق الباب الخلفي للسيارة بعد التأكد من استقرار كوكي والصغير بأمان فيها: - قُد بحذر شديد، يا بني، لديك هنا أثمن ما أملكه في العالم.

- إنهما عزيزان عليَّ أيضًا.

قال ريجينالد ساخرًا:

- يا لها من طريقة جيدة لإظهار مودتك.

تساءل إيميل بينما كان يقود السيارة عن سبب السخرية من مشاعره هو.

قالت كوكي من المقعد الخلفي:

- اتصالٌ هاتفي كان كافيًا.

متى تم أي شيء بينهما بمثل هذه البساطة؟

كانوا في ضواحي المدينة عندما اصطدم شيء ما بالسيارة في عتمة الليل فاستيقظت كوكي وصغيرها، أوقف إيميل السيارة على جانب الطريق من هول الصدمة، وخرج لتفحص الأضرار، استفاد من الفرصة لتهدئة أعصابه، لم تلحق بالسيارة أضرار كبيرة باستثناء انبعاج على المصد. وعلى بعد أمتار قليلة

من السيارة ارتسم خيال حيوان ملقىً على الأرض، لم يصدر عن الحيوان أي صوت فعاد إيميل إلى السيارة مفترضًا نفوق الحيوان.

سألت كوكي:

- ما الأمر؟

قال إيميل وهو يشغل محرك السيارة:

- أعتقد أنني صدمت ظبي إمبالا.

وبينما همَّ بقيادتها، قالت كوكي:

- لن تترك الحيوان هنا، أليس كذلك؟

لو كان إيميل يقود سيارته بمفرده لوضع ظبي الإمبالا في الصندوق الخلفي لسيارته، وتولى أمر ذبحه وأخذه إلى الجزار في الصباح لإعداد بعض المأكولات الشهية مثل بيري بيريبيلتونج، لكن إيميل ليس بمفرده، كانت معه زوجته التي تعيش في فقاعة لا تحدث فيها أشياء سيئة، وابن يعتقد أن قتل الأشياء أمر سيئ.

- لن تترك الظبي، ماذا لو أنه على قيد الحياة؟

كان إيميل شبه متيقن أن الحيوان قد نفق، وكان على وشك أن يقول ذلك عندما نظر إلى الخلف ليرى عيني الصبي تحدقان إليه وكلهما أمل، كرِه أن يخيب آمال الصبي، فنزل من السيارة وعاد للتحقق من الحيوان، كان ظبي إمبالا صغيرًا بحجم يفسر سبب وقوع الحد الأدنى من الضرر على السيارة، كان جسده لا يزال دافئًا... ولا يزال يتنفس... لا يزال الظبي على قيد الحياة.

حمل إيميل الظبي بعناية ووضعه في الصندوق الخلفي للسيارة على بطانية نزهة سميكة.

عندما ركب إيميل السيارة سمع الصبي يقول بصوت تملؤه الدهشة: - يبدو مثل بامبي يا ماما.

لم يكن لدى إيميل أي فكرة عن بامبي هذا، لكنه حمَّله مسؤولية منح ابنه أملًا كاذبًا.

لم تتفوه كوكي ببنت شفة، ابتسمت بحزن وربتت ظهر الصبي. سأل الصبي وهو لا يزال راكعًا على المقعد الخلفي للسيارة ويحدِّق إلى الظبي الصغير: يمكنني الاحتفاظ به، أليس كذلك يا ماما؟ كحيوانٍ أليف؟

- اجلس يا حبيبي، يجب أن يقود بابا السيارة الآنَ.

فكر إيميل وهو يعيد تشغيل محرك السيارة أن الحيوان سينفُق حتى قبل وصولهما إلى المنزل، لتكون النهاية المحزنة لهذا العمل المؤسف.

- هل يمكنك التوجه إلى الطبيب البيطري؟

سألته كوكي لأجل الصبي، افترض إيميل ذلك. قال إيميل بلهجة مراوغة: - للأسف، لا توجد أي عيادات بيطرية مفتوحة حتى هذه الساعة.

- أنا واثقة أن جونسون سيساعدنا بغض النظر عن الساعة. إنه صديق العائلة.
أدرك إيميل بشيء من الفزع مدى جدية كوكي، في كرتها الزجاجية بالطبع لا يمكن أن تموت الأشياء.
كل ما رجاه إيميل في الوقت الحالي هو أن ينفُق الحيوان بسلام، ويفضل أن يحصل ذلك قبل وصولهم إلى بروكسايد.
بدلًا من ذلك وكما لو أن كل قوى العالم تآمرت ضده بدأت حوافر الحيوان بركل جانب الصندوق الخلفي من السيارة، كان الحيوان غبيًّا، لكن إيميل فهم قصده بالضبط، كان يتألم ويريد مخرجًا من هذا الألم، يوجد حل واحد فقط دعا إيميل أن تكون هذه آخر ركلات الإمبالا.
بدأ الصبي بالبكاء والصياح من المقعد الخلفي بدلًا عن الحيوان، وما زالت حوافر الإمبالا ترتطم بجانب الصندوق الخلفي للسيارة.
ها هو ذا إيميل في الساعات الأولى من عيد الأب يقود سيارته نحو منزل الدكتور جونسون وعيادته البيطرية في الضواحي، كانت الساعة تقترب من الثانية فجرًا عندما حمل إيميل الظبي الذي ما زال متمسكًا بآخر رمق من حياته، ومدده على اللوح المعدني في عيادة الدكتور جونسون، ألقى الدكتور جونسون، الرجل اللطيف وأشعث الشعر نظرة واحدة على الحيوان قبل أن يقول ما كان إيميل يعرفه منذ وقت طويل: - يا لهذا الحيوان المسكين، للأسف، لن ينجو.
أدرك إيميل –متأخرًا– أنه أخطأ في السماح للصغير باللحاق به إلى الغرفة، إذ أجهش بالبكاء والنحيب.
قال الدكتور جونسون:
- يمكنني إعطاؤه حقنة منومة.
اعتقد إيميل في لحظة من الحيرة أن الطبيب يشير إلى الصبي، وكاد يوافق على اقتراحه قبل أن يدرك خطأه.
نظر إيميل إلى الظبي الصغير الملقى على اللوح المعدني البارد، وشاهد جسده المرتعش يلتقط أنفاسه الأخيرة، عرف أن نهايته يجب أن تكون ذات مغزىً أكبر من ذلك، ذهب إلى سيارته وأحضر شيئًا من صندوق القفازات وعاد إلى غرفة الجراحة، ودون أن ينبس ببنت شفة استخدم السكين في يده ليجتث قلب الإمبالا.
صرخت كوكي بعبارات حول بربرية ما تراه، وراح الطبيب يصيح قائلًا إن هذا الفعل ليس ضروريًّا، بينما أجهش الصبي بالبكاء والنواح.
تجاهلهم إيميل جميعًا، وأمسك القلب الدافئ بين يديه الملطختين بالدماء كقربان، اقتطع جزءًا من القلب وأكله ليضمن بقاء الحيوان فيه إلى الأبد.

الجزءُ الثالث

الرجولة.. وقته على المسرح

الفصل الرابع والعشرون

في يومٍ جميلٍ محمَّل بوعود المطر، انطلقت سيارة زفير زودياك بلون البيج في رحلةٍ من تنجانيكا إلى سيتي أوف كينجز، رحلتها الناجحة تعني وصولها إلى وجهتها في يوم عيد الميلاد، كان ذلك في العام 1962. جابت سيارة زفير زودياك هذه ببسالة التضاريس الشاسعة والمتنوعة في الجنوب الإفريقي خلال فترات النهار الرائعة، لتستريح في جنح الظلام، وقع الشك في سلامتها مرتين فقط، في إندولا وليفينجستون، لكنها وصلت أخيرًا إلى روديسيا الشمالية لتعبر نهر زامبيزي العظيم.

لم تثر رحلة زفير زودياك أي شكوك، ولم تُطرح أي تساؤلات حول أسباب ذهابها إلى وجهتها، ربما تسترت حقيقتها تحت لونها البيج وهيكلها المتأثر قليلًا بالطقس.

نجحت السيارة في الوصول إلى وجهتها في سيتي أوف كينجز يوم عيد الميلاد من عام 1962 حسب الخطة.

أولئك الذين رحبوا بوصولها كانوا مرتاحين، لقد تملكهم القلق منذ انطلاقها. لا، بصراحة، كانوا قلقين جدًّا منذ أن اشترى جوشوا نكومو[44] وإدوارد إندلوفو الأسلحة –القنابل اليدوية والمتفجرات والقنابل– في مصر قبل عدة أشهر، وكانوا قلقين أيضًا خلال انتقال الأسلحة عبر ساحل المحيط الهندي باتجاه دار السلام، تحولت خشيتهم إلى رعب حقيقي عندما حُمِّلت الأسلحة في سيارة زفير زودياك المنتظرة في تنجانيكا، لأن ذلك يمثل نقطة اللاعودة.

تجدر الإشارة هنا إلى أنه ربما اتُّبعت أساليب شائنة للحصول على تلك الأسلحة، ومن بينها تسميم المتمردين الكونجوليين ونهب عتادهم العسكري.

نقلت الأسلحة إلى سيتي أوف كينجز بصحبة أبراهام دومزويني نكيوان[45] وميشيك فيلافي نكوبي[46] وكينياس ملالازي[47]، لتنفيذ هذه المهمة بالغة الأهمية، تدرب ميشيك فيلافي نكوبي وكينياس ملالازي، إضافة إلى كل من بوبيلو كمانيونجا وديفيد مبونجو كومالو وسولومون «موبفوكاتشا» مابيكا، لفترة وجيزة في مصر، بمجرد وصولهم إلى سيتي أوف كينجز كان للأسلحة قصة خاصة بها: بعد إقامة قصيرة في منزل والد نكيوان في لوبان، تم الانتقال إلى منزل فيندو إمبوفو–الذي تولى تنسيق وقيادة العملية برمتها– في بلدة مزيليكازي. استؤنفت الرحلة بعد استراحة قصيرة نحو مرتفعات ماتوبوس للحصول على بركة الأجداد قبل تنفيذ المهمة العظيمة المرتقبة، أُحضرت هذه الأسلحة لتحقيق قدَرٍ سَامٍ يتمثل في القضاء على الحكم البريطاني. لم تكن سيتي أوف كينجز وجهتها النهائية، كانت الأسلحة في طريقها نحو العاصمة

سالزبوري، لذلك كان عليها الوصول إلى توماس إنجوينيا –العنصر الفاعل في المهمة– ليسلمها إلى بوبيلو كمانيونجا.

لسوء الحظ... أو لحسن الحظ... بناءً على وجهة نظرك للموضوع، ألقي القبض على بوبيلو كمانيونجا في مكان ما بين شابانيو سالزبوري بينما كان ينقل الأسلحة إلى الوجهة النهائية المفترضة، ذكر خلال استجوابه أسماءً، ووجد توماس إنجوينيا نفسه في سجن جراي، ولم تحظ تلك الأسلحة بفرصتها للدخول إلى كتب التاريخ.

خاضت سيارة زفير زودياك البيج رحلة أخرى، وفي هذه المرة مع أمون إندوكوانا نكوبي برفقة ميشيك فيلافي نكوبي، بمجرد أن قطعت السيارة وانكي، اعترضها عملاء الحكومة، وألقي القبض على الرجلين، وزج بهما في سجن جراي.

ظهرت توقعات بأن تشهد رحلتا سيارة زفير زودياك البيج والأسلحة انعطافة حادة نحو اليمين، تماثل التوجه السياسي في البلاد، لم تكن الأسلحة وحدها من استعد لهذا التغيير المفاجئ حسبما اتضح، غادرت مجموعة صغيرة من الأفارقة في عام 1962 بقيادة كينياس ملالازي البلاد أيضًا، غادر روديسيا الشمالية كل من كلارك إمبوفو، وجون موندیا إندلوفو، وأمين تشيكواكواتا، وإلياس إنجوجاما، وجوردون بوتشي، وجيمس تشاتاجوي، وإمبيجيلوا مويو، وفيبيون شونيوا، وديفيد إمبونجو كومالو، خضعت المجموعة للتدريب على يد أمبروز ماكيوان. في العام التالي، 1963، غادر أربعة من هؤلاء الرجال –كلارك إمبوفو، وإمبيجيلوا مويو، وجيمس تشاتاجويو جوردون بوتشي– روديسيا الشمالية باتجاه الصين، وفي دار السلام، تنجانيكا، انضم إلى المجموعة فيليكس رايس، وإللويدجوندو، وتشارلز داور مانزي، ذهبوا عبر الاتحاد السوفيتي في طريقهم إلى بكين، ولد هؤلاء الرجال وترعرعوا في أحضان السافانا، ومع ذلك لم تثنِ أجواء التندرا التي لا ترحم في سيبيريا عزيمتهم، كانوا ببساطة يسيرون على خطى مجموعة أخرى انطلقت في العام السابق، وضمت فليمون ماكونيزي بقيادة تشارلز تشيكيريما، والتي شقت الطريق لمجموعة أخرى ستتبعها وتضم كلًّا من ستون إنكومازانا، وجون مالوتزو إندلوفو، وجون موندیا إندلوفو، وبنسونمافوسا، وجورج مودوكوتي وجونسون إنديبيلي يقودهم لوك ملانجا، وخلال رحلتهم إلى الصين توجه إلى غاناكل من سيكويلي مويو -صلة وصل حيوية سابقة في تهريب الأسلحة إلى البلاد-، وتوماس إنجوينيا -الذي فر من البلاد في أثناء فترة الإفراج عنه بكفالة-، وزيفانياسيوا، وإدوارد مزوازوا بيبي، ووالتر إنكابيني إمتيمكولووز يبيديياما بفونوجامانيا. وأرسلت مجموعة أخرى إلى مصر ضمت كلًّا من ميشيك فيلافي نكوبي -الذي هرب بشكل جريء من سجن جراي-،

وإيمرسون إمنانجاجوا، وشادريك تشيبانجا لخوض تدريبات أولية قبل التوجه

لاحقًا إلى الصين، والحصول على فهم أيديولوجي وأكثر عملية للتجربة الثورية الصينية، وذهب جوزيف زوانجامي إلى كوبا للتدريب.

كان الغرض من تدريب هؤلاء الرجال بسيطًا جدًّا: عليهم أن يصبحوا المخربين الذين سيضعفون الدولة، ويسرِّعون الخطى نحو سياسات عنصرية أكثر إنصافًا في البلاد، تمثلت الفكرة في أنهم سيهاجمون مكامن أموال الدولة: المزارع ذات الغرض التجاري، والمناجم والمصانع.

شُكِّلت شبكة من جهات الاتصال في مختلف أرجاء الدولة تحقيقًا لهذه الغاية –داميسودابنجوا، وإيثان دوبي، وإنوس تشيكووري، وآكيم إندلوفو، وآبل سيويلا، وسيفاس سيلي، وديفيد لوبيبي، وكيسيويما ليندي– لتوفير المأوى والطعام والمعدات الكفيلة بإنجاز هذه الأعمال التخريبية، وبما أن المخربين المحتملين مضطرين إلى مغادرة البلاد ودخولها سرًّا؛ كان تخطيط المسائل اللوجستية أمرًا أساسيًّا يجري العمل عليه في مرآب إمتيمبو في بلدة إمبوبوما. من بين جهات الاتصال نذكر دوميسودابنجوا، وآكيم إندلوفو، وآبل سيويلا، والذين انضموا في عام 1960 إلى كل من بيلاني إنديبيلي وبرنارد موتوما ليصبحوا مخربين، وانضم إليهم لاحقًا تشارلز نياتي، وداود مابوسا وروما نياتي. توصلوا في غضون عدة سنوات إلى فهم أهمية التنظيم والتدريب الرسمي. نجحت إحدى المجموعات بعد استكمال تدريباتها العسكرية في التسلل إلى الداخل عام 1963، لكن تم اعتراض أحد أعضائها، شادريك إنكومو، واعتقاله بما أجبر الآخرين على الهروب مجددًا خارج البلاد، لم يعنِ ذلك توقف محاولات الأعمال التخريبية الأخرى، واكتُشفت في العام ذاته قنبلة موقوتة معيبة في أحد متاجر الهايبر ماركت ذات الشعبية الكبيرة، أو كيه بازار في سالزبوري، في وقت لاحق وبعد عودته إلى البلاد في أغسطس، قضى جونسون إنديبيلي نحبه بتفجيرٍ في أثناء قيامه بتجميع قنبلة موقوتة أخرى.

قرأ إيميل عن القنبلة التي وجدت في أو كيه بازار في سالزبوري، لكن –ولأن القنبلة كانت معيبة– قام بشطبها لأنها أقرب ما يكون إلى الخدعة، على ما يبدو لم يكن تهديد القنبلة خدعة، وهو ما جعل راذرفورد يجلس الآن في مكتب إيميل، بحسب راذرفورد، بعض الأفارقة الذين حضروا اجتماعات كابريكورن أفريكا سوسايتي وتحدثوا عن الحكم متعدد الأعراق يطلقون على أنفسهم الآن اسم «القوميين» ويدعون إلى حكم الأغلبية السوداء، فيما حاول الإرهابيون الحقيقيون فرض أوضاع صعبة تفضي إلى نشوب حرب أهلية، أثبت ذلك ما كان يشتبه فيه إيميل منذ فترة طويلة: راذرفورد كان عضوًا في وحدة المخابرات المركزية. معظم «لاعقي الأحذية» من مدرسة سيلوس للبنين كانوا كذلك.

دقق إيميل في القائمة الطويلة من أسماء الأفارقة التي سلمها إليه راذرفورد، كان يعرف بعض الأسماء الموجودة، وحاول إدراجها في الرواية

التي أخبره بها راذرفورد للتو.
- بالطبع لم نعلن عن معظم هذه الأسماء، أنت تفهم ذلك؟
قال إيميل بتفهُّم:
- لا حاجة لإثارة قلق غير مبرر.
قال راذرفورد بلهجة واقعية:
- لا داعي لأن يعرف التافهون مقدار ما أحدثوه من ضرر في أمننا القومي، سندعهم يتساءلون عن مدى فعاليتهم، لا يتطلب الأمر كثيرًا من الجهد لنشر الشك والفوضى والارتباك في تلك المجموعة، لذلك نفضل في الوقت الحالي خوض حربٍ صامتة إذا جاز التعبير.
هل تخوض دولته حربًا مع نفسها؟ لم يستطع إيميل رؤية المشهد بشكل كامل، ما هو السبب؟ ما هي النتيجة؟ أي عاقل سيوافق على أن أفضل خيار لمستقبل البلاد يتمثل في تعاون جميع الأعراق على إدارة الدولة، لكن أي شخص عاقل يمكن أن يرى أيضًا أن الإفريقي لديه بعض الطرق ليقطعها قبل اللحاق بمعايير الحضارة الغربية.
كان إيميل يعرف الأفارقة، ويدرك أن مثل هذا الأمر سيستغرق بضعة عقود، اثنين أو ثلاثة على الأقل، حتى تترسخ المساواة الحقيقية أخيرًا، لا داعي لاستعجال الأمور وشن أي حرب، ما يريده جميع المواطنين الجيدين في البلاد سيتحقق... في نهاية المطاف.
دقق إيميل مجددًا في القائمة الطويلة من الأسماء.
- حرب أهلية؟ لماذا؟
أطلق راذرفورد ضحكة ساخرة وقال:
- قضينا وقتًا طويلًا في منزلهم دون إذن، وهم يريدوننا خارجه.
- أعرف بعض هؤلاء الرجال، إنهم رجال جيدون.
عاد راذرفورد إلى السخرية مجددًا عندما قرأ التعبير على وجه إيميل.
- هل تتذكر الاسم الذي اعتدنا مناداتك به في المدرسة، إيميل "الحيادي" كويتزي؟
لم يتذكر إيميل أن أحدًا ناداه بهذا اللقب من قبل، وشكك في أن أحدًا تجرأ على استخدامه في وجهه، لا سيما خلال سنوات دراسته الأخيرة.
- على الحياد؟
- كنت تعجز عن اتخاذ قرار فيما لو كنت تودُّ أن تصبح سيدًا محترمًا، أو رجلًا.
- لا أعرف شيئًا بهذا الخصوص، كل ما أعرفه أن الإدارة الحكومية متعددة الأعراق، والوحدة العرقية هما المستقبل الوحيد القابل للحياة في هذه البلاد.
قالها إيميل وهو يعيد لائحة الأسماء إلى راذرفورد.

- يبدو كلامك شبيهًا بأولئك السادة الوسيمين في كابريكورن أفريكا سوسايتي، حسنًا... جرب السادة المحترمون حظهم طيلة أكثر من عشر سنوات، كادوا يفسدون كل ما عملناه، ويخلفون الفوضى التي علينا –نحن الرجال– تنظيفها. كما ترى يعتقد أي سيد محترم أنه قادر على معرفة الإفريقي، ولكنه عاجز عن ذلك لأن الإفريقي كافر، والكافر هو شخص غير عقلاني، لا يمتلك هؤلاء الناس أي منطق. نحن –الرجال– نعرف ذلك.

هز راذرفورد رأسه.

- عليك أن تخرج عن صمتك وحيادك يا كويتزي، لقد تولى الرجال -الرجال الحقيقيون- زمام الأمور الآن، من مصلحتك الانضمام إليهم، انضم إلينا.

أعاد راذرفورد اللائحة إلى إيميل.

- لقد تلقوا تدريباتهم في روديسيا الشمالية، والصين، ومصر، وكوبا وغانا لسبب ما، لقد تم تعليمهم أو دعني أقول تم تلقينهم طريقة تفكير شيوعية، سيعملون على التخلص من الرأسمالية وتطبيق الاشتراكية، إنهم عازمون على إعادتنا إلى العصور المظلمة، هذه ليست ظنونًا، بل حقائق أعرفها جيدًا.

لم يستطع إيميل رؤية المستقبل الذي حاول راذرفورد رسمه له، ببساطة لم يكن الأفارقة مستعدين لإدارة البلاد بأنفسهم، ينبغي عليهم أن يعرفوا ذلك بالتأكيد، الحرب الأهلية لن تكون مدمرة وحسب، بل عبثية.

- ماذا تريد مني؟

جلس راذرفورد إلى كرسيه، ولاحظ إيميل كيف تغير سلوكه بالكامل.

- في غضون فترة قصيرة جدًّا، نجحتَ في تحقيق إنجاز مذهل حقًّا عبر مؤسسة الشؤون الداخلية، وضعت نصب عينيك تحقيق هدف هائل، بصراحة لم أكن واثقًا من قدرتك على النجاح، لكنك فعلت، وأنا معجب بك، نحن معجبون بك.

بدت الكلمات مختلفة عن أسلوب راذرفورد، فعرف إيميل أنها قيلت تمامًا وفق التعليمات، ومع التركيز على كلمة «نحن» تساءل إيميل عن عدد المرات التي تدرب فيها راذرفورد على السطور، وكيف استطاع كبت كبريائه قبل أن يزوره.

- بكلمة "نحن"، هل تقصد الحكومة الجديدة؟

- نعم، نريد العمل معك.

- على الرغم من استقلاليتها، فإن المؤسسة تتعاون فعليًّا مع عدة مؤسسات حكومية.

- تود الحكومة الجديدة العمل معك بشكل أكثر... مباشرةً، نظرًا للتنسيق القائم بين مؤسستك وعدة مؤسسات حكومية، من السهل أن تصبح أحد فروع الحكومة.

إنه دور إيميل للاستهزاء الآن، افترض راذرفورد أنه أمام إيميل الذي اعتاد الشرب معه في سكوبيز، لكن إدارة المؤسسة غيرت إيميل.

- المؤسسة مستقلة عن الحكومة لسبب وجيه.

قال راذرفورد مشيرًا إلى اللائحة:

- هؤلاء الرجال -وأعدادهم ستزداد بالتأكيد، تذكر كلماتي هذه- يريدون شيئًا واحدًا فقط، يودون وضع حد للدولة التي أَلِفناها. أنت الآن مزيج من عدة أشياء يا كويتزي، ومن بينها بالتأكيد أنك رجل فخور ببلده التي يحبها. انظر حولك، وشاهد ما حققه الأوروبيون هنا في وقت قصير جدًّا، تخيل ما يمكن أن نفعله خلال السنوات الخمسين... المائة... الألف القادمة. يريدون وضع حد لكل هذا التطور.

وقف راذرفورد ليغادر.

- أرجوك، لا تقف على الحياد في هذا الأمر. فكر في الأمر جديًّا، أنا متأكد أنك سترى الأشياء كما نراها نحن.

وقف إيميل بعد ذهاب راذرفورد بجانب النوافذ الواسعة المطلة على سيتي أوف كينجز، راقب الامتداد الخرساني المتواضع للمدينة، لم يكن يحبها دائمًا، لكنه يحبها الآن بالتأكيد، لم يكن يراها أكثر من وعاء غبار قبل خمسين عامًا، وها هي تبدو كأعجوبة للناظرين، كانت مدينة عصرية مع مبانٍ طابقية وشوارع واسعة تصطف على جانبيها الأشجار، وفيها مصانع تعمل بكامل طاقتها، ومداخن شامخة ونظام قوي للسكك الحديدية، ما تحقق في فترة قصيرة كان أمرًا مذهلًا بالتأكيد.

على أي حال وخلافًا لراذرفورد، لم يرَ إيميل الرجل ذو البشرة البيضاء وحيدًا في هذا الإنجاز في المدينة، رأى أيادٍ سوداء صنعت ومدت سكة الحديد التي وهبت المدينة شريان حياتها، وأيادٍ سوداء رصفت الطوب والملاط، وبنت الهياكل التي يستطيع المرء النظر إليها بفخر، وأيادٍ سوداء حملت الرسائل والشاي بما يسمح باستمرارية العمل السلس في المدينة، رأى إيميل أيادٍ بنية اللون أيضًا، مدربة خصيصًا لتجميع وإصلاح الآلات التي قادت مسيرة تطور البلاد، كانت الأيادي البنية لا تزال جزءًا من طبقة تجارية أساسية، تقدم –وبأسعار معقولة– كل ما تحتاج إليه المستعمرة للازدهار والنمو، ظن راذرفورد أن إيميل لم يرَ بلده بوضوح، في حين أنه كان يراها بوضوح شديد، كانت الأعراق تعمل وتتعاون معًا بشكل جيد... لطالما كان الأمر على هذه الحال منذ البداية، تحقيق المساواة بين الحضارات المختلفة هو كل ما نحتاج إليه لتسير الأمور على أحسن ما يرام.

إذا حافظ كل عِرقٍ على مسارِ توجههِ المعتاد، لن تكون هناك أي حاجة إلى إشعال فتيل حرب أهلية، يمكن أن يمضي الجميع قدمًا نحو المستقبل معًا.

لسوء حظ إيميل كويتزي، آمن الآخرون بأفكار مختلفة تمامًا حول مستقبل البلاد، أدرك الرجال الذين كانوا يركزون سابقًا على تغيير البلد عبر أعمال التخريب بعد الحظر الرسمي لأحزابهم في عام 1964، أن الحرب المباشرة هي السبيل الوحيد لتحقيق أهدافهم بحكم الأغلبية، هكذا وجد المخربون السابقون دوميسودابنجوا، وآكيم إندلوفو وإيثان دوبي، إضافة إلى كل من روبسون مانيكا، وجابولاني إنكوبي، وجوزيف نيوندورو، وإدوارد بيبي، وأمبروز موتينيري، وجيدون إنجوشي أنفسهم في الاتحاد السوفيتي، إنهم أول من تم إرساله إلى هناك خصيصًا للخضوع إلى تدريب عسكري متخصص، انضمت إليهم فيما بعد مجموعة أخرى تضم –من بين آخرين– تشينجا دوبي، وروجر ماتشيميري، وريبورت فيليكيزيلا إمفوكو. في العام نفسه، وإضافة إلى مناطق التدريب القائمة بالفعل، ذهب المزيد من الرجال الأفارقة المستعدين للقتال من أجل حكم الأغلبية إلى كوريا الشمالية، والجزائر، وبلغاريا للتدريب العسكري، فهموا جميعًا الآن أنهم مستعدون لشيء واحد فقط هو الكفاح المسلح.

في مكان قريب، في زامبيا حديثة الاستقلال، جمع وليام إندانجانا مجموعة من خمسة رجال، إضافة إلى إندانجانا ضمت المجموعة كلًّا من فيكتور إملامبو، آموس كاديماونجا، جيمس دلاميني وماستر تريشا مازواني. تلخصت مهمتهم في التسلل إلى الجزء الشرقي من البلاد وارتكاب أعمال تخريبية، وفي 30 يونيو 1964 وصلت المجموعة إلى أمتالي، واستقبلهم جوزيف شاشا. وجد مواطن آخر، أوبيدموتيزو، كهفًا للعمل مع الآخرين. بمجرد وصول المجموعة المكوَّنة من خمسة رجال، توجهوا لشراء سكاكين وعبوات ناسفة. ربما صُدم كاديماونجا بعد رؤيته للأسلحة فقرر مغادرة المجموعة.

في اليوم التالي هاجم بقية أعضاء المجموعة معسكر شرطة نيانيادزي، نصبوا كمينًا لرجل أوروبي مسافر على جسر تشيكويزي في 2 يوليو. بدلًا من ذلك انتهى بهم الأمر إلى مهاجمة لوكاس سيومو، وهو رجل إفريقي كان مسافرًا مع عائلته، ونظرًا لعِرقه سُمح لسيومو وعائلته بالمغادرة سالمين.

بعد يومين، في 4 يوليو، لم يكن بيتر يوهانس أندريس أوبرهولزر محظوظًا مثل سيومو؛ فوقع في شرَك كمين في أثناء سفره مع عائلته، وتعرَّض لطعنات قاتلة على يد إندانجانا، وتم إطلاق زوجة أوبرهولزر وابنته سالمتين.

ثبت أن مقتل رجل أوروبي هو سبب فشل المجموعة، عزَّزت شرطة جنوب إفريقيا البريطانية جهودها للعثور على المجموعة التي لم يكن أمامها سوى التفكك والتفرق، أُلقي القبض على دلاميني وإملامبو، ووجهت إليهما تهمة الإرهاب، وأعدما شنقًا في تتابع سريع ومخيف، وأُلقي القبض على مازواني، لكنه نجا لأنه قاصر، نجا إندانجانا لأن هذه المعلومات لم تكن معروفة في عام 1964، وأصبح سياسيًّا واسع الشهرة في السنوات الأولى للدولة بعد استقلالها.

لم تعمل المجموعة سوى بضعة أيام، وقد عُرفت باسم عصابة التمساح.
عندما قرأ إيميل عن مقتل أوبرهولزر في ذا كرونيكل، توقع زيارة أخرى من راذرفورد، وهكذا عندما جلس راذرفورد أمامه، كان إيميل مستعدًا له.
- بينما كنت جالسًا هنا تضيع الوقت سدىً، تم تدريب الرجال الذين تدَّعي أنك تعرفهم جيدًا على استخدام بنادق إيه كي– 47، والمدافع الرشاشة الخفيفة، وجميع أنواع الأسلحة والذخيرة، يعرفون كيفية تنظيم الانقلابات، تعلموا تكتيكات حرب العصابات، وها قد نجحوا الآن في قتل رجل أبيض البشرة، واحد منا.
قالها راذرفورد بحركات غاضبة على كرسيه.
- الآن، أريد أن أعرف ما تخطط لفعله حيال ذلك.
قال إيميل بهدوء:
- الحكومة ليست بحاجة إلى المؤسسة، تحصل المؤسسة على معلوماتها من إدارات تابعة لوزارة شؤون السكان الأصليين، والمديرين والمشرفين الميدانيين ومحطات البعثات التبشيرية، أول جهتين تابعتين للحكومة بالفعل، وأنا متأكد من قدرتكم على جعل الجهة الثالثة متوافقة مع رغبات الحكومة، مؤسسة الشؤون الداخلية كيان خاص، وبناء عليه لا يمكنها الانخراط في السياسة.
بدا راذرفورد غاضبًا من إيميل وقد خاب ظنه فيه، وقال:
- هؤلاء المتوحشون قتلوا رجلًا أبيض يا كويتزي.
- يا لها من مأساة.
- أنت محق في ذلك، مأساة ومهزلة، وأنت لست مستعدًّا لفعل أي شيء حيال ذلك؟
- ما هو الدور الذي تريد أن تلعبه المؤسسة بالضبط؟ أن تقدم لكم معلومات عن الأشخاص الذين تشتبهون فيهم بأنهم إرهابيون؟
استهزأ راذرفورد ساخرًا:
- كان عليَّ معرفة أنك لن ترى الصورة الأكبر، تمتلك المؤسسة قاعدة البيانات الأكثر مركزية وشمولًا عن الأفارقة الذين يعيشون في البلاد، حتى أنت بالتأكيد ستعرف مدى فائدة هذه البيانات، فلنفترض أن صبي الشاي -ولنسمه "سيكسبنس"- لا يأتي إلى العمل في صباح أحد أيام الاثنين، نقوم بالتحقق من قاعدة البيانات الخاصة بكم لنتعرف على حظيرة الكرال التي ينتمي إليها، ومكان سكنه في المدينة، وهذا النوع من الأشياء، وهنا يأتي دور الدوائر التابعة لوزارة شؤون السكان الأصليين، والمشرفين الميدانيين ومراكز البعثات التبشيرية، في غضون ساعات يمكننا التعرف أين يوجد سيكسبنس، وأين لا يوجد، إنها بداية الحرب يا كويتزي، لا يمكننا تحمُّل تبعات

قضاء أيام في محاولات حائرة دون دليل، هذا الشيء يحصل بالفعل، وينبغي أن نتصرف لمواجهته بسرعة، وهكذا كما ترى، نحن بحاجة ماسة إلى التعاون الكامل من المؤسسة.

عرف إيميل أن راذرفورد لم يستخدم اسم صبي الشاي «سيكسبنس» بمحض الصدفة. كان يبيِّن له كيفية الاستعانة بالنظام الذي تكلم عنه إيميل أمام كابريكورن أفريكا سوسايتي قبل عدة سنوات، لمساعدة الحكومة في القيام بأعمالها بشكل فعال.

- ما الذي ستفعله عندما تجد سيكسبنس؟

- ليس بالضرورة أن تهتم المؤسسة بهذا الشأن... حتى الآن.

الحكومة كانت تسأل الآن، ويعرف إيميل أن أسلوبها هذا لن يستمر طويلًا، بصدق لم يكن أمامه أيُّ خيار، كل ما يستطيع فعله هو المماطلة للحصول على مزيد من الوقت.

لكن ودون علمه انتهى الوقت فعلًا لأنه في تلك اللحظة بالذات، كان موفاتهاديبي[(48)] يطلق نار بندقيته إعلانًا باندلاع الحرب.

- يا لك من وغدٍ محظوظ.

قالها راذرفورد وهو يستلم مكتب إيميل الرائع، كان الحسد واضحًا في نبرة كلامه.

- لقد أوجدتَ الكيان الصحيح الذي تحتاج إليه الدولة للنجاح في حربها ضد الإرهابيين. أنت –على الأرجح– مقبلٌ على تبوُّء مكانة مرموقة، ستصبح رجل التاريخ.

الدكتور جوشوا نكومو (1917-1999) مناضل وقائد من زيمبابوي. نائب رئيس زيمبابوي بين عامي 1987 و1999. ملقب بـ «أبو زيمبابوي». –موقع معرفة الإلكتروني.

أبراهام نكيوان (1928-2021) قائد سابق في الجيش الثوري الشعبي في زيمبابوي. –مصادر من الإنترنت. (المترجِم)

ميشيك فيلافي نكوبي سياسي من زيمبابوي توفي في عام 2019. (المترجِم)

كينياس ملالازي سياسي من زيمبابوي. (المترجِم)

موفاتهاديبي هو أول رجل يطلق نار بندقيته لإعلان اندلاع الصراع المسلح في زيمبابوي ضد حكم الأقلية البيضاء في عام 1964. –مصادر من الإنترنت. (المترجِم)

الفصل الخامس والعشرون

أدرك إيميل أن دوافع الحكومة للاتصال به لم تقتصر على كونه مديرًا لمؤسسة الشؤون الداخلية، وإنما بسبب طريقته في التعامل مع وضع بياتريس بيت- بوفورد.

كانت بياتريس بيت- بوفورد من الشخصيات التي أحس إيميل أنه يعرفها منذ زمن بعيد، حتى قبل لقائهما. كانت جزءًا من علاقته بكوكي منذ بدايتها، فكل فكرة دخلت إلى عقل كوكي كانت تخضع مسبقًا لما دعاه إيميل «حاجز بي للتحقق»، اعتادت كوكي قبل أن تحدد وتعبر عن أفكارها ومشاعرها أن تستهل معظم عباراتها بكلمات مثل «بي تقول»، «بي تعتقد»، «بي تشعر» أو «بي تقترح بشدة»، كان «حاجز بي للتحقق» عنصرًا ثابتًا في علاقته مع كوكي لدرجة دفعته للشك في أن الموافقة على طلبه بالزواج من كوكي جاءت أولًا من بياتريس بيت- بوفورد.

على الرغم من موافقة كوكي الفورية على طلب إيميل الزواج بها، جاء «حاجز بي للتحقق» بعد ذلك بوقت قصير، بينما جلست تتأمل حجر الألماس الموجود على خاتمها وتعرب عن محبتها لإيميل الذي يفهم أن الألماس هو الصديق الأفضل للفتاة، قالت كوكي:

- أتمنى لو كانت بي هنا، إنها الشخص الوحيد المستحق للقب الإشبينة، وأنا مضطرة الآن إلى طلب ذلك من مارجريت فقط لأنها قريبتي، بي لا تحب الخواتم... لا تحب تسليع علاقة الزواج، في الواقع بي لا تهتم كثيرًا بالعلاقة نفسها وتقول إنها لن تتزوج أبدًا، أعتقد أنها لا تدرك ما تتحدث عنه، فأيُّ سعادة لامرأة دون زواج؟ كيف ستنجب الأطفال؟ يا لَبي السخيفة، لطالما اعتادت التفكير بشكل مختلف عن أي شخص آخر، لكنني أحبها لأنها... مختلفة هكذا، أتساءل عن رأيها بخاتمي.

في تلك اللحظة، لم تستطع رئتا كوكي التحمل أكثر، واضطرت إلى التوقف مؤقتًا ريثما تلتقط أنفاسها، انتهز إيميل الفرصة ليقبِّلها –بالعفة التي تحبها– ويُخرسَ أيَّ حديث عن بياتريس.

فهمَ إيميل أن صداقة كوكي وبياتريس تعود إلى لقائهما في أول أيامهما في مدرسة إيفلين الثانوية، عندما شكَّلا حلفًا قويًّا ضد حرب ماترون بولفي على الفتيات المتميزات، ومع ذلك كان إيميل يشك في خبرة كوكي في بياتريس بيت- بوفورد. تبدو هذه الـ «بي» التي تكلمت عنها كوكي ذات تفكير ليبرالي يتخطى المعقول. بالنسبة إلى كوكي، تؤمن بي بأشياء مستحيلة مثل الإجهاض، وحقوق النساء في أجسادهن، والزواج المثلي، والزواج مختلط الأعراق، والمساواة بين الأعراق، والمساواة بين الجنسين، والأكثر غرابة من

ذلك كله: حق الشخص في اختيار جنسه، هذا الاعتقاد الأخير جاء بعد أن قرأت بي قصة كريستين يورجنسن قبل سنوات.

الآن لم يشك إيميل في أن بي تؤمن بواحد أو اثنين من هذه الاعتقادات، ما كان يشك فيه هو تصديقها لكل هذه الأشياء، توجس إيميل خيفة من أن كوكي ربما لم تدرك حقيقة أن بي كانت تجرها نحو تصديق بعض من هذه الأفكار. بمعنى آخر، حق المرء في اختيار جنسه بالله عليكم، إلى أي حد يمكن أن يصبح الشخص ساذجًا؟ كانت كوكي شديدة البراءة والثقة بالآخرين إلى درجة تحجب عنها إدراك السخرية والخداع بشكل كامل.

من الصعب وجود شخصية ذات عقلية ليبرالية على النحو الذي تعتقده كوكي، بقدر ما كان إيميل معنيًّا كان كورتني وماريون التجسيد الأمثل لليبرالية، كلاهما يؤمن بالمساواة العِرقية والمساواة بين الجنسين، انضم كورتني إلى كابريكورن أفريكا سوسايتي ورفض أن تحمل زوجته لقبه وشارك –على مضض وفق شكوك إيميل– في زواج مفتوح، ومن الناحية الدينية قرأت ماريون أدب الزنوج، ورفضت حمل لقب زوجها، وكانت سعيدة –وفق شكوك إيميل– في المشاركة بزواج مفتوح، لم ينجبا الأطفال، لم يسأل إيميل عن السبب، لكنه ذُهل لمعرفة أن ذلك جاء نتيجة للاختيار، وليس جراء سوء حظ رهيب لا يوصف، بحسب إيميل لا معنى لأي ليبرالية تتخطى كورتني وماريون.

إضافة إلى ذلك، تعلَّم إيميل كل شيء عن بينينجتون بوفورد في صف التاريخ للماستر دوثي، على الرغم من أنه شخصية معاصرة، فإن الإشارة إلى بينينجتون بوفورد تكررت كثيرًا في أجزاء من المنهاج الدراسي الذي أطلق عليه ماستر دوثي اسم «رجال الإمبراطورية العظام».

بحسب ماستر دوثي، كان بينينجتون بوفورد من أبطال الإمبراطورية لأنه رجل يفهم دوره في المخطط الأكبر للأشياء، بمفرده وبعد وصوله مفلسًا إلى المستعمرة، قام بإنشاء مزرعة تجارية ساهمت نجاحاتها في تعزيز قدرة المستعمرة الفتيَّة على المشاركة في المجهود الحربي، والازدهار في سوق عالمي متقلب، بينينجتون بوفورد، الذي ولد كسيد محترم، اختار أن يكون رجلًا يفهم ما يقتضيه الأمر حقًّا لبناء الإمبراطورية، على الرغم من سفره إلى المستعمرة في القرن العشرين، فإنه كان عازمًا على اتباع خطى فريدريك سيلوس، وبدلًا من ركوب قطار من كيب تاون إلى سيتي أوف كينجز، اجتاز بوفورد السافانا. هو، وماستر دوثي، أحبا هذه التفاصيل، وكاد أن يلقى حتفه مرتين في طريقه نحو المستعمرة الجديدة؛ أولهما، عندما أصيب بنوبة شديدة من دوار البحر فأصبح ضعيفًا وهزيلًا لدرجة أن الطبيب على متن السفينة أعلن وفاته فعليًّا، وثانيهما، بعد فترة نقاهة ناجحة في مستعمرة كيب، حيث أصيب بالملاريا في أثناء السفر برًّا على عربة يجرها ثور. أصبح من جديد ضعيفًا وهزيلًا لدرجة أن المسافرين معه تركوه في رعاية اثنين من السكان الأصليين

تلخصت مهمتهما في انتظار موته لدفنه في قبر غير مميز، وبطريقة عجيبة ظل بينينجتون بوفورد على قيد الحياة لحسن حظه، حيث حمله المواطنان الأصليان في أرجوحة تخييم حتى وصلا به إلى المستعمرة الجديدة.

«كان موته ودفنه منتظرًا في قبر غير مميز وسط البراح الإفريقي الواسع، لكن روحه الجريئة أبت ذلك، كانت تعرف أنه مقدَّر لمستقبل عظيم. فهمَ ضمنيًّا نوع الرجل الذي يمكن أن يتحول إليه في هذه البلاد، في هذه البلاد، لعلمكم، وليس في أي دولة أخرى. هذه البلاد مع أرضها البكر الممتدة التي تفتح ذراعيها... هذه البلاد مع أرضها البكر غير المستغلة والتي لم تمسسها يد... هذه البلاد مع أرضها البكر الجاهزة لأي رجل يمتلك العزيمة والإصرار لدخولها والمطالبة بها». في تلك اللحظة، كان ماستر دوثي يتوقف قليلًا ليضبط نفسه مُحرجًا من كلماته الممتزجة بتعابير شعرية وإيحاءات شهوانية. كان يضرب طاولة مكتبه بكفه المفتوحة ليعيد انتباه أي شاب رحل مع مخيلته إلى أماكن لم يقصدها ماستر دوثي تمامًا. «لم يكن بوفورد من منبوذي الإمبريالية! كان من خيرة الرجال، من صفوة الرجال. يقف مثل عملاق على طول هذه البلاد وعرضها».

لم يكن إيميل بحاجة إلى ماستر دوثي كي يخبره أن بينينجتون بوفورد بطل، عرف إيميل منذ صغره أن منشأ معظم ما كان يرتديه ويأكله هو إحدى مزارع أو عقارات بوفورد، كل ما قدمه ماستر دوثي كان تفاصيل حول قصة انتقال بينينجتون بوفورد من الفقر إلى الثراء، ما جعله ينبض بالحياة بالنسبة إلى إيميل بطريقة متفردة عن بقية الشخصيات التاريخية والبطولية الأخرى، لهذا السبب افترض إيميل أنه يعرف الكثير عن بينينجتون بوفورد –الأب– ما يمنحه معرفة كافية باعتقاده عن بياتريس بيت- بوفورد الابنة.

لذلك لم يكن من الصعب تخيُّل هول المفاجأة التي صعقت إيميل عندما رأى بياتريس بيت- بوفورد لأول مرة وهي تنزل من الطائرة، كان شعرها طويلًا بتسريحة مهملة، وترتدي ثوبًا منسدلًا لا يمكن التحقق من كونه فستانًا أو لا، ونعالًا من الجلد، وقبعة من القش، وهي تدخن من غَليون خشبي، بدت بياتريس بيت- بوفورد بكل تفاصيلها واحدة من الرعاع.

لو لم تركض كوكي نحوها وهي تصيح «بي! أنا مسرورة بعودتك!» لما صدق إيميل أبدًا أنه في حضرة أغنى امرأة في البلاد كلها.

لم يكن انطباعه الأول عن بياتريس بيت- بوفورد جيدًا بشكل خاص، لذلك لم يتفاجأ إيميل أو يتأثر كثيرًا عندما حيَّتهُ قائلة:

- رجوت "كيكس" ألَّا توافق على الزواج بك. لمصلحتك أرجو أنك تخليت عن شخصيتك المتبجحة والمغرورة.

من اللحظة الأولى كان واضحًا لهما أن علاقتهما ربما كانت أفضل قليلًا لو وُجدت أي بادرة محبة.

كان ذلك في عام 1960، وبعد ست سنوات في جامعة أوكسفورد جاءت بياتريس بيت- بوفورد بشخصية الـ «هيبي» التي لم تكن البلاد تعلم بوجودها بعد. على أي حال وفي غضون فترة قصيرة جدًّا، وصلت البلاد إلى مرحلة تخطت حدود تقدير وفهم ماهية الـ «هيبي» إلى الخشية منها.

لم يُعر إيميل بالًا لحقيقة أن بي لم تكن معجبة به، لم يكن احتكار بياتريس لوقت كوكي أمرًا ذا أهمية بالنسبة إلى إيميل، لم يهتم كثيرًا أن بياتريس بيت- بوفورد اعتقدت أن «قراءتها للفن في كلية باليول» -على حد تعبيرها- حتى حصلت على درجة الماجستير -فيما عرف إيميل أنها إحدى أكثر المواد تفاهة في العالم- يعطيها الحق في إبداء رأي ملزم في كل شيء، وكثيرًا ما فاجأ إيميل نفسه بعدم اهتمامه بهذه الأشياء.

الشيء الذي أثار حفيظة إيميل هو أن بياتريس بيت- بوفورد وضعت آراءها وأفكارها قيد التنفيذ، فعندما عادت للعيش في مزارع وعقارات بوفورد تركت مسألة إدارة المزرعة لرئيس العمال المخضرم الذي كان يديرها منذ وفاة والدها عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها، وحوَّلت تركتها العقارية – بشغف– إلى مستعمرة للفنون، وهو ما أصبح في ستينيات القرن العشرين مجتمعًا نابضًا بالحياة، في الحقيقة وعلى الرغم من أنه لم يكن واسع الأفق من حيث طريقة تفكيره، لم يكن إيميل ليمانع ذلك لولا أن تحوَّلت إلى مستعمرة متعددة الأعراق.

اختلاط الأعراق الآن حسب اعتقاده أمر خطير جدًّا، وقد تنتاب الإفريقي بفعله أفكار تتخطى حدود إدراكه، ما يجعله يشعر بأنه على قدم المساواة مع الأوروبيين، بالطبع لم يكن الوقت قد حان لذلك بعد، ما كانت البلاد بأمس الحاجة إليه هو إحلال النظام، أن يكون كل شيء وكل شخص في مكانه، وسيحين الوقت المناسب للاختلاط... إن كان لا بد من اختلاط.

افترض معظم الأشخاص من ذوي التفكير المنفتح أن أفكار إيميل حول اختلاط الأعراق متخلفة، حتى سمعوا منطقه فانتابتهم الحيرة، لم تكن بياتريس بيت- بوفورد شخصية ذات تفكير منفتح، لم تتفق معه في أي نقطة. بالنسبة إلى بياتريس بيت- بوفورد، فإن الملونين هم المواطنون الأكثر صدقًا في المستعمرة الفتيَّة، لطالما كانت الأعراق مختلطة بشكل أو بآخر، السبب الوحيد الذي يحوِّل هذا الاختلاط إلى «مشكلة» وحقيقة غير ملائمة للتاريخ هو أن الدولة كانت عرقية وتؤمن بالتفرقة العنصرية، وهذا تمامًا ما ينبغي تغييره.

نظرًا لانعدام المنطق مع بياتريس بيت- بوفورد، وجد إيميل نفسه مضطرًّا إلى الاعتماد على القانون، كانت بياتريس بيت- بوفورد تخالف قوانين الدولة المناهضة للتزاوج بين الأعراق وسياسات الفصل العنصري، لكن عندما حاول إيميل إقناع الدولة بالتدخل وإخراج جميع الأشخاص غير الأوروبيين الذين لا يعملون في مزارع وممتلكات بوفورد، ترددت الدولة لأن المزرعة ما تزال

عنصرًا أساسيًّا في الاقتصاد، ولم ترغب الحكومة في محاباة الجانب المناهض لأغنى امرأة في الدولة، وهكذا استطاعت بياتريس بيت- بوفورد ومجتمعها متعدد الأعراق العيش بحرية وازدهار.

عندما حاول إيميل منع كوكي من زيارة وكر الانحراف الذي تحولت إليه مزارع وعقارات بوفورد، والأسوأ من ذلك اصطحاب الصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك معها، وصفت كوكي إيميل بفاقد العقل، وذهبت لزيارة والديها لمدة ثلاثة أيام، وبينما كانت كوكي بعيدة تلقى إيميل مكالمة هاتفية من ريجينالد يذكّره فيها أن كوكي لم تطلب الكثير، وأن مصلحة الجميع تقتضي من إيميل استيعاب الموقف، لم يكن أمام إيميل أي خيار سوى السماح لكوكي وللصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك قضاء عطلة نهاية الأسبوع بأكملها في مزارع وعقارات بوفورد حيث المستعمرة والمجتمع متعدد الأعراق، تساءل إيميل على مدى سنوات عديدة لاحقة عما إذا كان الصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك قد اكتسب شخصيته وأصبح على ما هو عليه الآن بسبب تجربته المبكرة لهذه المستعمرة والمجتمع متعدد الأعراق في مزارع وعقارات بوفورد.

لم يكن إيميل سعيدًا تمامًا، لكنه كان عاجزًا عن تغيير الوضع أيضًا، كان مضطرًّا إلى التعايش مع الفوضى التي بدت بياتريس بيت- بوفورد حريصة على إحداثها في منزله، وفي بلده.

تُركت بياتريس بيت- بوفورد لتفعل ما يحلو لها حتى مع تأرجح السياسة في البلاد من اليسار إلى اليمين.

لربما استمرت الأمور على هذه الحال غير السعيدة لفترة طويلة جدًّا لو لم يُبلغ راذرفورد إيميل أن بياتريس بيت- بوفورد كانت تتخلى عن ثروة والدها الطائلة لخدمة ما وصفته بـ «قضية القوميين». استشاط إيميل غضبًا، لأن تمويل «قضية القوميين» لن يساعد في اندلاع الحرب وحسب، بل سيطيل مداها أيضًا.

بالتأكيد لن يرغب بينينجتون بوفورد -الرجل الذي نجا من الموت مرتين لأنه علم أن قدره أن يكون رجلًا عظيمًا في التاريخ والإمبراطورية- في استخدام عائدات مزرعته لخدمة مثل هذه القضايا.

لم تكن بياتريس بيت- بوفورد من وجهة نظر إيميل حمقاء وحسب، بل كانت مخبولة بشكل خطير، كانت تبدأ شيئًا من شأنه إذلال الدولة وتدميرها، أدرك إيميل أن بياتريس بيت- بوفورد دعمت «القوميين» لأنها كانت تعتقد أنها على حق، وكانت هذه هي مشكلتها الحقيقية، لطالما ظنت أنها محقة، لقد عاش إيميل بما يكفي ليعرف أن مشكلته لم تكن معها، وإنما مع اندفاع الشباب وتفاؤلهم بشكل عام، كان شيئًا لا يقبل التفكير، مليئًا بالغطرسة، شيء يستحق الشفقة حقًّا، إن لم يكن خطيرًا جدًّا. أبلغ إيميل الدولة مخاوفه هذه،

وفي هذه المرة كان نداؤه أكثر نجاحًا؛ لم يتطلب الأمر الكثير لإقناع الحكومة بضرورة قطع تمويل بياتريس بيت- بوفورد للإرهابيين.

على أي حال، واصلت الحكومة تجاهل وجود مستعمرة متعددة الأعراق، وسرعان ما سيكتشفون خطأهم. عندما قادت كوكي إيميل المتردد بحماسة نحو ماتر دي هوسبيتال حيث أنجبت بياتريس بيت- بوفورد توأمين، لم يخطر ببال كوكي أو إيميل، ولا حتى في أسوأ أحلامهما ما استقبلهما في جناح بياتريس الخاص، كان التوأمان مقمَّطين بجانب بياتريس بيت- بوفورد الراضية جدًّا، كانا رضيعين ببشرة بنية وشعر أسود مجعد.

دون أن تدري أن حماتها استجابت بنفس الطريقة قبل ثلاثين عامًا عندما جاءتها فتاة من السكان الأصليين تسأل عن والتر، شعرت كوكي بالحر فجأة، وأقسمت بأنها -حفيدة الرواد الأوائل- لن تتأثر بالحر ولن يغمى عليها، وأحدثت ضوضاء خانقة، وأسقطت سلة الفاكهة التي أحضرتها، وكادت تسقط على الأرض ككومة باهتة لو لم يمسكها إيميل.

عندما أعلنت بياتريس بيت- بوفورد للعالم بسعادة أن والد ابنيها كان من القوميين الإفريقيين، شعر إيميل بالانتصار لاتضاح رأيه الصائب، ألم يحذِّر الجميع من الخطر المتمثل في بياتريس بيت- بوفورد؟ نعم، هل أصغى له أحد وأخذ كلامه على محمل الجد؟ لا، لقد أدركوا الآن أن عدم استماعهم له سيضرهم.

لم يبقَ أمام الحكومة اليمينية خيار سوى التعامل مع بياتريس بيت- بوفورد بصفتها التهديد الذي لطالما حذَّر منه إيميل، وبعد معركة قانونية طويلة جراء مشاركة المجتمع الدولي، نجحت الحكومة أخيرًا في إخراجها وابنيها ومجتمعها متعدد الأعراق بالكامل من مزارع وعقارات بوفورد، مخلفة وراءها عمال المزارع الأفارقة فقط لمواصلة إدارة المزرعة، وكتدبير إضافي تم تعيين رجل أوروبي –هاجر مؤخرًا إلى البلاد من أستراليا– مديرًا للمزرعة. وُضعت بياتريس بيت- بوفورد مع ابنيها في ضاحية هادئة في سيتي أوف كينجز، وسُمح لها بالاختلاط فقط مع الأوروبيين الذين تم التحقق منهم ومنحهم موافقة الحكومة، لم يطلق أحد على هذه الحالة المعيشية اسم «الإقامة الجبرية»، على الرغم من الوجود الدائم لرجلَيْ شرطة في حراسة مبانيها على مدار الساعة.

انتقلت بياتريس بيت- بوفورد إلى الضاحية الهادئة خلال الساعات الأولى من صباح 11 نوفمبر 1965، يوم الهدنة، وطُلب من إيميل –بناء على طلب كوكي– الحرص على استقرارها بشكل مريح.

طوال العملية، لم يتحدثا إلا للضرورة، وعندما استدار إيميل للمغادرة قالت بياتريس بيت- بوفورد:

- التاريخ –هذا الشيء الذي تدَّعي فهمه ودعمه ومعرفته جيدًا– يقف إلى جانبنا، سيذكرنا التاريخ، وسيذكر كفاحنا الباسل في هذه اللحظة، نحن نخوض حربًا محقة، نحن نمضي قدمًا في مسيرة الزمن. ستُخلَّد أسماؤنا. لن يتذكَّرك التاريخ، لا أنت ولا الأشخاص من أمثالك، أنتم محكومون بالنسيان، لا يكافئ التاريخ أولئك الذين يسعون إلى عرقلة مسيرة تقدمه.

بدت كما لو أن دماغها «ذا التفكير الحر» قد أزيل لتحل مكانه آلة تنفث خطابات قومية، قرر إيميل أن الأفضل تركها في أوهامها، كان قادرًا على إخبارها بما تعلَّمه منذ فترة طويلة –أن التاريخ يخطه المنتصرون– لكن، ما الفائدة طالما أنها تعتبر نفسها بين المنتصرين؟

الفصل السادس والعشرون

بينما كان إيميل يقود سيارته بعيدًا عن منزل بياتريس بيت- بوفورد الجديد، أحس بشدٍّ وتوترٍ في رقبته وبين كتفيه، هذا النوع من التشنج الذي يعرف أنه سيزداد سوءًا مع زيارته لمنزل راذرفورد لمناقشة أساليب العمل المشترك بين المؤسسة والدولة للحد من موجة الإرهاب المتصاعدة، نظرًا لأسلوب الشدة الذي اتبعه بعد قضية بياتريس بيت- بوفورد، اعتقدت الحكومة أن إيميل سيلاحق الإرهابيين المحتملين بنفس الحماس، على الرغم من تردده بشأن إقحام المؤسسة في مثل هذه المساعي فإنه تأكد من صواب رأي الحكومة فيه بهذا الشأن، وهو ما لم يكن مريحًا له.

أوضح إيميل في محادثاته السابقة مع راذرفورد حرصه على أن يقتصر استخدام معلومات المؤسسة في الإجراءات الوقائية بما يساعد في إلقاء القبض على الإرهابيين المحتملين، والحيلولة دون فرارهم خارج البلاد، لم يوافق إيميل على معظم أفعال الحكومة، مثل منح المكافآت للأشخاص الذين يتقدمون بمعلومات حول أسماء الإرهابيين، بيَّن هذا الشيء لراذرفورد، لكن الانطباع كان واضحًا بأن الحكومة الجديدة لم تكن مهتمة بالاستماع إلا لما يعجبها.

رحب إيميل في غرفة المعيشة بمنزل راذرفورد بكأس الويسكي التي قدمها له راذرفورد. كان الوقت مبكرًا جدًّا على المشروب، إلا أن مجريات اليوم كانت تتطلب ذلك، انتشرت إشاعات حول عزم رئيس الوزراء إعلان الاستقلال عن بريطانيا العظمى في وقت لاحق من اليوم، كان سكان سيتي أوف كينجز متأهبين بالكامل لأنهم يعلمون –حتى دون اعترافهم– أن الاستقلال عن بريطانيا العظمى سيدفع بالتأكيد نحو حرب أهلية، فالإفريقي لم يعد سعيدًا بحكم الأقلية، صب راذرفورد كأس فودكا لنفسه، وشربها مباشرة ليصب أخرى، من الواضح أنها لم تكن عادة جديدة عليه، جلس أمام إيميل وابتسم، كانت الحكومة يائسة.

جاء صوت آجنيس، زوجة راذرفورد، من جزء آخر من المنزل: - أونيس، هل هذه أنتِ؟

آجنيس... لم يستطع إيميل كبت ابتسامة في كأس الويسكي عندما فكر فيها، لقد استجمعت قواها في يوم ما لتغمزه في إحدى الحفلات، وتحمر خجلًا كلما رأته، كانت جذابة بما يكفي، لكنها كانت «ربة منزل» أكثر من اللازم بالنسبة إلى إيميل، كانت أشبه ببغاء جميل مسلوب الرأي، وكان لديه كوكي.

- ما الذي ترتدينه بحق السماء؟

سمعا آجنيس تسأل، وتبعها رد مُبهمُ الكلمات.

تابعت آجنيس:
- أعرف أنه فستان! لقد أعطيتكِ هذاالفستان. كيف تنوين العمل وأنت ترتدينه؟
عندما سمع صوت آجنيس، اكفهر وجه راذرفورد بالغضب والاشمئزاز وشيء آخر... بالكراهية. لقد تشوهت ملامح وجهه، وبات أقرب للقباحة.
أصبح صوت آجنيس عاليًا ومجلجلًا.
- أستميحك عذرًا؟
ضغط راذرفورد على الجزء العلوي من أنفه، وأغلق عينيه وأخذ نفسًا عميقًا، كان يحاول السيطرة على نفسه لكنه فشل.
اعتقدَ إيميل أنه سمع اسمه.
صاحت آجنيس:
- حسنًا، لن أفعل ذلك أبدًا!
سأل راذرفورد بصوت هامس وهو يصر على أسنانه: - هل تسمح لي من فضلك؟
وقف، وخرج من الغرفة. صاحت آجنيس:
- يا لها من وقاحة مطلقة. دائمًا تتنصتين وتتسللين وتتطفلين، لا يهنأ المرء بالخصوصية في منزله وأنتِ فيه.
سأل راذرفورد:
- عزيزتي؟ ما كل هذا الاضطراب؟ أخبرتك أنني بحاجة إلى هدوءٍ اليوم، نحن نناقش بعض المسائل ذات الأهمية الوطنية الكبيرة.
- أعرف يا عزيزي، لكن أونيس هنا، وتودُّ مقابلة إيميل كويتزي.
مرت لحظة من الصمت والذهول.
- كيف عرفت أونيس أن إيميل كويتزي موجود عندنا؟
من نبرة صوته، استطاع إيميل اكتشاف كل ما حاول راذرفورد جاهدًا إخفاءه: الغضب، والاشمئزاز، والكراهية.
- حسنًا، حسنًا، ومن يعرف أكثر من الخدم؟ إنهم واسعو الحيلة، لديهم أساليبهم، أليس كذلك؟
- كيف لي أن أعرف...
الصمت السائد في الخارج قاطع حديث راذرفورد.
قالت آجنيس:
- شكرًا جزيلًا على عدم المشاركة في محادثة أنت لست جزءًا منها.
- سأشكرك كثيرًا، عزيزتي آجنيس، على عدم مناقشة الأمور ذات الأهمية الوطنية مع السيدة سيمبسون، أنت تعلمين مدى أهمية هذا الاجتماع بالنسبة

إليَّ، أنت تدركين الخيوط التي اضطررت إلى سحبها حتى أصل إلى هذه المكانة، إن تسببت ثرثرتك في حرماني من الترقية...
تناول إيميل جرعة طويلة من كأس الويسكي الخاصة به، ووضعها فارغة على الطاولة الجانبية، ووقف. لقد حان الوقت ليتدخل.
كان الضوء القادم من باب المطبخ ساطعًا جدًّا بالنسبة إلى إيميل، فأخرج نظارته الشمسية من جيبه عند الصدر، ووضعها على عينيه.
سأل إيميل:
- هل كل شيء على ما يرام؟
- نعم، نعم، بالطبع إيميل. فقط بعض المشاكل المحلية.
صححت آجنيس بحذر، واحمرت خجلًا من إيميل:
- يقصد مشكلات مع خادمتنا من السكان المحليين.
أتاه صوت أنثى من الطرف الآخر من باب المطبخ: - سيد كويتزي، أودُّ التحدث إليك، يا سيدي.
كان الصوت لامرأة إفريقية، لم تتحدث إليه مباشرة أيُّ امرأة إفريقية من قبل، حتى عندما بدأ بالدعوة لدعم مؤسسة الشؤون الداخلية، كان جميع الأفارقة الذين خاطبوه مباشرة من الذكور، فضَّلت النساء التحدث إليه عبر المترجم أو زعيم القبيلة.
كان إيميل مفتونًا.
ارتدت المرأة فستانًا جميلًا تزينه زهور زرقاء وبنفسجية، ربما كان الفستان جميلًا جدًّا لمثل هذا الوقت من النهار، لكن المرأة بدت أنيقة جدًّا فيه، كانت جميلة بطريقة لا تتقنها سوى بعض النساء، كانت تتمتع ببشرة ناعمة، وأسنان جميلة وإطلالة كملكة، إلى جانبها وقف صبي إفريقي صغير ممسكًا بيدها ذات القفاز الأبيض، كان أكبر قليلًا من الصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك، ارتدى الصبي بدلة زرقاء صغيرة بقصد إثارة الإعجاب، كانت عيناه مستديرتين بشكل كامل.
قالت آجنيس بنبرة فوقية:
- السيد كويتزي شخصية مهمة جدًّا جدًّا، ورجل شديد الانشغال.
- أعرف أن السيد كويتزي رجل مهم جدًّا.
سألت آجنيس، بدت خائفة ومذنبة:
- وكيف تعلمين أنه رجلٌ مهم؟
قالت المرأة الإفريقية بهدوء بالغ:
- لأنني قرأت الجريدة، مدام.
أصبح إيميل أكثر افتتانًا بالمرأة، لم يتخيل أن تتحدث امرأة إفريقية بهذه الطريقة قَط.

- أعلم أنك المسؤول عن مؤسسة الشؤون الداخلية يا سيد كويتزي، أعتقد أن لديَّ معلومات تهمك جدًّا.

تحدثت بشكل جيد قياسًا بكونها امرأة إفريقية، أشار كل ما فيها إلى الكبرياء حتى حذاؤها الأبيض المقطع.

سألها إيميل وهو يقترب من الباب، ويخاطبها للمرة الأولى: - ما قصتكِ؟

- للأمر صلة بزوجي.

ضحك إيميل، عندما وافق على اقتراح كورتني بإطلاق اسم «مؤسسة الشؤون الداخلية»، خشي أن يسيء الأفارقة فهم طبيعتها، والغرض الأساسي منها.

سأل إيميل، دون أن يستطيع تمالك نفسه:

- لا أتدخل في مثل هذا النوع من "الشؤون الداخلية"، إذًا ما القصة هنا؟ هل اكتشفت خيانة زوجك مع بائعة هوى؟

رفعت المرأة الإفريقية ذقنها وخفضت تنورة فستانها بينما راح إيميل يتأملها، بدت عدة ندوب متناثرة بشكل خشن أعلى صدرها، فهم إيميل تمامًا سبب قدومها إليه، تزوجت وحشًا وهي تريد أن تساعدها المؤسسة في التخلص منه.

- زوجي وأصدقاؤه... يخططون لقلب نظام الحكم، يجب أن يتهموا بالخيانة.

ضحك إيميل من سخافة الفكرة، لقد فهم سبب شعورها بالحاجة إلى التخلص من زوجها، فهم أن شرطة جنوب إفريقيا البريطانية والمشرفين الميدانيين والزعماء ربما خيبوا أملها سابقًا، ولم يفيدوها قط في هذا الموضوع، فالإدارة الاستعمارية والزعماء التقليديون يعتقدون أن المكان الأمثل للزوجة هو بجانب زوجها، فهمَ أنه الملاذ الأخير لها، لكن في الحقيقة كان الأمر سخيفًا جدًّا. كيف يمكن لزوج تتجول زوجته بحذاء مقطع أن يتآمر لقلب نظام الحكم؟ ضحك إيميل على الرغم من أن ذلك لا يدعو للضحك، كان ذلك بالضبط ما خشي وقوعه منذ تقدمت إليه الحكومة باقتراح مساعدتها، ما الذي قد يمنع الناس من استغلال المؤسسة لتسوية ثأر شخصي؟

ربما توقعت المرأة الإفريقية ضحكة إيميل التي تحمَّلتها واعتبرتها زلة، ما دفع إيميل للحرج، سرعان ما كان يضحك فقط ليتستر على حَرَجه.

استأنفت المرأة الإفريقية حديثها:

- زوجي هو إمبونجيني ماسوكو، كل أسبوعين يلتقي بالرجال التالية أسماؤهم...

تذكَّر إيميل أن بعض الأسماء التي أوردَتها موجودة في القوائم التي شاركها راذرفورد معه.

لا بد وأن راذرفورد تذكَّر هذه الأسماء أيضًا، لأنه عندما تنحنح، بدا كما لو أن شيئًا يصعب ابتلاعه قد استقر في حلْقه.

- تقولين إنهم يتآمرون؟
- نعم، يخططون للقتال من أجل الاستقلال، لقد سمعتهم.
- ما الذي يدفعك للإفصاح عن هذه المعلومات؟
ظهرت حقيقة الأمر أخيرًا عندما فتحت المرأة جزدانها، وسحبت قصاصة مطوية من صحيفة، وفتحتها بعناية، أعطتها لإيميل، كانت إحدى إعلانات المكافأة التي أصرت الحكومة على إطلاقها.
قال إيميل وهو يعيد قصاصة الصحيفة:
- الجحيم لا يرحم.
قالت المرأة الإفريقية بتصميم واضح في صوتها: - يريد ابني أن يصبح طبيبًا في المستقبل.
أرادت أن تخبر إيميل أنها تفعل ذلك لأجل ابنها، وليس لأجلها.
- أنا هنا لأحرص على أن يحقق حلمه.
صدقها إيميل، لقد تصرف بغباء عندما ضحك عليها سابقًا، نظر إلى الصبي الذي لم يكن أكبر بكثير من الصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك، أراد هذا الصبي أن يصبح طبيبًا ووالدته تعرف ذلك، لم يكن لدى إيميل أدنى فكرة عما يودُّ ابنه أن يصبح في المستقبل.
قال إيميل وهو يبتعد:
- سأرى ما يمكنني فعله.
استطاع فعل الكثير كما اتضح، كانت المعلومات في ذا تاور قوية بالفعل، في غضون ساعات قليلة تم إلقاء القبض على إمبونجيني ماسوكو ورفاقه. تفاجأ إيميل حقًّا من السلاسة التي تم بها الأمر.
من جانبهم، لم يتفاجأ إمبونجيني ماسوكو ورفاقه بالاعتقال. تمثلت مفاجأتهم في أنهم -وبدلًا من نقلهم إلى مقر وحدة المخابرات المركزية– نُقلوا إلى ذا تاور، بدا وجودهم في مؤسسة الشؤون الداخلية، هذه المؤسسة التي يتلخص هدفها في تزويد الأفارقة بتاريخ، مبعث راحة نوعًا ما بالنسبة إليهم، لطالما عرفوا أن لديهم تاريخًا، لذلك لم يأخذوا المؤسسة على محمل الجد، هكذا كانوا على أتم الثقة بأنهم لن يتعرضوا لأي أذى، سيقدمون التفاصيل اللازمة ليتم التعامل معها، لكنهم كانوا مخطئين، للأسف سارت الأمور بشكل فظيع بالنسبة إليهم، تولى إيميل شخصيًّا معالجة قضيتهم، ووجهت إليهم تهمة الخيانة، شعروا بالارتباك الشديد جراء هذه الأحداث، أليس الغرض الوحيد من المؤسسة هو جمع معلومات عن حياة الأفارقة؟ انقلب عالمهم رأسًا على عقب منذ ذلك الحين.
كان إمبونجيني ماسوكو رجلًا أنيقًا ووسيمًا بشاربٍ رفيع، وعينين واثقتَيْ النظرات، بدا لطيفًا نوعًا ما، وقليل الحذر، للحظة واجه إيميل صعوبة في

تصديق أن هذا الرجل الجالس أمامه قد حفر نقوشًا ساديَّة على جسد زوجته، وسمح لها بالتجول في حذاء مقطع، ألقى إيميل نظرة سريعة على حذاء ماسوكو، كان أسود وجديدًا ولامعًا، كشف إيميل قطعة اللغز المفقودة التي تفسر حالة الرجل الماثل أمامه، إمبونجيني ماسوكو كان رجلًا أنانيًّا وقاسيًا بشكل كبير.

قال إيميل:

- في الحقيقة، زوجتك هي التي حذَّرتنا من أنشطتك.

توقع إيميل تبدل ملامح إمبونجيني بمجرد سماعه للخبر، لكن ذلك لم يحصل، ما زال يبدو صاحيًا ووسيمًا، وقال بهدوء: - تلك الساقطة.

حدَّق إمبونجيني ماسوكو إلى إيميل لمدة كانت كافية لإزعاجه، قبل أن يضيف: - من السهل سحقهن، لكنك عاجز عن سحق جميعهن، لذلك ينبغي عليك اختيارهن بعناية فائقة.

بعد ذلك، جلس إمبونجيني ماسوكو على كرسيه مستسلمًا لمصيره.

- هل فعلت ذلك لأجل المال؟

هز إيميل رأسه.

- لأجل ابنكما. قالت إنه يريد أن يصبح طبيبًا في المستقبل، يبدو شخصًا ذا مستقبل أكثر إشراقًا.

- هذا جيد بالنسبة إليه، لكن الصبي ليس ابني.

قال إمبونجيني ماسوكو وعاد للتحديق إلى إيميل.

- إنه ليس ابني.

كرر ذلك، كانت تلك حقيقة أرادها أن تصل إلى إيميل كويتزي.

- لقد رأيتَ الصبي على ما أظن، هل تعتقد أن رجلًا مثلي سيكون له ابن مثله؟

للمرة الأولى خطر على بال إيميل أن حياة الأفارقة معقدة للغاية، إنها بالتأكيد أكثر تعقيدًا مما تبدو عليه من الخارج، على الرغم من كل ما يعرفه من الصعب استيعاب بعض التعقيدات المعنية بما تحاول المؤسسة القيام به، ألم يكن هذا ما حاول إيزيكيال دي فيلييه إخباره لإيميل في تلك الليلة التي ألقى فيها كلمة أمام كابريكورن أفريكا سوسايتي؟

في النهاية أُخرج إمبونجيني ماسوكو ورفاقه من ذا تاور، واقتيدوا إلى سجن مشدد الحراسة بانتظار محاكمتهم وإصدار الحكم عليهم، كان الجميع يعلمون بوجود الأدلة ضدهم، ما يعني نتيجة واحدة فقط لمحاكمتهم بتهمة الخيانة. بينما غادر إمبونجيني ماسوكو ورفاقه برج ذا تاور، كان الجميع يعرفون أن شبح الموت يحوم فوق رؤوسهم.

الفصل السابع والعشرون

لم يستسِغ إيميل السهولة التي انجرفت فيها المؤسسة نحو تنفيذ تعليمات الحكومة. أحس أنه حط من قدر نفسه منذ اليوم الأول للتعاون المباشر مع الحكومة، لكن هل كان من المفاجئ حقًّا أن يخرج عن حيادِه أخيرًا لينفذ مخططات الحكومة بحذافيرها؟ خلافًا له فقد توقعوا أن يُقدم إيميل على ذلك، في النهاية كانت هذه الخطوة أكثر سهولة من التمسك بقناعات لم يكن متأكدًا منها على أي حال.

تفحص الغرفة الخرسانية الرمادية والباردة التي استخدمها للتحقيق مع الرجال الستة، في البداية كان ينوي تحويل هذا القبو إلى غرفة لأرشفة ملفات الأطفال الذين ماتوا قبل ارتياد المدرسة، أي قبل أن يتمكنوا من خط السطور الأولى في تاريخهم. يدرك إيميل الآن ضرورة استخدام هذه الغرفة لأغراض أخرى، ينبغي أن يصبح المكتب والكراسي الخشبية التي أحضرها عناصر دائمة، ينبغي إجراء تعديلات، يجب تركيب مغسلة في زاوية الغرفة، نظر إيميل إلى المصباح العاري وقرر ضرورة تزويده بغطاء قبل أن يطفئه لتخيِّم العتمة.

بينما كان يصعد الدرجات وصولًا إلى مكتبه، شعر فجأة أنه مستنزف، وانتابته رغبةٌ قوية في الوجود في المنزل مع كوكي والصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك، كانت مؤسسة الشؤون الداخلية صامتة بشكل مخيف؛ جلس العاملون فيها وراء مكاتبهم مصدومين، هل كانوا جميعًا –مثله– يتساءلون كيف أصبحوا مسؤولين عن اتهام ستة أشخاص بالخيانة؟

كان إيميل يستعد لمغادرة مكتبه عندما رن جرس الهاتف. فكر جديًّا في عدم الرد، لكنه –بطبيعة الحال– رفع السماعة، لطالما رفعها.

كان راذرفورد هو المتصل، وبدا من صوته أنه في حالٍ مزرية.

تلعثم راذرفورد في كلامه:

- أين كنت؟ حاولت الاتصال بك مرارًا وتكرارًا.

- كنت أعالج المعلومات التي زودتني بها المرأة التي أتت لرؤيتي، أوصلتنا المعلومات إلى ستة أشخاص.

- حسنًا، بينما كنتَ مشغولًا بملاحقة زوج أونيس، أعلن رئيس الوزراء الحقير الاستقلال عن بريطانيا اللعينة.

كان إيميل قد نسي تمامًا كل ما يخص الإعلان المرتقب لرئيس الوزراء.

- كنت أعلم أن الخبر لم يصلك، وقع ذلك في الساعة 11 ظهرًا، قلت لآجنيس أنك قد تكون اللعين الوحيد في البلاد الذي لم يصله هذا الخبر، قلت لها أنك لا بد مشغول جدًّا بمؤسستك الغالية، ألم أقل لك ذلك يا آجنيس؟ ماذا؟ هل ما زلتِ تبرطمين؟ الذنب ذنبك، الحق على ثرثرتك.

ضحك راذرفورد على الطرف الآخر من الاتصال.
هل تم الاستقلال عن بريطانيا؟ ما الذي يعنيه ذلك بالضبط؟ لطالما بدت البلاد –بالنسبة إلى إيميل– مستقلة بشكل كامل عن بريطانيا، ألم تكن هذه منذ البداية الغاية الأصلية من إقامة مستعمرة تتمتع بحكم ذاتي؟
قال راذرفورد بنبرة رصينة مفاجئة:
نعم، لقد تم الأمر، ولا يمكننا التراجع. إنها الحرب المؤكدة.
لم يستطع إيميل أن يرى سوى ما ستجلبه الحرب الأهلية من دمار غير ضروري، ستفقد الدولة الكثير من مقوماتها، وفي النهاية لن تعود هذه الخسائر بأي فائدة. بغمضة عين انقلب وضعهم من إشكالي، إلى مثير للشفقة.
- لا أصدق أنك كنت مشغولًا بتحقيق رغبات خادمتي، في نفس اللحظة التي اتُّخذ فيها أهم قرار في تاريخ البلاد، أعرف أنك تحب التنورة والوجه الجميل، لكنها كافرة لعينة يا إيميل... وهي خادمتي. حتى أنت عليك أن تلزم حدك، سأقول بأنها استفادت من الفستان أكثر من عزيزتي آجنيس، لكنها بالتأكيد ليست السيدة فيندلاي... هل تذكر رقبتها التي تشبه البجعة...
- ماذا تريد يا راذرفورد؟
- أنت غاضب، لقد أغضبتك، آسف إيميل... آسف جدًّا... الأمر فقط... الأمر فقط أنك أرخيتَ ظلًّا ثقيلًا على المسألة، والمرء يتعب من مواصلة القيام بذلك، ألا توافقني الرأي؟
- حسنًا راذرفورد، أنا بحاجة إلى...
- قل لهم إنني كنت أعرف...
- أقول لمن بأنك كنت تعرف ماذا؟
- عندما يتصلون بك، وسيفعلون، فقط قل لهم إنني كنت أعرف... أخبرهم أن أونيس خادمتي، أسرَّت لي بالمعلومات فاتصلتُ بك لمساعدتك في معالجة الأمور، إن عرفوا بأنني لم أكن على علم، ستذهب الترقية أدراج الرياح، وسأصبح بلا عمل.
- أنا متأكد أن الأمر لن يصل إلى هذه الدرجة.
- أرجوك إيميل.
كان اليأس واضحًا في صوت راذرفورد.
- لا تنسَ أنني أنا من أمنتُ لك الوظيفة في وزارة شؤون السكان الأصليين، وهذا ما جعل أحوالك أفضل. لولايَ لما تعرَّفت على عائلة أشتونبيري منذ البداية... لقد وصلتَ إلى ما أنت عليه بفضلي.
- وداعًا راذرفورد.
قالها إيميل قبل إغلاق سماعة الهاتف.

غادر إيميل مكتبه وقد أقنع نفسه أن رؤية ابنه هي الحل الوحيد الذي يحتاج إليه لتخفيف مرارة الأحداث التي شهدها اليوم.

عندما عاد إيميل إلى المنزل وجد أن كوكي والصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك يواصلان انعزالهما في كرتهما الزجاجية، انتعل الصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك حذاء والدته الأحمر ذا الكعب العالي، وارتدى وشاحها الأزرق وقرطيها من اللؤلؤ الأبيض، وحمل حقيبة يدها حمراء اللون، كانا يضحكان ويغنيان معًا.

- أستمتعُ بكوني فتاة.

استشاط إيميل غضبًا... لم يتذكَّر سوى قبعة الكلوش الحمراء.

كان إلى جانبهما في لحظة، وقد نوى الإمساك بالصبي وجره خلفه لحمايته من تأثير والدته، للأسف ووسط يأسه، انتهى الأمر مع إيميل بإلقاء الصبي على الأرض.

ولدهشته انقضت كوكي عليه، لقد حطم كرتها الزجاجية، ولن تتصرف بلطف، بالنسبة إليها لم يفعل ابنها العزيز والجميل أي خطأ بلعبه وارتدائه لهذه الملابس، جميع الأطفال يلهون بهذه اللعبة، اللوم كل اللوم يقع على إيميل.

رأي إيميل كان مختلفًا تمامًا، كان يعرف عن قبعة الكلوش الحمراء، وما قد تحدِثه من دمار، لكن من الواضح أنه لن يستطيع إخبار كوكي بهذا الشأن، بدلًا من هذا أخبرها بضرورة أن يذهب الصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك إلى مدرسة سيلوس للبنين حيث يتعلم كيف يصبح رجلًا.

قالت كوكي أن الرجولة لا تأتي بالتعلم، لأنها نتيجة طبيعية للتطور.

عرف إيميل أن كوكي تجهل ما يقبع خارج كرتها الزجاجية.

سألت كوكي:

- مم أنت خائف؟

- لستُ خائفًا.

- بلى، أنت خائف، منذ أن وُلد إيفرلي وأنت خائف.

- لستُ خائفًا.

- انظر إلى نفسك وأنت تصب جام غضبك علينا. هذا ليس سلوكًا طبيعيًّا يا إيميل.

أليس من الطبيعي أن يحرص المرء على ألا يكون ابنه ضعيفًا في بلدٍ يسودُها الرجال القُساةُ والأقوياء؟

هل تعرف كوكي أن رئيس الوزراء أعلن الاستقلال؟ هل تقدِّر ما يعنيه ذلك للبلاد؟ هل تهتم؟ متى ستنضج؟ متى ستنضم إليه في العالم الحقيقي؟ لقد سئم من غفلتها عما يدور أمام عينيها، ألا تستطيع رؤية خطبٍ ما في الصبي

الذي لم يكن اسمه فريدريك؟ عليه ارتياد مدرسة سيلوس للبنين ليشتد عوده، عليه أن يتعلم كيف يصبح ذلك النوع من الرجال الذين تحتاج إليهم البلاد.

- لستُ متأكدةً من أن مدرسة سيلوس للبنين خيار جيد، انظر إلى ما حوَّلتْكَ إليه، رجل خائف، خائف من شيء يجهله، أيُّ نوع من الرجال هذا؟ بالتأكيد، ليس نوع الرجال الذين أودُّ أن يصبحه إيفرلي في المستقبل.

كانت هذه حالة نادرة من كوكي، لطالما وقفت كوكي في وجه إيميل عبر والديها، لكن المواجهة مباشرة في هذه المرة، لقد غضبَت أيضًا عندما ألقى بصبيها الغالي والجميل على الأرض.

قالت كوكي وذقنها بارز بتحد وإصرار:

- لم تحظَ بكفايتك من قماش الرسم لتلون عليه تجاربك في الحياة، وتود الآن أن تحد خيارات إيفرلي، لن أسمح لك بذلك، لن أسمح لك بدفع الصبي نحو عيش الحياة وفق تعريفاتك الضيقة، لن أسمح لك أبدًا.

لم تحظَ بكفايتك من قماش الرسم لتلون عليه تجاربك في الحياة؟ بدت أشواك هذه الكلمات مدببة بعناية يصعُبُ ارتجالها، لطالما أرادت كوكي أن تقول هذه الكلمات، لقد عرف ذلك من ميلِ ذقنها والتحدي الواضح في عينيها.

سمع إيميل صوت إمبونجيني ماسوكو عندما قال: «من السهل سحقهن، لكنك عاجز عن سحق جميعهن، لذلك ينبغي عليك اختيارهن بعناية فائقة».

رأى إيميل ذراعه ترتفع دون أن يشعر، ولشدة دهشتها لم تفعل كوكي أيَّ شيء سوى التحديق بحالة صدمة إلى اليد المرفوعة.

أوشك إيميل على صفعها لو لم يوقفه شيئان: أولهما أن الصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك عضه بشدة في ساقه اليمنى فعاد إليه رشده، وثانيهما رؤيته للانعكاس المخيف لصورته على مرآة خزانة كوكي، تساءل كيف تحوَّل إلى مثل هذا الشيء المخيف؟

وبينما وقف بذراعه المرفوعة يتأمل الانعكاس المخيف لصورته، سحبت كوكي الصبي بعيدًا وخرجا من المنزل، سمعها تنطلق بالسيارة بعيدًا، فأدرك أنه أصبح شديد الشبه بشيء لم يخطر بباله مسبقًا.

هل كان السبب هو تلك العبارة «قماش الرسم»، العبارة التي لم تستخدمها كوكي قط، العبارة التي لا بد وأنها استعارتها من مفردات بياتريس بيت-بوفورد، الفنانة، العبارة التي لطالما كرهها، هل كانت تلك العبارة هي السبب الحقيقي في رفع يده لصفع كوكي؟ قماش الرسم... لكن، بالطبع لم يكن ارتباطها ببياتريس بيت- بوفورد هو الذي دفعه للاستجابة بمثل هذه الطريقة، لم يستطع إيميل إلا أن يتساءل عما تعرفه كوكي عنه بالضبط.

ساد الصمت فجأة، سمع إيميل صوت الصمت بوضوح شديد.

أحس بفراغ المنزل... ذلك الفراغ الذي كان مألوفًا له... يشبه فراغ المنزل من كوابيس طفولته... المنزل الذي لطالما أخافه اكتشاف احتوائه على طفل ببشرة بنية فاتحة... المنزل الذي قالت إنهما لطالما عاشا فيه.

سمع صوت الصفير مع تنفسه، قبل أن يشعر بضيقٍ في صدره سقط على الأرض وهو يتنفس بصعوبة.

خلال معاناته لالتقاط أنفاسه ألقى إيميل نظره خاطفة على الخزانة أمامه. وقعت عيناه على هدية ماريون من مجموعة الفراشات الكريستالية، وقد احتلت مكان الصدارة في خزانة كوكي.

رقد هناك... رجلٌ فككته عبارة واحدة.

الفصل الثامن والعشرون

وقف الصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك أمام إيميل في زيه الرسمي الذي كاد أن يبتلع جسده الصغير بالكامل، كانت ملابسه أكبر منه بقياسين على الأقل: القبعة والسترة ذات اللون الكحلي، والقميص الأزرق الفاتح، والبنطال الرمادي والأزرق، والجوربين الأبيضين، والحذاء الأسود اللامع «والمصقول كمرآة عاكسة»، وربطة العنق المخططة باللونين الأزرق والرمادي.

كان الصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك مضطرًّا إلى إمالة رأسه نحو الوراء لينظر إلى والده، في تلك اللحظة، وهو يحدِّق إلى الصبي، أحس إيميل بالكثير من الحب الذي لم يعرف ما يفعل به.

منذ أن عضه الصبي في ساقه اليمنى وترك ندبة دائمة، لم يعرف إيميل حقًّا ماذا يقول له، لم يكن مستاء من تصرف الصبي، في الواقع كان إيميل معجبًا بدفاع الصبي عن والدته، في تلك اللحظة أظهر الصبي معدنه الحقيقي.

بينما واصل الصبي النظر إليه، مترقبًا تذكُّر إيميل نفسه في زي رسمي مماثل... صبيًّا غير سعيد بعمر التاسعة، يحلم دائمًا بمكان آخر كان منزله في يوم ما. تمنى بصدق أن يحظى الصبي في ميلتون بسعادة أكبر مما أحس بها هو في سنه.

فهم إيميل بالطبع أن كوكي اشترت الزي الرسمي بعدة قياسات كبيرة جدًّا لتخبره بشكل لا لبس فيه، أن ابنها سيكبر فيها، لتقول له إن ابنها الغالي والجميل لن يرتاد مدرسة سيلوس للبنين أبدًا.

كان الصبي ما زال يرفع رأسه لينظر إليه، وما زال ينتظر.

بتردد رفع إيميل القبعة كحلية اللون، وعبث بشعر الصبي الذي ورثه عنه، بلون أعشاب الفيل المترنمة في السافانا، وضع القبعة كيفما اتفق.

- اليوم الأول في المدرسة، ها؟

أومأ الصبي برأسه الذي ما زال مرفوعًا بانتظار وترقب.

تذكر إيميل أنه أجرى حوارات كاملة مع والده في هذا العمر، لكنه لم يعد يتذكر مواضيع تلك الحوارات، تذكر الجلوس فوق كتفي والده في كهوف بامباتا ونسواتوجي وسيلوزواني الموغلة في مرتفعات ماتوبوس، ليحاولا معًا فك رموز رسومات الصيد الجدارية، هل كانا يتحدثان عن الصيد؟ نعم... تذكَّر إيميل الآن... هذا ما تحدَّثا عنه آنذاك، لكن الصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك ليس مهتمًّا بالصيد.

طرَفَ الصبي بعينه مرة، مرتين، فرَك أنفه و... توقف عن الانتظار، حوَّل نظره من والده إلى حذائه الأسود اللامع والمصقول كمرآة عاكسة، ثم انحنى لمسح أثر خدش يكاد لا يُرى.

كانت لحظة سانحة ضائعة.
أحس إيميل بضياع تلك اللحظة.
قالت كوكي التي دخلت الغرفة بصوت ينبض بالحماس الذي لم يُخفِ حقيقة بكائها طوال الليل على ابنها الغالي والجميل الذي سيخرج إلى العالم:
- دعني أنظر إليك.
لم تكن واثقة من أن هذا العالم سيتعامل مع ابنها بالعناية التي يستحقها، كانت تضع ثوب نوم أصفر من قماش التيري المزغب فوق فستان أزرق ارتدتْه لتوصيل ابنها إلى المدرسة.
قالت كوكي وهي ترفعه لتعانقه:
- ابني الجميل ذو الشعر الذهبي.
قالت وهي تقبِّله:
- مثالي دائمًا كصورة.
ابتسم الصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك، وابتسم أكثر مستمتعًا بالتوهج الدائم لحب والدته.
قالت كوكي وهي تتردد في وضع ابنها أرضًا:
- أود التقاط بعض الصور.
صلحت تسريحة شعره ووضعية قبعته، وانحنت لتحدق إليه وتتأكد من إطلالته المثالية، فاغتنم الصبي الفرصة ليقبِّلها.
بعد شهر سيحتفل الصبي بعيد ميلاده السابع، تساءل إيميل إن قبَّل والدته عندما كان في السادسة من عمره، هل كان السبَّاق في تقبيل أمه، أو أنها كانت دائمًا من تقبِّله؟
قالت كوكي وهي تعانق ابنها وعيناها تقاومان الدموع:
- أنت أجمل ملاك صغير في العالم بأسره.
التقط إيميل مفاتيح سيارته من فوق الطاولة.
قالت كوكي دون أن تنظر إليه:
- أود التقاط صور لكما معًا.
وفضلت البحث عن كاميرتها التي لطالما كانت في متناول يدها، وجدَتها بحماس مصطنع:
- ها هي ذي!
التقطت كوكي ثلاث صور بدا فيها إيميل غير مرتاح وهو يمسك يد الصبي، في الصورة الأولى كان الصبي ينظر إلى إيميل دون ترقب، وفي الصورتين الأخيرتين كان الصبي ينظر بثبات إلى الكاميرا، في إحدى الصور رسم على وجهه ابتسامة غير واثقة، ولم يبتسم في الصورتين الأخيرتين.

لو التُقطَت الصور في وقت سابق فقط عندما كان الصبي ما زال في حالة الانتظار والترقب، لشكلت الذكرى مصدر أمل.

في أثناء خروجه من الباب الأمامي، علِم إيميل أن كوكي ستلتقط عددًا كبيرًا من الصور للصبي الذي لديه بالفعل عشرات ألبومات الصور العائلية المخصصة له وحده، كان يدرك أن الصبي في تلك الصور سيبتسم ويضحك بحرية لأنهما –هو ووالدته– سيعيشان سعادة افتقداها قبل لحظة واحدة، عندما كان إيميل حاضرًا.

وبحزنٍ مطرد شغل إيميل محرك السيارة.

«ارتديتُ هذا الزي أيضًا ذات مرة»، كان إيميل قادرًا على إخبار الصبي بذلك، لكن لسانه خانه ولم تخطر الجملة في بالهِ إلا بعد فوات الأوان.

ضاع الأمل بالفعل.

قاد إيميل السيارة بعيدًا، وقرر أنه يستطيع استرجاع بعض مما خسره، وبإمكانه تعويض الصبي في عيد مولده السابع، سيشتري له حلقة الهولا هوب التي قالت كوكي أنها أحب أمنياته على قلبه، وسيصبح كل شيء على ما يرام، اشتاق كثيرًا لحمل الصبي فوق كتفيه حيث يراه العالم ويفتخر به.

بالنسبة إلى عيد المولد السابع للصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك، نظمت كوكي نزهة في أطلال خامي. أحبت قضاء وقت سعيد تعمه المودة، فقررت الخروج في نزهةٍ إلى مكان بعيد، واقتصرت قائمة المدعوين على والديه، ووالديها، لسوء الحظ ولأنه عجز عن حل التناقض بالسرعة التي كان يرجوها غادر إيميل ذا تاور بعد ساعة من الموعد الذي حدده لنفسه.

نظرًا إلى كل ما يجري في المؤسسة، كان إيميل في الواقع يتطلع قدمًا نحو هذا الاجتماع العائلي، لكن وبينما هَمَّ في سيارته بمغادرة المواقع الصناعية، أدرك أنه نسي هدية الصبي في المنزل، عاد أدراجه نحو المنزل ليجد الهدية بالقرب من باب المطبخ، لا بد وأن كوكي تركتها له هناك، أخذ إيميل هدية الهولا هوب زرقاء اللون مع الشريط وربطة الهدايا الزرقاء المعقودة والملصقة عليها مسبقًا، أصرت كوكي على أن تتخذ الحلقة الشكل المتعارف عليه للهدايا.

نظر إيميل إلى ذلك الشيء الغريب المتمثل بحلقة الهولا هوب الزرقاء بين يديه، كان واثقًا أن فريدريك كويتزي ذي السبعة أعوام يريد ويستحق هدية أفضل، هدية أكثر ملاءمة لصبي.

حرص إيميل على شراء الهدية بنفسه، وتأكد أنها زرقاء، اعتادت كوكي شراء الهدايا السابقة لأن إيميل كان مشغولًا جدًّا، ولأنها أكثر دراية بما يريده الصبي ويحتاج إليه. لم يكن على إيميل سوى التوقيع على بطاقة التهنئة التي تخطها كوكي: «إلى إيفرلي، مع حبي، والدك». اعتادت كوكي اختيار الهدية وبطاقة التهنئة، وتغليفها عادة بورق يحمل صور ملائكة -بحسب رؤيتها للصبي-، أو

الأرانب -الحيوان المفضل للصبي- أو الدببة المحشوة -اللعبة المفضلة للصبي-، لكن وبغض النظر عن ميوله الأخرى كان الصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك حاد الذكاء؛ استنتج بذكاء في عامه السادس ضلوع والدته في اختيار الهدية التي حملت اسم والده.

وضع إيميل حلقة الهولا هوب الزرقاء في المقعد الخلفي لسيارته، وانطلق في طريقه نحو أطلال خامي متأخرًا بساعتين عن الموعد الذي وضعه لنفسه.

هم –أفراد عائلته– لم يروه قادمًا، جميع العيون المرحة كانت معلقة على الصبي، بينما جلسوا على بطانية النزهة وسط بقايا ما كان حفلة عيد ميلاد رائعة، تعالت ضحكاتهم الصاخبة على شيء قاله الصبي، أو فعله. أومأت والدة إيميل لحفيدها، وأشار الصبي إلى شيء أعادهم إلى الضحك مجددًا.

كانوا سعداء حقًّا... بدونه، في تلك اللحظة أحس إيميل أن انضمامه إليهم سيغير كل شيء، قد تختفي سعادتهم وتتوقف ضحكاتهم في محاولة التكيف مع حضوره، فهِمَ أنه لم يعد ضروريًّا لاستكمال سعادتهم، هل كان كذلك من قبل؟

أسند إيميل حلقة الهولا هوب الزرقاء الملفوفة بشريط وربطة هدايا زرقاء معقودة وملصقة عليها مسبقًا إلى شجرة موبيني، ومشى بعيدًا دون أن يراه أحد.

سمعهم –أفراد عائلته– يضحكون بمرح خلف ظهره.

بغض النظر عن أسلوب تقديمها، أصبحت حلقة الهولا هوب الزرقاء عنصرًا عزيزًا في حياة الصبي، لعب بها لساعات في الساحة الأمامية الواسعة لمنزل عائلة كويتزي، حتى إنه اعتاد اصطحابها معه إلى المدرسة أحيانًا، كان إيميل فرحًا بمدى تعلق الصبي بهذا الشيء الذي قدمه إليه، ومع ذلك ظل قلقًا، كان يخشى أن يرى الآخرون هذا الصبي مع حلقة الهولا هوب الزرقاء، ومدى تعلقه بها؛ خشي أن تبدأ أمواج الأفكار بالتلاطم في رؤوسهم، إلى جانب حجمه الصغير قياسًا بسنه ومدى شغف والدته به؛ خشي إيميل أن يجعله ذلك لقمة سائغة للمتنمرين.

أظهرت الأيام أن مخاوف إيميل لا أساس لها، لحسن الحظ وعلى الرغم من كل الصعاب حقق الصبي نجاحًا في سنوات دراسته الابتدائية، كان لديه صوت ملائكي، كان يسبح برشاقة حوري البحر، كان مولودًا للمسرح، نُشرت مآثر الصبي في ذا كرونيكل تحت عناوين وكليشيهات كهذه، مع الوقت نقل الصبي شعبيته ونجاحه إلى مدرسة ميلتون الثانوية حيث شب ليصبح بطول والده.

عرف إيميل عن نجاحات الصبي من الناس والمقالات المنشورة في ذا كرونيكل، ولأن كل سطح في غرفة المعيشة كان مزينًا بصوره أو بالكؤوس والميداليات التي فاز بها، كان إيميل شديد الفخر بنجاحات الصبي، لكن انشغاله الدائم بالحرب التي تخوضها بلاده منعه من حضور أي حفل أو

مسرحية أو فعاليات ومسابقات، هكذا كان إيميل كويتزي شاهدًا من بعيد على التغير المذهل لابنه من صبي إلى شاب.

من جانبها عوَّضت كوكي غياب إيميل، شاركت في كل ما قام به الصبي، وظفت عائلة كويتزي ثلاثة خدم: طاهية وخادمًا في المنزل وعاملًا في الحديقة. على أي حال، أصرت كوكي على أن تتولى شخصيًّا الإشراف على كل ما يخص الصبي، كانت تستيقظ باكرًا لإعداد وجبات الغداء وتوضيبها له، وكانت تقله في السيارة إلى المدرسة ولا تزال اللفائف في شعرها، وكانت تخيط أزياءه في المسرحيات، وكانت تصلح عدته الرياضية، وحضرت كل مسرحياته وعروضه ومبارياته والمسابقات التي شارك فيها، في المدينة أو خارجها، ولطالما جلست في الصف الأمامي لتشجعه وتصفق له بأعلى صوت، كانت سعيدة وراضية بأن تقله في طريق العودة من المدرسة أو الأنشطة، وفي المنزل كانت تطهو طعامه بمحبة، كانت عضوًا فعالًا في جمعية المدرسين وأولياء الأمور، وشاركت في جميع معارض بيع المخبوزات والتومبولا، لم تشعر قط بالكلل أو الملل من محبتها له، كان صبيها العزيز والجميل يملأ كل لحظة من حياتها، كانت تعيش وتتنفس الهواء لأجله، منذ يوم ولادته عام 1959، كان من المستحيل العثور على امرأة أكثر سعادة من كوكي كويتزي في سيتي أوف كينجز المثقلة بالضغوطات.

مرت السنون سريعًا دون أن يدرك إيميل ليصبح الصبي الذي لم يكن اسمه فريدريك في السادسة عشرة من عمره، وها هو ذا يجلب معه فتاة جميلة اسمها روزاموند بيرس ليعرفها على والديه، أحس إيميل بالراحة وتبددت المخاوف التي انتابته طوال هذه السنين، أحيانًا تبقى الهولا هوب مجرد حلقة للهو.

لم تدُم هذه الراحة طويلًا، في أحد الأيام وعندما كان واقفًا في غرفة المعيشة يحتسي كأس ويسكي، وينظر إلى الأزهار الوفيرة والمبهجة التي زرعتها كوكي شاهد إيميل فتيَّتْن يلعبان، الفتى الذي لم يكن اسمه فريدريك وبيده حلقة الهولا هوب الزرقاء، كان يلاحق فتًى ببشرة دي فيلييه الملونة، لم يشك إيميل في أي شيء في البداية، كانت مجرد لعبة بين الفتيان، لكنه لاحظ شيئًا مختلفًا ومألوفًا بشكل غريب في هذه المطاردة التي تركت انطباعًا واضحًا لديه، على الرغم من هروبه بدا الفتى ببشرة دي فيلييه الملونة كما لو أنه أراد أن يُقبض عليه. المطاردة إذًا لم تكن بقصد الهروب، وإنما لتحقيق رغبة ما، وبحلقة الهولا هوب الزرقاء، التقف الفتى الذي لم يكن اسمه فريدريك الفتى ببشرة دي فيلييه الملونة وسقطا معًا وهما يضحكان في حديقة الورود، لم يستطع إيميل مشاهدة ما حدث بعد السقوط، كل ما عرفه أن ضحكاتهما توقفت.

انزعج إيميل جدًّا من هذه الحادثة، ما الذي شاهده للتو؟ ما الذي يواصل رؤيته وهو يحدق إلى صمت شجيرات الورد؟ خلال ما بدا وكأنه فترة طويلة جدًّا ظل الفتيَّان مختبئين بجوار الشجيرات ولم ينهضا.

لم يستطع إيميل الحراك، وقف هناك مذهولًا.

عندئذ، وصلت روزاموند وانضمت إليهما في حديقة الورود، على الرغم من أنها لا بد وقد رأت ما لم يستطع إيميل مشاهدته مدت يدها للفتى الذي لم يكن اسمه فريدريك فأمسكها للنهوض. قبَّل الفتى الفتاة ولا بد أن الفتى ببشرة دي فيلييه الملونة كان يراقبهما من حديقة الورود.

أحس إيميل بالارتباك الشديد، هل كان ما فعله الفتى مع روزاموند عرضًا متقنًا للتخلص من الذنب؟ هل يعقل أن الفتى منجذب للفتيان والفتيات معًا؟ بالطبع، بياتريس بيت- بوفورد ستجيب على هذا السؤال بنعم، أحس بضلوعها في كل هذا، وحده الله من يعرف ما الذي دفعت الفتى لاكتشافه في مجتمعها الاستعماري. لطالما كانت كوكي الطرف الأضعف بينهما، لطالما كانت سعيدة في الانقياد، فعميت عيناها عن الخطر الحقيقي الذي تشكله بياتريس بيت- بوفورد.

أحس إيميل أنه خذل الفتى، كان عليه أن يفعل المزيد لحمايته، على الرغم من كل شيء ما كان عليه شراء حلقة الهولا هوب زرقاء اللون.

الفصل التاسع والعشرون

مع بداية عام 1972، لم يعد بإمكان الحكومة التستر تحت عبارات «أعمال تخريب عشوائية» أو «مناوشات خفيفة مع الإرهابيين»، وأصبحت مضطرة إلى الكشف عن الاسم الحقيقي لما يجري: إنها الحرب. سقط ما يكفي من القتلى لتبرير هذا الاسم، ومع ذلك لم يكن من الوارد قط وصفها بالحرب الأهلية، مثل هذا الوصف يعني أن الطرفين المتقاتلين متساويان، ويملكان مبررات عادلة لحمل السلاح، ولهذا اختارت الحكومة تسميتها بـ «حرب الأدغال». كان هذا الاسم مناسبًا، حيث تجري معظم الأعمال القتالية في أراضي السافانا العشبية، على أي حال، فضَّلت الحكومة هذا الاسم لما له من دلالات إضافية، لم تكن هذه الحرب شبيهة بسابقاتها في أوروبا، حيث دار الصراع بين رجال متساوين من حيث القدرة والكرامة والحضارة، كانت هذه هي الحرب التي يخوضها الأوروبي مجددًا لصد قوى الظلام في إفريقيا، لم يكن نزاعًا بين سادة محترمين، بل معركة ضد اللا عقلانية الممثلة في العقل الإفريقي، كانت حربًا ضد متوحشين يصعب الارتقاء بإنسانيتهم نحو مستويات تكفي لخوض حرب حضارية، وكانوا مضطرين إلى اللجوء إلى تكتيك حرب العصابات، يترك اسم حرب الأدغال انطباعًا بأنها كانت إجراءات مكروهة وضرورية، بدلًا من وصفها كمعركة فعلية من أجل مستقبل البلاد.

أرادت الحكومة أن يبدو الوضع كحالة مكروهة وضرورية، لكن الحقيقة هي أن مواطني الدولة كانوا يسقطون قتلى بأعداد متزايدة وبشكل مقلق، ولدهشة الحكومة لم يكن هناك حد لعدد الأفارقة المستعدين لتقديم أرواحهم في سبيل «نضال التحرر» القومي السامي.

كانت الحكومة خبيرة بشعبها من الأفارقة، وأدركت أن العاديين منهم سعداء، ولم تتصور أنهم –رجالًا ونساء، فتيان وفتيات– سيسيرون في ركب الحرب طواعية لأنهم شعروا باضطهاد حكم الأقلية البيضاء، لذلك فضَّلت الحكومة تصديق أن هؤلاء الأفارقة السعداء كانوا مجرد بيادق في لعبة الإرهابيين الشيطانية.

لردع الأفارقة عن الانضمام إلى الإرهابيين، وتأكيدًا على انتصار الأوروبيين في الحرب، بدأت الحكومة إذاعة تقارير حالة يومية عبر الراديو تتضمن إشارة واضحة إلى ارتفاع الخسائر بين الأفارقة وعدد جثامينهم. ونظرًا لـ «تدخلها» التدريجي في المحطة التلفزيونية الوحيدة والمستقلة في البلاد، بدأت الحكومة بث صور جثث الأفارقة السود، والتي شاهدها المواطنون ذوي البشرة البيضاء وهم يتناولون عشاءهم، اعتقدت الحكومة أن ذلك سيكون

مقنِعًا، فالبِيض سيرَون أنهم منتصرون، بالتأكيد ساعد ذلك في اختتام تقارير الحالة بعبارة: «لم تقع إصابات من جانبنا» عادة...

سببٌ آخر دفع الحكومة لاستعراض جثامين الأفارقة السود، وهو تنبيه ذوي البشرة السوداء من الموت سدىً في حربٍ لا معنى لها، للأسف كان من الصعب اختبار مدى فعالية هذه الوسيلة لعدم قدرة معظم الأفارقة من ذوي البشرة السوداء في البلاد على شراء أجهزة تلفاز.

كان إيميل رجلًا مختلفًا عن غيره، لم يودُّ قط اندلاع هذه الحرب المثيرة للشفقة، والتي لطالما أدرك عدم جدواها، على أي حال، لم يعنِ ذلك أنه جلس مكتوف اليدين بانتظار تكشُّف الأمور، بصفته من أوائل المعارضين للحرب، وبمجرد اندلاعها جديًّا، استثمر إيميل جهوده لمحاولة إنهائها عبر تدخله مباشرة.

بدأ إيميل والمؤسسة باستخدام أي وسائل ضرورية على أمل وضع حد سريع للحرب، وبمرور الوقت تخطت اهتمامات مؤسسة الشؤون الداخلية حدود الإجراءات الوقائية، فبدأت باستجواب الإرهابيين الذين أُلقي القبض عليهم، وعائلات وأصدقاء الإرهابيين المشتبه فيهم. اتضح لإيميل أن تحوُّل الأحداث هذا أمر مؤسف، ولكن لا بد منه، من الأفضل بحسب منطقِه تعذيب الناس وسجنهم الآن لمنعهم من الموت بغباء في ساحات القتال؛ موتهم دون فهم كامل للأيديولوجيات التي يقاتلون لأجلها، أو بسبب تكتيك حرب العصابات وأسلحتهم الشيوعية التي لم تكن ندًّا للتفوق الأوروبي.

بصراحة لم تكن أفكاره دائمة التدفق بمثل هذه السلاسة فيما يخص الحرب، ولا سيما بعد أن قرأ وشاهد تقارير حالة مروعة، في تلك المرحلة كان يعتقد أن الحرب برمتها يمكن أن تنتهي بـ... أسلوب أخف وطأة، اعتقد أن استعراض الحكومة لجثامين الموتى من السود لا يُظهر الضعف العسكري الإفريقي أمام التفوق الأوروبي فقط، بل ويبيِّن وحشية الأوروبيين ويكشف ضعف الحكومة، كانت الحكومة تكشف عن وحشيتها وبربريتها ليراها العالم بأسره.

في أكثر من مناسبة وبينما كان جالسًا في راحة عرينه يشاهد تقارير الحالة ويتناول عشاءه، تذكر إيميل كلمات ماستر آرتشي في ذلك الصباح المشؤوم من شهر سبتمبر عام 1939: «الحق على الإمبريالية بالتأكيد، ما الذي قد نجنيه من عدة دول تقتطع العالمَ حصصًا لنفسها؟ كان أمرًا محتمًا أن ينقلب هذا الجشع الخبيث على نفسه... أودُّ أن تسألوا أنفسكم، أيها السادة المحترمون، عن المكمن الحقيقي لقلب الظلام».

كانت الكلمات أعلى من مستوى فهمه آنذاك، لكنه بدأ باستيعابها الآن.

التفكير بهذه الطريقة كان يبعث القلق في قلب إيميل أحيانًا... لأنه يجافي الوطنية، كان يتحقق من أفكاره ويشتبه في تأثير كورتني عليها. الحقيقة هي أنه وعلى الرغم من استمرار لقاءاتهما المنتظمة في نادي جنتلمانز كلوب

للسادة المحترمين، حيث أصبح إيميل عضوًا، فإنهما كانا يجلسان معًا بصمت، وهما يحدِّقان إلى الضباب الدخاني لغرفة البلياردو، كانا يقدِّران الشيء الذي يجمعهما بما يكفي لتجنب الخوض في أيِّ نقاش عن المناخ السياسي للبلد، لم تكن العلاقة طيبة بين كورتني والحكومة الجديدة التي منعَتْه من إنتاج المسرحيات حتى يصبح أكثر «ولاءً للروح الحقيقية لشيكسبير والوطن».

في محاولة لاستعادة الدور الأصلي للمؤسسة، قدَّم إيميل اقتراحًا للحكومة حول قدرتها على استخدام المعلومات المتاحة في ذا تاور للحصول على أسماء وتواريخ جثامين الأشخاص ذوي البشرة السوداء، والتي ملأت صفحات وشاشات وسائل الإعلام في الدولة، لن يمنح إضفاء الطابع الشخصي والإنساني على العدو الكرامة للموتى وحسب، بل سيدفع نحو تسريع إنهاء الحرب، لن يتمكن الأفارقة بعد الآن من خلق مسافة عاطفية مع جثمان شخص أسود مجهول الهوية، بمجرد أن تكتسب الجثة اسمًا، سيدرك الأفارقة أن أبناءهم وبناتهم يموتون.

رفضت الحكومة اقتراح إيميل، التعريف بأسماء جثامين ذوي البشرة السوداء سيصعِّب قتلهم بهذا النوع من الحماس الأعمى الضروري في زمن الحرب، مجرد التعريف بأسمائهم سيزيل الجانب العاطفي الذي شجع القراء والمستمعين والمشاهدين البيض على إرسال أبنائهم للقتال بسعادة وتفاؤل، أدركت الحكومة مدى صعوبة قتل شخص تعرف اسمه وتاريخه، استعرت الحرب وازداد لهيبها بشكل مطرد، فعقود نظام الفصل العنصري جعلت الأوروبيين والأفارقة غرباء عن بعضهم بعضًا.

كلما عجز إيميل عن التصالح مع ما يعتمل في داخله من أفكار، يقود سيارته نحو بلدة باربورفيلدز تاونشيب، ويركنها ليشاهد الحياة المعتادة التي تقضيها ممرضة كانت في يوم ما خادمةً، وزوجة رجل مسيء، مع ابنها الذي أراد أن يصبح طبيبًا، يبدو أنهما عاشا حياة مريحة، وقد كان إيميل سعيدًا بفضله في نوعية هذه الحياة، لطالما اهتم بالنظر إلى قدمي الممرضة ليحس بالسعادة عندما يكتشف أنها لم تعد تنتعل حذاءً أبيض مقطعًا. بغض النظر عما فعله، أو سيفعله باسم مؤسسة الشؤون الداخلية، فإنه على الأقل فعل هذا الشيء الوحيد بشكل صحيح.

ليس من المستغرب أن تكون فعالية هذا العلاج الخاص محدودة، فسرعان ما وجد إيميل نفسه باحثًا عن وسيلة أخرى تشعره بمزيد من... الراحة... في دوره الوظيفي، وجد تلك الراحة في جهاز سكيرماستر 2000 الكهربائي ذي اللونين الأبيض والفضي، كان الجهاز بحجم طاولة المكتب، وعليه أزرار خضراء وحمراء، ومفاتيح تشغيل قلّابة سوداء اللون مع مؤشرات جهد كهربائي على وحدة التحكم التي تخرج منها الأسلاك، كان الجهاز ثقيلًا، وقد بدا هاربًا من أحد

أفلام الخيال العلمي من الدرجة الثانية، حتى الاسم بدا كأنه مستوحىً من أحلام مخرج سينمائي غير ملهم.

بكل سهولة وجد إيميل سكيرماستر 2000 في كتالوج ممتلئ بالإبداعات المرعبة، وسرعان ما فضله بمجرد أن علم بإمكانية وضعه في غرفة منفصلة عن مكان اتصال الأسلاك، اطمأن عندما علم أنه لن يضطر إلى استخدام أعلى جهد للتيار؛ فالأفارقة معروفون بخوفهم من الكهرباء، مجرد رؤية الأسلاك الكهربائية سيزرع الهلع في قلوبهم.

عندما بدأ إيميل استخدام الآلة، أدرك التباين بين معلومات الكتالوج والإعلان في مجلة سولجر أوف فورتشن من جهة، وبين الحقيقة من جهة أخرى؛ فعلى الرغم من هدوء الجهاز، فإن الذين يوصلون بأسلاكها في الطرف الآخر لم يكونوا كذلك قط، حتى عندما حرك إيميل أحد مفاتيح التشغيل القلّابة وضغط الحد الأدنى من جهد التيار، تعالت الصرخات من الغرفة الأخرى، اعتقد أن الآلة لم تخضع للضبط الصحيح، ولأنه عجز عن تحمُّل الصراخ من الغرفة الأخرى، فكر إيميل بتركيب عازل للصوت في غرفته، لكنه اكتشف أن تلك الصرخات تسمح له بمعرفة المستوى التالي من الجهد الكهربائي الذي ينبغي تطبيقه.

كانت مشاعر إيميل بشأن ما تحوَّلت إليه المؤسسة متناقضة، وعندما قصده سبوكس مُولوي–الرجل ذو الشارب الرائع والذي حقق في مقتل ديزي– لإجراء مقابلة بهدف الحصول على عمل في المؤسسة، تجاهل إيميل ما يعرفه عن الرجل من ذكاء وكفاءة، ولم يمنحه الوظيفة.

كان إيميل متفهمًا ومتعاطفًا مع سبوكس مُولوي، الذي حل جميع قضايا القتل التي حقق فيها باستثناء قضية ديزي التي دفعته نحو الإحباط والتشكيك بقدراته وبعمل شرطة جنوب إفريقيا البريطانية، ما شجعه للتقدم بطلب العمل لدى المؤسسة، ومع ذلك لم يستطع إيميل الموافقة على منح سبوكس فرصة العمل هذه.

بكل يأس باح سبوكس مُولوي لإيميل بالسبب الآخر –وربما الأكثر صدقًا– الذي دفعه للبحث عن عمل في المؤسسة؛ في الآونة الأخيرة أعيد توطين والدته وبقية أفراد قريتها في إحدى أراضي الوصاية القبلية بهدف حمايتهم، وقد ذهب لزيارتها هناك، في أول ليلة قضاها معهم، جاءه صوت تكسر زجاج إحدى النوافذ الأربعة في المستوطنة ليعلن عن وصول صبي. في هذه اللحظة تكلم سبوكس مُولوي وعيناه في عيني إيميل ليتأكد من فهمه لما يقصده من كلمة «صبي». تابع قصته دون أن تفارق عيناه عيني إيميل، في حذائه العسكري الثقيل، ومشيته المترنحة من وزن بندقية إيه كي-47، روى الصبي قصة أخرى عن جثامين لأشخاص من ذوي بشرة سوداء –لا، ليست جثامين، ولكن أطراف مبتورة وأوصال مقطعة بشكل الحرف «Y»– تطفو في نهر

زامبيزي، سرقت هذه الأشلاء الطافية النوم من عيني الصبي الذي قضى تلك الليلة في الصياح، واختفى قبل طلوع الشمس.

تابع سبوكس مُولوي:

- كنت فخورًا بانضمامي إلى البنادق الإفريقية خلال الحرب العالمية الثانية، نُقلتُ بالسفينة إلى دولة ما كنت أعرفها إلا على الخريطة، وهناك سُمح لي بمشاهدة مسرح الحرب المدمر، وللمفارقة لم يسمح لي بحمل بندقية، لكنني كنت أحمل معظم الأشياء الأخرى بغض النظر عن الطقس والتضاريس، عندما عدت من الحرب أدركت أن مشاركتي فيها لم تحمل المعاني التي توقعتها، ولم أحقق ما كنت أرجوه، أصبت بخيبة الأمل في البداية، لكنني عشت طويلًا بما يكفي لأدرك أن هذه هي حقيقة الحرب، هذا الشيء الذي وجدنا أنفسنا فيه تحوَّل مؤخرًا إلى حربٍ كاملة، والصبي يصرخ بالفعل. ينبغي إيقافها، ولا بد لي من المساعدة على إيقافها.

بينما جلس سبوكس مُولوي قبالة إيميل، رأى إيميل مزيدًا من النزاهة في أصابعه الواثقة أكثر من أي شخص من موظفي المؤسسة مجتمعين، لم يرغب إيميل قط في أن تتلوث تلك اليدان بتركيب الأقطاب والأسلاك الكهربائية على أعضاء الرجال، سبوكس مُولوي كان سيدًا محترمًا حقيقيًّا، وأعمال الحرب بعيدة تمامًا عن اختصاصات السادة المحترمين.

من ناحية أخرى يستطيع رجل مثل إيميل كويتزي أن يفعل مثل هذه الأمور لأنه في الحقيقة –كما قال لنفسه– لم يكن رجلًا صالحًا قط، لم يكن قط من السادة المحترمين، وقطعًا فإن شؤون الحرب ليست من أعمال السادة المحترمين، لطالما توارى في داخله شيء متربص للعنف.

لو باح إيميل لنفسه بهذه «الحقيقة» حول شخصيته بقصد تسهيل ما اقترفته يداه، لما سمح لنفسه أبدًا بالاعتراف بالكذبة الكامنة في تلك الحقيقة.

عندما يتفاجأ الرجل باقترافه أشياء خاطئة، فإنه يفضل الاعتقاد بقدرته الدائمة على اقتراف مثل هذه الأفعال، فذلك يجنبه الاضطرار إلى التحقيق لاحقًا في توقيت استحواذه على هذه القدرة، وكيفيتها وسببها.

الفصل الثلاثون

قرأ إيميل كتابًا –لم يعد يذكر عنوانه– ذات مرة عن رجلٍ أصيب بطلق ناري فوصف أن لدمه «رائحة زكية»، لا يوجد أي شيء زكي في رائحة دم الإنسان في تجربة إيميل، رائحة الدم هي رائحة الدم، هي مزيج بين الإنسان والدم، عندما تدعو الحاجة إلى ضرب الرجل حتى يتكوَّم، أو إلى شق جلد امرأة بالحافة الحادة للسكين، فإن الروائح التي تصل إلى أنف إيميل كانت أبعد ما يمكن عن وصفها بـ «الزكية».

لم يكن قرار إيميل بتلطيخ يديه نابعًا عن حقيقة فقدان إيمانه بجهاز سكيرماستر 2000، ولكن لأنه، ومع استمرار الحرب وتقدم الفتى الذي لم يكن اسمه فريدريك بالسن، فإن صندوق البريد في بروكساید قد يتلقى في يوم ما إشعارًا بالاستدعاء للحرب، لم يرغب إيميل قط بأن يشارك الفتى في تلك الحرب التي يراها غير مجدية، ما دفعه لفعل كل ما هو ضروري للإسراع بنهايتها، يدرك أن شؤون الحرب فوضوية وقبيحة، ولا مفر من قذاراتها.

قيل له إن المكالمة مستعجلة، ومع ذلك استغرق بعض الوقت للرد عليها، في العادة كان يسرع الخُطى في الرد كوسيلة لإخبار الطرف الآخر بأنه مشغول ويجب ألا يزعجه أحد، لكنه في هذه المرة مشى ببطء ويداه مخفيتان في جيبيه، وكتفاه مثقلتان بكل تعب العالم، متى سيعود العالم إلى رشده ويضع حدًّا لهذه الحرب الدموية التي لم ينتصر فيها أيُّ طرف؟

عندما وصل إلى مكتبه في النهاية، تفاجأ أن المتصل ما زال منتظرًا، كان راذرفورد.

- هناك حالة مُقلقة يا إيميل.

- هل نتعامل مع حالات غير مُقلقة؟

- مزرعة في إسيكسفال، هاجمها الإرهابيون، وقتلوا عائلة بأكملها.

شيء ما لم يكن مفهومًا لإيميل.

- إنها مزرعة سميث- سينكلير يا إيميل... عائلة كورتني.

شيء ما بقي غير مفهوم بالنسبة إلى إيميل.

- قضوا جميعًا يا إيميل، حتى آخر فرد منهم.

عادت إلى ذاكرة إيميل صورة كورتني في ذلك اليوم الأخير من مدرسة سيلوس للبنين، وقد تحلَّقت حوله مجموعة من النسوة –والدته وأخواته الستة– نابضات بالحياة وهن يمازحْنه ويضحكن، بالتأكيد، يستحيل أن يكون الموت قد غيَّبهن جميعًا، لا بد وأن راذرفورد قد جن، كانت عائلة سميث- سينكلير معروفة بتعاطفها مع قضية «القوميين»، لطالما عاملوا عمَّالهم بشكل جيد، ولطالما كانوا أصدقاء مع الأفارقة، كانوا معروفين ومحبوبين في

المنطقة، لا بد وأن الإرهابيين يعرفون كل ذلك، لن يُقدموا على مهاجمة الأشخاص الذين يساعدونهم، أليس كذلك؟ لكن مجددًا، من يُثبت أن الإرهابيين هم من هاجموا مزرعة سميث- سينكلير؟ من الممكن جدًّا أن قوات الأمن هي من قامت بذلك، فهذه هي طبيعة الحرب بالطريقة التي تعلَّمها إيميل.

- أعتقد... ونظرًا إلى صداقتك مع كورتني... أنه من الأفضل أن يسمع الأخبار منك.

- نعم... بالطبع... سأتوجه إلى هناك الآن.

وأغلق الهاتف على قول كاذب.

تذكَّر إيميل وجه كورتني الجميل عندما كان صبيًّا، كان ذلك الصبي يستحق أن يتم إخباره بأن عائلته بأكملها قُتلت بدم بارد ووحشية دون معنى، وأن إيميل كويتزي هو الصديق الوحيد في العالم الذي يمكنه إخباره بهذا الشيء.

لطالما استحق كورتني صديقًا أفضل من إيميل.

أيُّ نوعٍ من الأصدقاء هو ذلك الذي يشتهي زوجة صديقه، وعلى مدى أكثر من عشرين عامًا؟

التقط إيميل السماعة وهمَّ بإيصال الأخبار عبر الهاتف، لكنه تراجع عن ذلك في اللحظة الأخيرة، أراد التحلي بما يكفي من شجاعة لنقل الأخبار شخصيًّا إلى كورتني.

كان عليه التوجه نحو منزل كورتني، منزل كورتني وماريون، عندما أمسك إيميل مفاتيح سيارته واتجه نحو الباب، خطر بباله أنه قد يرى ماريون مجددًا... أيُّ تفكير هذا الذي خطر بباله في مثل هذا الظرف؟

على مدار السنوات الخمس عشرة الماضية، وقعت عينا إيميل على ماريون عدة مرات عَرَضًا ودون قصد، بذل إيميل في ذلك جهدًا كبيرًا في وقت سادت فيه سيتي أوف كينجز حياة اجتماعية فاحشة نوعًا ما.

حاول توقُّع رؤيتها مجددًا، لكنه لم يستطع.

فتحت الباب بعد مدة قصيرة من قرع الجرس، كانت في المراحل الأخيرة من ارتداء فستان وردي، وما زالت ثلاث لفافات شعر على رأسها مع قرطين مختلفين يتدليان من شحمتي أذنيها، ها هي ماريون هارتلي بكل بهائها، لا بد وأنها كانت تستعد للخروج.

حدَّقت إليه دون تعابير واضحة كما لو أنها تحاول استرجاعه من ذاكرتها.

ربما توقف منذ فترة طويلة عن الظهور في حياتها.

قالت بعد أن دعته أخيرًا للدخول: - إيميل، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

كانت الغرفة كلها تعبق بنفحات من عطرها الاستوائي.

- جئت لأرى كورتني.

- ليس هنا، للأسف.

تحدثت إليه كما لو أن شيئًا حميميًّا لم يجمعهما قبل عشرين عامًا.
نظرت إلى صورتها على مرآة في الممر، وأزالت لفافات الشعر الثلاثة، وقررت ارتداء القرط في شحمة أذنها اليسرى.
سأل إيميل وبدت نبرة سؤاله أقرب للاتهام:
- هل أنت ذاهبة للقاء شخص ما؟
- لن ألتقي أيَّ شخص، أستعد لحضور فيلم.
- وأنت في مثل هذه الملابس؟
- أين سأذهب باعتقادك؟
رفع إيميل كتفيه بلا مبالاة مصطنعة، وغيَّر الموضوع: - ليس كورتني في المكتب بالتأكيد يوم السبت، أليس كذلك؟
- أسمع أنك تعمل في ذا تاور كل أيام الأسبوع.
- نعم، حسنًا، هذا أنا... اعتقدتُ أن كورتني لديه ما يُبقيه في المنزل أكثر... ما لم تكوني في طريقك لمقابلة شخص ما، بالتأكيد، وبالتالي لن يكون هناك سبب وجيه لبقائه.
وقفت ماريون تنظر إليه بطريقة لم يستطع فهمها بسهولة، كانت ترمقه قبل دقيقة كما لو أنه شخص غريب، وها هي ذي تثبت عينيها عليه –تلك العينان اللازورديتان المذهلتان– كما لو أنها تحاول استحضار بعض التفاصيل الخاصة جدًّا منذ فترة طويلة... حول الوقت الذي قضياه معًا، سرعان ما فقد إيميل صوابه.
- أين كورتني؟
- في المزرعة.
فجأة، فهم إيميل كل شيء.
- مزرعة؟ أيُّ مزرعة؟
- مزرعة العائلة في إسيكسفال، غادر صباح الأمس.
لو تمكن من الاتصال فقط، فكر إيميل. جاء إلى هنا تحديدًا ليخبر كورتني عن عائلته، فما الذي كان يفعله كورتني في المزرعة؟ ما الذي يدفع كورتني لإخفاء مكان وجوده عن إيميل؟
لا بد وأن التعابير على وجه إيميل قد خانته، لأن ماريون قالت وقد اتسعت عيناها فجأة من الخوف: - يا إلهي، إيميل. ما الذي جاء بك إلى هنا؟
الخوف الملتهب في عيني ماريون جعلا كل شيء حقيقيًّا بالنسبة إلى إيميل.
قال إيميل وهو يتجه نحو الباب:
- يجب أن أغادر الآن، يجب أن أجد كورتني.
لكنها لم تسمح له بالذهاب، أمسكت بيده بقوة وجعلته يواجهها، قالت بصوت مرتجف: - لماذا أنت هنا يا إيميل؟

لن يكون إيميل هو الشخص الذي يخبرها بما وقع في المزرعة، كان ليحذو حذو والديه ويلتزم الصمت، لن يتحدث مع ماريون أبدًا إذا لزم الأمر.

- لماذا أنت هنا يا إيميل؟

أطلقت سؤالها هذه المرة بنبرة ممتزجة بين الصراخ والصوت المرتعش.

كان بحاجة إلى الابتعاد عنها، إلى أقصى حد ممكن عن واقعها وحقيقتها.

حاول التحرر من قبضتها، لكن عندما نظر إلى أيديهما، أدرك أن يديه هما اللتان كانتا تقبضان عليها.

قالت هامسة:

- يجب أن تخبرني.

هز إيميل رأسه.

- أرجوك.

لم ترغب في سماع الحقيقة، أرادت سماع ما يوده هو، أرادت أن يكون كل شيء كاذبًا، بعض الأخطاء المريعة والرهيبة، جزء من كابوس سينتهي قريبًا.

لكن الحقيقة كانت شيئًا مختلفًا تمامًا.

انهارت على الأرض، ويدها ما زالت في يده، وأطلقت من أعماقها صوتًا بدائيًّا وحيوانيًّا.

اكتشفت الحقيقة أخيرًا.

لم يستطع إيميل تركها الآن.

بعد ساعات، كانا معًا على الأرض في وضعية عنيفة وشرسة، وكلاهما يودُّ الشعور بالأذى والألم: أظفارها تمزق ظهره، وشعرها الرائع مثبت بين يديه، وفي فمهما طعم ممتزج بين الدم والدموع.

دُفن كورتني مع بقية عائلته في قطعة أرض عائلية في مقبرة آثلون. تحلى إيميل بما يكفي من قوة خلال القسم الأكبر من مراسم الدفن، بينما استمع إلى تأبين ماستر آرتشي الذي كرر مرارًا وصف كورتني بقطعة ألماس فريدة من نوعها؛ كجوهرة حقيقية سيفتقدها الناس بشدة، وعندما انضم إلى جوقة مدرسة سيلوس للبنين وأنشد أغنية «لأجل الأيام الغابرة»[(49)]، وعندما حمل نعش كورتني وسار به إلى قبره؛ لم يظهر على إيميل سوى القوة... لكن، عندها، وقف خمسة أشخاص من «البائسين» فوق القبر وقبعاتهم على صدورهم، وبدؤوا بتلاوة أول فصل من تراجيديا آدم ريندرز: هكذا ودون مقدمات، يستطيع رجل عادي دخول التاريخ ليصبح جزءًا منه. اسمه، واسم عائلته، قد يسطران للأجيال القادمة. لقد غامرتَ بالخروج لأجل جميع رجال عائلتك الذين سبقوك وعملوا في أراضي رجال آخرين، وأبحروا على متن سفن رجال آخرين، وقاتلوا في حروب رجال آخرين... رجال راحت أسماؤهم طي النسيان مباشرة بعد أن دقت ساعة منيتهم. لقد فعلتَ ذلك لنفسكَ

أيضًا... على الأقل حصل هذا الأمر معي. أتيتُ لاهثًا وراء الشهرة، وجاء آخرون للبحث عن الثروة. كانت الأغاني مختلفة، ولكن بنفس الألحان المُنذِرة.

ابتعد إيميل عن الجميع، ومشى إلى أبعد ما يمكن لقدميه أن تحملاه، وغرق في كومة من التراب دون أن يأبه بأن يراه أحد، بكى طويلًا وبحرقة، على كورتني سميث- سينكلير، الشخص الوحيد الذي قدَّم لإيميل صداقته الحقيقية، على الرغم من أن إيميل لم يستحقها.

عاشا مرحلة الصبا معًا... جمعهما شيء أكبر من ذلك بكثير.

أغنية «لأجل الأيام الغابرة» (Auld Lang Syne) هي قصيدة أسكتلندية قديمة يرجع تاريخها إلى عام 1788، وتدعو إلى الحفاظ على الصداقات القديمة والنظر فيما فعله المرء خلال العام. أصبحت هذه الأغنية تُنشد كثيرًا حول العالم في احتفالات رأس السنة الميلادية. – عدة مواقع من الإنترنت. (المترجِم)

الفصل الحادي والثلاثون

بعد الجنازة واصل إيميل وماريون لقاءاتهما لأنها كانت الطريقة الوحيدة لإبقاء كورتني على قيد الحياة بينهما. أرادا الهروب من الإحساس بثقل الخسارة أكثر من أي شيء آخر، كرها حاجة كل منهما إلى الآخر، وقد كانت لقاءاتهما عنيفة تسودها الرغبة بالإساءة والمعاقبة والتسبب بالألم، كانت أشبه بحربهما الخاصة، وقد ارتديا الكدمات والندوب بكل الفخر المؤسف للمحاربين القدامى.

جاءت الهدنة على شكل ورقة ملاحظات أخرى من ماريون، لم تكن الملاحظة في هذه المرة مقتبسة من زورا نيل هيرستون، كانت ببساطة: «دعنا نتقابل، ينبغي أن نتكلم. إتش آند إس. الجمعة الساعة 2 ظهرًا».

لم تحمل ورقة الملاحظات أيَّ شيء مميز، لكنه اعتز بها كعادته مع أوراق الملاحظات الأخرى، فتح جزدانه، ووضعها في مكانها المناسب.

وصلَت ماريون باكرًا وجلست إلى طاولة لشخصين في أحد أركان هادون آند سلاي تي رومز، أسره جمالها، ربطت شعرها الفاتن على شكل كعكة أنيقة، وظهرها مستقيم ويداها مشدودتان أمامها على الطاولة، كانت مستعدة له، لكنه لم يكن مستعدًّا للمواجهة التي تتربص به، أراد أن يقضي أطول وقت ممكن في تأملها.

لم تعُد تلك الفتاة الساحرة التي أغوته سنين طوالًا من عمره، كم عمرها الآن... سبعة وأربعون؟ لكن، وكيفما كانت لقد تقدم بها العمر لتصبح أكثر ثقة بنفسها، ثغرها الأحمر النابض لا يزال كبيرًا على وجهها، وما زال شهيًّا، كانت ترتدي فستانًا كريمي اللون عزز ألق بشرتها مثل صوفيا لورين.

لبى إيميل دعوتها إلى هذا المكان لاعتقاده برغبتها في إنهاء الأمور، وقد كان مستعدًّا لذلك.

استدارت نحوه فجأة ولوحت لجذب انتباهه، أرادتْه أن يظن أنها اعتقدت بالفعل احتمال جلوسها هناك دون أن يلحظها.

جلس أمامها وابتسمت له قبل أن تتردد وتمد يدها لتلمس صدغه الأيسر برفق، وتقول: «شعرك يَشيب». لا بد وأنها حركة عفوية، حيث انتهت اللمسة فجأة وسحبت يدها بتأدب نحو حِجرها.

بدا الأمر كما لو أنهما لم يتقابلا منذ سنين، ربما كان الأمر حقيقيًّا نوعًا ما، على مدى شهور وبينما كانا يشنان حربهما، كانا غارقين في ظلام دامس من اليأس والألم الشديدين.

- كان لديَّ شعرة بيضاء... وجدتها العام الماضي... ولم أتمكن من العثور عليها مؤخرًا.

قالت ذلك ويداها تتحركان فوق رأسها في إشارات غير مؤكدة ثم قالت فجأة: - يا إلهي... أشتاق إليه، سأبقى أفتقده طوال حياتي، لن أتخلص أبدًا من هذا الشعور بالفراغ.

عادت يداها إلى الطاولة، وراحت كفاها تمسحان سطح الطاولة بلطف، من الواضح أنها كانت تنتظره ليقول شيئًا ما، لكن ما الذي قد يقوله في مثل هذا الموقف؟

قضى إيميل وقتًا طويلًا في محاولة عدم التفكير فيما وقع لكورتني، والإحساس بالغضب من السخافة المطلقة التي جرت بها الأمور، لكن فمه بقي عاجزًا عن نطق اسم كورتني، فهذا سيعني عدم وجوده.

قالت وهي تلمس يده لبرهة:

- أنت تفتقده أيضًا، أعلم ذلك، كنتما صديقين مقربين.

ضحك إيميل بحسرة، بالتأكيد لم يكن صديقًا جيدًا، ليس من فترة طويلة... إن كان كذلك أصلًا.

- لم نكن أصدقاء مقربين... لست متأكدًا من أننا كنا أصدقاء حتى، صفة الطيبة التي تحلى بها جعلتْه يتواصل مع الجميع بشكل عشوائي. هو ساعدني، وأنا خذلته. لم أكن صديقه قط، لم أكن صديقًا حقيقيًّا له على أي حال.

قالت ماريون بنبرة مجروحة نوعًا ما:

- لقد اعتبرك بالتأكيد صديقًا له.

- بالتأكيد، لم أمنحه سببًا وجيهًا ليعتبرني هكذا.

- كيف تقول ذلك بينما...

- بينما ماذا؟ بينما سارعت للبحث عنكِ في هذا المطعم بعد وقت قصير من لقائنا أول مرة؟ بينما لم أفعل شيئًا على مدى السنوات العشرين الماضية سوى الرغبة في وصالك؟ بينما قضيت الشهور الأخيرة معك في نفس المنزل الذي عاش فيه؟ أين مكمن صداقتي في كل ذلك؟ لم يمض على موته وقت طويل، وانظري إليَّ... انظري إلى نفسك... انظري إلينا.

- عشتما مرحلة الصبا معًا يا إيميل...

- نعم... وقد كبرتُ لأصبح الرجل الذي يُقيم علاقة مع زوجته.

- كان بيننا اتفاق أنا وكورتني، لم نعتبر الحب صيغة من أشكال التملك، كانت لنا حرية الوجود مع أشخاص آخرين.

- كان هذا الاتفاق بينكما، وليس معي. لو كنت صديقًا له، صديقًا حقيقيًّا، لما اقترفتُ هذا الفعل أبدًا.

لمست يده اليمنى، وأمسكتها هذه المرة، ضغطت عليها برفق فنظر إليها، وقالت: - نحن لسنا أشرارًا.

- تحدثي عن نفسك.

- أنا أعرفك.
ضحك إيميل بسخرية، ربما كانت ماريون ما زالت تعتقد أن مؤسسة الشؤون الداخلية تجمع معلومات عن حياة الأفارقة بكل بساطة.
- هو، كان يعرفك.
انتزع إيميل يده من يدها، لو عرفَت ما الذي تقترفه تلك اليد، ما الذي اقترفته بالفعل في وقت سابق من ذلك اليوم فقط...
قال إيميل:
- أقمت علاقة معك في تلك المرة الأولى لأنني أردت إيذاءه.
- تؤذيه؟
- نعم.
- لماذا؟
- أنا... لا أعرف لماذا. أحيانًا، أجد نفسي في خضم ظروف لا أدري تمامًا ما الذي أوصلني إليها...
- ربما كان ذلك صحيحًا بالنسبة إلى بعض المواقف في حياته، وليس كلها، وبالتأكيد لم يكن لذلك علاقة بكورتني.
- لا، هذا ليس صحيحًا. أردتُ أذيته لأنه حاول نَبْشَ الجانب الجيد في داخلي، لأنه رأى الخير في نفسي، وهو في الحقيقة غير موجود. علاقتي معك كانت نوعًا من الإحسان.
- إحسان؟
- نعم. كانت الطريقة الأمثل لأخبره فيها بالضبط أيَّ نوع من الرجال هو أنا. لم أكن من الرجال الذين يودُّ المرء صداقتهم.
- أي نوع من الرجال هو أنت، إذًا؟
- أنا وغدٌ لقيط.
- يا لها من إجابة سهلة، أنت تستمد الراحة من تصديقك للأشياء السيئة عن نفسك.
هل فعل ذلك؟ ربما، ما زال عاجزًا عن فك ألغاز نفسه بعد كل هذه السنوات.
- في كل تعاملاتنا، قام هو بكل العطاء، وكنت أنا الطرف الذي يأخذ كل شيء، الوغد الحقيقي لن يلاحظ ذلك حتى.
مدت ماريون يدها لتلمسه مجددًا، لكنه لم يسمح لها.
- ما الذي يدفعك لمعاقبة نفسك بهذه القسوة؟ ما هو الشيء الذي لا يسعُك غفرانه؟
كانت أسئلتها توجهه للقيام بشيء لم يكن مستعدًّا لفعله.
- تريدين أن أتحلى ببعض الخير كي لا تشعري بالذنب الشديد حيال... حيال الجنون الذي غرقنا فيه. لكنني شخص ميؤوس من خيره يا ماريون، وأنت

محقة جدًّا في رغبتك بوضع حد للأمور.
- أضع حدًّا؟ لا أريد ذلك.
تفاجأ إيميل تمامًا بهذه الجملة، ظل صامتًا عدة ثوان قبل أن يقول: - ماذا تريدين إذًا؟
- أريد أن أعرفك أكثر، بشكل حقيقي وصحيح، أنا بحاجة إلى صديق، أعتقد أنك أيضًا بحاجة إلى صديق... كل منا بحاجة إلى الآخر يا إيميل.
ربما يوجد رجال يستطيعون الحفاظ على علاقة الصداقة المجردة مع النساء، لكن إيميل ليس واحدًا منهم بالطبع، ما جعل بداية صداقته مع ماريون أمرًا صعبًا، على أي حال، ومع الوقت، أصبح يقدِّر مجرد الجلوس على شرفتها، يتحدث قليلًا، ويحتسي عصير الليمون المثلج الذي حضرتْه، ويستمتع أكثر عندما يدرك أن ماريون لم تحضر أشياء كثيرة، كانا يتشاركان الصمت والعزلة في جلساتهما. ومع الوقت مجددًا، أدرك قدرته على مواصلة الجلوس بسعادة على شرفتها ولعدة أيام متتالية بشرط أن تكون برفقته.
لكن، وإضافة إلى فقدانهما المشترك لشخص أحبهما كثيرًا، كانا إيميل كويتزي وماريون هارتلي. ومع الوقت أيضًا، اتضح أن ما يجري بينهما كان بداية البداية، من الجيد الجلوس على شرفتها والتصرف بتهذيب ولباقة بشأن كل ما يتعلق بذكرى كورتني، لكن حقيقتهما الصريحة كانت متمثلة في جيَشان الفراغ بينهما... ذلك الخيط النابض بالحياة.
كانا يحتفظان بشيء للوقت المناسب، شيء افتقداه منذ فترة طويلة.
هكذا لم يتفاجأ إيميل تمامًا عندما فتحت ماريون الباب في أحد الأيام دون أن تجلب عصير الليمون المعتاد، وعلامات الإحباط بيِّنة على جبينها.
- اعتقدتُ بصدق أنني قادرة على ذلك. بعد سنوات من الادعاء بأنني امرأة مستقلة...
ابتعدت عن الباب المفتوح وتركته يتبعها، من الواضح أن وقت الجلوس على الشرفة انتهى اليوم.
- لقد خاب ظني في نفسي.
قالتها قبل أن تلتفت إليه فجأة وتقبِّله... وتقبِّله أكثر... لتحصل على الشيء الذي لم يقدِّمه طواعيةً منذ سنوات.
لشدة دهشته اكتشف إيميل أنه لن يستطيع المضيَّ قدمًا إن لم يخبرها الحقيقة عن نفسه.
- ماريون... هناك شيء أودُّ... المؤسسة...
أمسكت يديه وقبَّلت راحتيهما:
- أعرف، أنا أعرف.

شدته نحوها بإلحاح وشغف، فانتشى مخمورًا بكل ما فيها من طعم، ورائحة، وملمس، حتى صوتها المكتوم ينادي اسمه في وسادة، لم يكن أمامه أي فرصة، لم يحظَ بأيِّ فرصة حقيقية في حياته. تغلغلت مباشرة إلى رأسه كأجود أنواع الويسكي، وعرف في تلك اللحظة استحالة أن يكون مثل كورتني. لم يستطع مشاركة ماريون قط، كان قلبه غيورًا جدًا، لم يخبرها بذلك، أظهر لها ذلك، وفهمته بشكل كامل لأنها اقتربت منه، وهمست في أذنه: - أعرف... أنا أعرف.

لأول مرة خلال معرفتهما الطويلة، فهم كل منهما الآخر تمامًا، لذلك لم تكن علاقتهما سهلة قط، عاشا أوقاتًا تتلهف فيها ماريون لاحتضانه، بينما تتوق إلى ضربه في أوقات أخرى، اختبرا أوقاتًا باردة وأخرى لاهبة، كانت ماريون تحتضنه بين ذراعيها في بعض الأحيان، ليسمح إيميل لنفسه بالبكاء في حضورها.

لقد حفر لنفسه حضورًا واضحًا في حياتها الآن.

كانت هذه الحالة مألوفة لإيميل مع ماريون، معها، كان أشبه بقارب غادر ميناءه وفقد توجهاته ليتوه عائمًا، ومرتبكًا، في عوالم تتلاطم أمواجها بين الألم والنشوة. معها، لم يعرف قط ما الذي يجب أن يفعله، أو ما يمكن أن يتوقعه، لكنه رحب بإحساس عدم اليقين الذي انتابه منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناه عليها. بالنسبة إليه، كان الأمر شبيهًا بالوجود في مجاهل السافانا حيث يحمل حفيف أعشاب الفيل توقعات بحصول أي شيء، كانت كل هذه الحواس متيقظة، كان قادرًا على رؤية كل ما يحيط به بوضوح أذهله، لقد عثر على موطنه مجددًا، في ماريون.

قالت ماريون في أحد الأيام وهي تضربه بنسخة مطوية من ذا كرونيكل مباشرة بعد دخوله من الباب الأمامي: - لا أستطيع مواصلة تجاهل الأمر، الادعاء بأنني لا أرى، والتظاهر بعدم المعرفة.

ظهر تعصبه ضد اختلاط الأعراق في تصريحه ردًّا على بياتريس بيت- بوفورد.

- أنت تقول أشياء في بعض الأحيان... حاولت جاهدة ألا أحبك، لست متأكدة حتى من سبب محبتي لك، ولأنني فشلت، يجب أن أجد طريقة لأحب نفسي من جديد.

كانت ماريون تبكي.

أدرك إيميل أنها كانت تطلب منه أن يتركها، لكنه لن يقدم على مثل هذا الشيء، أخبرها أنه شخص ميؤوس من خيره، لكنها اختارت عدم تصديقه، الشيء الذي أخفاه عنها هو أنه، ومنذ وقت طويل جدًّا، أصبح رجلًا لا يصلح إلا لحبها ووصالها.

قال إيميل وهو يتجه نحوها، وهي تبتعد عنه:

- أعرف أنني بعيد تمامًا عن الكمال، أعرف أنني لست الشخص الذي تستحقينه.
قالها وهو لا يزال يقترب منها، كان الأمر شبيهًا برقصة قديمة يعرف إيقاعها وحركاتها غريزيًّا.
- لكن هذا الشيء الذي يجمعنا هو الشيء الحقيقي.
قالها وقد التقى جسديهما.
في وقت لاحق وبينما كانت مستلقية أمامه، جلس بجانبها لينتشي بجمال جسدها الذي أعطاه الكثير. امتلأ جسدها بسمنة خفيفة جاءت نتيجة للتقدم بالسن، أصبحت أكثر ليونة الآن، وقد اكتشف أنه يحب هذا الجسد أكثر من هيئته الفتية، كان هذا الجسد كاملًا، كان جميلًا على الرغم من عيوبه، تلك الكومة اللطيفة لبطنها، وعلامات التمدد الناعمة على خصرها، والدمامل على أردافها. مرر يديه فوقها لينتشي بروعة بشرتها.
- أحب النفحة الذهبية لبشرتك. فيها شيء مثير، شيء أقرب لصوفيا لورين.
راقبته ماريون لفترة وجيزة قبل أن يلمع شيء خطير في عينيها اللازورديتين؛ وميض يمكن أن يؤذيه حقًّا. أَحَبَّ ذلك الوميض، أيًّا كان.
قالت وهي تميل باتجاهه:
- هل أخبرك بسر عائلي؟ كان يا ما كان... عاشت سينيوريتا في مكان ما في الماضي غير البعيد لعائلة هارتلي، على الأقل هذا ما نقوله عندما نكون في صحبة مؤدبة.
وصلت إليه، وقربت رأسه من رأسها.
- لكنني أشك في وجود شيء ما أكثر قتامة. امرأة عربية، شهرزاد نفسها. كانت تنسج حكاياتها من ألف ليلة وليلة.
ضغطت جبهتها على جبهته، وعيناها تحدِّقان عميقًا إلى عينيه.
- ما رأيك في هذا يا سيد إيميل كويتزي المتعصب ضد اختلاط الأعراق؟
أيًّا تكن الأفكار التي خطرت بباله، سرعان ما تبددت عندما انقضت على شفته السفلى لتعضها بخفة.
هذه المرأة...
إنه متيم بها للأبد.
لم تمض فترة طويلة بعد هذا اللقاء حتى وصلَتْه ورقة ملاحظات أخرى مكتوبة على ورق أزرق اللون، وكان نصها: «عندما خلق الله الإنسان، صيره من عناصر دائمة الغناء واللمعان، ما أجج غيرة بعض الملائكة، فقطعوه إلى ملايين الأجزاء، ولكنه بقي على تألقه وشدْوِه، فحقروه وحولوه إلى شذرات صغيرة، لكنها بقيت تشع وتغني. فغطوا كل واحد بالطين. لكن وحدة الشذرات وانعزاليتها دفعتها للبحث عن بعضها بعضًا».

– زورا نيل هيرستون.

مع هذه الملاحظة، أدرك إيميل أخيرًا معنى هدية الفراشات.

الفصل الثاني والثلاثون

كان واضحًا أن سنة 1977 ستكون الأعنف منذ بدايتها. في 22 يناير، لقي جيسون زيافافا مويو -أحد أبرز القادة القوميين- مصرعه على الفور بطرد مفخخ، وبعدها بأسبوع في 30 يناير، تم اختطاف بين 500 إلى 700 طالبٍ وطالبة وموظفٍ ومدرسٍ من مدرسة ماناما الثانوية على يد رجال حرب العصابات في محاولة لإجبارهم على الانضمام إلى النضال من أجل التحرير. في 6 فبراير وبعد الساعة الثامنة مساء بقليل في بعثة سانت بول التبشيرية في موسامي، تم إيقاف أربعة يسوعيين وأربعة من راهبات الدومينيكان أمام جدار الكنيسة، وقتلوا بالرصاص، نجا أحد اليسوعيين. في 3 أبريل 1977 أعلن الجنرال بيتر وولز عن حملة حكومية لاستمالة «قلوب وعقول» أولئك الذين لم تعد تدعوهم بالأفارقة، وإنما يشار إليهم بالمواطنين السود. أدركت الحكومة خلال الحرب أن الحديث عن حرب بين الأوروبيين والأفارقة في بلد تقع ضمن القارة الإفريقية، سيعطي الانطباع بأن الأوروبيين غرباء عن الأرض التي يقاتلون لأجلها، لذلك فضلت الحكومة تسمية هذين العرقين بـ «السود» و«البيض» على التوالي، واعتبرت أن لهما حصة متساوية في البلاد.

حظيت دعوة استمالة «القلوب والعقول» بنجاح كبير كما اتضح، ما دفع لإطلاق العديد من العمليات الحربية ضد العصابات المسلحة، كانت الحملة تهدف إلى حماية المدنيين من هجمات العصابات المسلحة، لكنها لم تنطلق بنجاح، في 9 مايو وفي الجزء الجنوبي الشرقي من البلاد، نفذت قوات الأمن طلعة جوية ضد المتمردين أسفرت عن مقتل 35 مدنيًّا من السود، ومصرع أحد المتمردين، وشهدت عملية آزتك في 30 مايو هجوم قوات الأمن على الإرهابيين في موزمبيق، كان عدد الضحايا بين الجانبين محل نزاع شديد، في 6 أغسطس استخدم المتمردون مفخخة شديدة الانفجار بوزن 30 كيلوجرامًا لاستهداف متجر وول وورث الكبير متعدد الأقسام في سالزبوري، وسقط فيه 11 شخصًا، وجرح أكثر من سبعين مدنيًّا، في 21 أغسطس قُتل ستة عشر مدنيًّا من المواطنين السود في مزرعة تجارية في الجانب الشرقي من البلاد، وأحرقت منازلهم، في نهاية الربع الأول من العام لقي 846 شخصًا مصرعهم، وفي نهاية الربع الثاني سقط 521 ضحية، في نهاية الربع الثالث من العام قُتل 671 شخصًا ما أسفر عن إجمالي 2038 ضحية، ومع نهاية العام تحديدًا في الفترة بين 23 و 25 نوفمبر قررت قوات الأمن اختتام العام بما أطلقت عليه اسم عملية دينجو، وكانت في الأساس غارة تم شنها على معسكرين للعصابات المسلحة في موزمبيق: تشيمويو وتيمبو. وفقًا لتقارير الحالة، نجمت هذه الغارات عن مقتل أكثر من 3 آلاف مقاتل من العصابات المسلحة، وجرح

أكثر من 5 آلاف غيرهم، ويزعم التقرير مقتل اثنين فقط من قوات الأمن في العملية، وإصابة ستة آخرين منهم بجروح.

كانت كوكي تستمع لتقارير الحالة وتشاهدها، بالنسبة إليها كان النصر حليفهم دائمًا، آلاف الإرهابيين كانوا يُقتلون، بينما يلقى عدد قليل «فقط» من أفراد قوات الأمن مصرعه في حرب الأدغال، منحتها كلمة «فقط» قدرًا كبيرًا من الراحة، لهذا السبب لم يرتجف قلبها خوفًا عندما فتحت صندوق البريد في ذلك الصباح الباكر من شهر فبراير عام 1977، صباح عيد الميلاد الثامن عشر لابنها الجميل ذي الشعر الذهبي، ووجدت إشعار الاستدعاء باسم إيفرلي ريجينالد كويتزي، بالنسبة إليها سيذهب ابنها إلى الأدغال، ويحارب لأجل بلاده لبضعة أشهر، ثم يعود إلى المنزل.

في عشية ذلك اليوم وفي أثناء وجبة العشاء الاحتفالية بعيد ميلاده، أخبرت كوكي ابنها الجميل ذي الشعر الذهبي بأن دوره قد حان لخدمة بلده، تفاجأت من قوله إنه لن يقاتل لأجل بلد لم يحقق تطلعاته، ولم يراعِ مصالحه... وأنه لن يخوض حربًا لا يؤمن بها... حربًا للحفاظ على الأشياء التي يعارضها بشدة.

عرفت كوكي أن ابنها الجميل ذي الشعر الذهبي لا يحب قتل الأشياء، لكن بالتأكيد لن يكون هناك الكثير من القتل، ولن يضطر إلى القيام بذلك خلافًا لرغبته، كانت تعرف فتيانًا ذهبوا لخدمة بلادهم، وقضوا وقتهم في قراءة الخرائط ومسح الأراضي والعمل في مخازن الإمدادات، كانت متأكدة من أن والده وجده، وكلاهما من الرجال ذوي النفوذ الكبير، سيحرصان على فرزه إلى واحدة من تلك الأماكن.

لكن ابنها الجميل ذي الشعر الذهبي لم يُرد سماع ذلك، لم يرغب في أي نوع من المشاركة في هذه الحرب.

لم تفهم كوكي، بالنسبة إليها كانت الحرب واحدة من أسمى الأفعال في الحياة، كان الأمر مرتبطًا بالواجب والتوقع، بعيدًا عن المشاعر والمعتقدات الشخصية، ما هو مصير البلاد بأكملها إذا اقتصر الناس على فعل الأشياء التي تسعدهم؟ أيُّ نوع من التاريخ يمكن أن تخطه مثل هذه الأخلاقيات؟

على الرغم من إيمانه بعبثية الحرب، فإن إيميل كان متفقًا مع رأي كوكي، وقد أخبر الفتى الذي لم يكن اسمه فريدريك أن عليه خدمة بلاده انطلاقًا من حبه لها، الفتى الذي لم يكن اسمه فريدريك أصبح رجلًا الآن، وكل رجل يعرف أن جوهر الحياة يكمن في التضحية، سيبذل إيميل قصارى جهده ليحرص على ألَّا يرى الفتى الذي أصبح الآن رجلًا أيَّ فعل حقيقي ما لم يرغب بذلك، ربما يستطيع الفتى الانضمام إلى مؤسسة الشؤون الداخلية للعمل في وظيفة إدارية بحتة، كمسؤول في الأرشيف في الطابق الثامن أو التاسع أو العاشر، حيث يستمتع المرء بأفضل مناظر للمدينة.

ابتعد الفتى الذي لم يكن اسمه فريدريك عن الطاولة، وعن والديه، وأخبرهما أنه إذا كان مضطرًّا إلى الخدمة، فسيفعل ذلك دون أن يحظى بأيِّ امتيازات، ترك والديه في حيرة مما لو كان عليهما الشعور بالرضا عن موافقته على الذهاب إلى الحرب أو لا.

وبشموعها الثمانية عشرة المضاءة، بقيت كعكة عيد الميلاد الجميلة تتوسط طاولة غرفة الطعام بروعة، ودون أن يمسها أحد.

قبل يوم من التحاق الفتى الذي أصبح الآن رجلًا، جاء إلى المنزل ليودع والديه اللذين لم يرياه كثيرًا خلال فترة تدريبه العسكري، كان يفضِّل قضاء النهار مع روزاموند وفيدا، الفتى ببشرة دي فيلييه الملونة، ليمضي الليل بصمت مريح في شقة جديه في برينسز مانشنز.

كانت كوكي حزينة لأن ابنها الجميل ذا الشعر الذهبي قد ابتعد عنها بعد حياة كاملة قضاها بين أحضانها، عزَّت نفسها بأن هذه المرحلة الصعبة مؤقتة، وبمجرد انتهائها، سيعودان قريبين من جديد.

بالنسبة إليه، كان إيميل فخورًا بتميز الصبي الذي أصبح الآن رجلًا خلال التدريب، حتى إنه اختير للانضمام إلى فرقة كشافة سيلوس، كانت هذه الفرقة هي وحدة النخبة التي حملت اسم بطل إيميل، فريدريك كورتني سيلوس، لم يستطع إيميل –حتى الآن– إخبار الصبي الذي أصبح الآن رجلًا عن مدى فخره به لأنه لم يلتق به كثيرًا، جاء لرؤيتهما عشية التحاقه لأنهما كانا والديه، وبغض النظر عن مدى خيبة أمله فيهما، إلا أنه كان يعرف واجبه تجاههما.

بدا أن الصبي الذي أصبح الآن رجلًا قد نضج بين عشية وضحاها؛ أصبح جسده أكثر رشاقة، وملامحه أكثر وضوحًا. التدريبات العسكرية التي خضع لها حوَّلته إلى رجل حقيقي، حلاقة شعره والحزم الواضح في شفتيه منحاه مظهرًا صارمًا، تمامًا كجندي أنهكته الحرب، تخلص أخيرًا من النعومة التي لطالما أقلقت إيميل، وقف أمامهما والتوتر بادٍ عليه، لم يعد يشعر بالراحة معهما.

كانت أكمام القميص العسكري الذي ارتداه الصبي الذي أصبح الآن رجلًا مطوية، فتمكن إيميل من رؤية الوشم أعلى ذراعه، كان الوشم بسيطًا على شكل قلب، لم يكن القلب هو المشكلة، وإنما ما فيه؛ في منتصف القلب، تم وشم الاسم «فيدا»، هناك شيء خاطئ في ذلك بالتأكيد.

- لا يمكنك الذهاب إلى الحرب وهذا على ذراعك.

- الوشم مسموح، يساعد في التعرُّف عليك.

- أنت تعرف أنني لا أعترض على الوشم بحد ذاته، اعتراضي هو على الاسم "فيدا"، لا يبدو اسمًا لفتاة، أليس كذلك؟

قالت كوكي حرصًا على أن تكون المواجهة أفضل من سابقتها:

- لا يبدو اسمًا لفتى أيضًا.

- لا أهتم بنوع الجنس الذي يتبادر إلى الذهن عندما يرى الناس اسم فيدا، يقتصر اهتمامي على انتمائه إلى الشخص الذي أحبه.
- لا يمكنك أن تحب الفتى ببشرة دي فيلييه الملونة.
- ولم لا؟
على الرغم من فهمه للخطأ الكامن في الحب بين الفتى الذي أصبح الآن رجلًا والفتى ببشرة دي فيلييه الملونة، فسرعان ما أدرك إيميل عجزه عن تفسير ذلك، فقال مراوغًا:
- أنت لا تعرف ما هو الحب، ما زلتَ صغيرًا جدًّا.
نظر الصبي الذي أصبح الآن رجلًا إلى إيميل بشك وريبة وقال:
- وهل تعرفه أنت؟
- ماذا؟
- الحب.
- نعم.
بنبرة حزينة، ضحك الفتى الذي أصبح الآن رجلًا قبل أن يسأل مجددًا:
- هل تعلم أنت ما هو الحب؟
لم يدرك إيميل السبب في حيرة ابنه.
سأل الفتى:
- هل تحبني؟
كيف يطرح الفتى مثل هذا السؤال؟ بالطبع يحبه، من الواضح أنه يحبه.
سأل الفتى الذي أصبح الآن رجلًا، وهو يشير إلى والدته:
- هل تحبها؟
سارعت كوكي للإجابة:
- أنا ووالدك نحب بعضنا بالتأكيد.
قال الفتى الذي أصبح رجلًا وهو يحدِّق إلى إيميل:
- رأيتكِ أنتِ تحبينه هو... لكنني لم أرَ محبته تجاهك، لماذا تعجز عن حبها؟ ما الذي يمنعك من حب الشخص الوحيد الذي يستحق منك كل حب العالم؟
وقع إيميل في حيرة من أمره، على مدى أكثر من عشرين عامًا، تعايش هو وكوكي بسلام نوعًا ما، كان هذا شيئًا جيدًا، أليس كذلك؟ لم يكن حبًّا عاطفيًّا شغوفًا، ولكنه حب من نوع آخر، أليس كذلك؟
- هل تعرف ما الذي كانت تفعله؟ ما الذي فعَلتْه دائمًا؟ كانت تنتظر سماع صوت محرك سيارتك في الممر لتبدأ بالغناء، هل تعرف لماذا كانت تفعل ذلك؟ كانت تغني لتعتقد أنت -أيها الشخص الذي لم يحاول قط إسعادها– أنها سعيدة.

نظر إيميل إلى كوكي التي أبعدت نظراتها عنه.
- وها أنت تتحدث إليَّ عن الحب؟ هذا ليس من حقك، لا يمكنك أن تحدثني عن شيء عجزتَ عن إظهاره لي.
تساءل إيميل عن الطرق التي يمكن أن يعتمدها الأب لإظهار حبه لابنه، كل ما كان يعرفه هو أنه يحبه، ولطالما كان يحبه.
- لقد علمْتَني درسًا، لم أفهمه في البداية، لكنني أفهمه الآن، علمْتَني كيف لا أحبك، وقد نجحتَ في ذلك، لأنني أعرف الآن أنني لا أحبك.
فضَّل إيميل لو ضربه الصبي الذي أصبح رجلًا بدلًا من قوله هذا، لو قطع قلبه ولم يتفوه بما قال.
قالت كوكي:
- لا، لا، لا، هذا ليس صحيحًا... أنتما تحبان بعضكما بعضًا، وها هو الدليل... أنتما تحبان بعضكما بعضًا.
أشارت بإصبع مرتعشة إلى صورة إيميل والصبي الذي لم يكن فريدريك، والتي تم التقاطها في سد كاريبا قبل خمس سنوات، كان الطفل فخورًا بسمكة ضخمة، كانا –الأب والابن– مبتسمين وسعيدين، كان إيميل فرحًا وفخورًا، وقد وضع ذراعه على كتفي الصبي.
بعد التقاط الصورة، أطلق الصبي السمكة مجددًا إلى المياه لأنه لم يكن يحب قتل الأشياء.

الفصل الثالث والثلاثون

في 3 أبريل 1978، تلقى إيميل الرسالة الأولى، والوحيدة، من ابنه إيفرلي.

لم يتفاجأ من عدم وجود عنوان للمرسل، لأنها كانت رسالة خُطَّت في الجزء الأكثر غدرًا من الحرب، حيث كانت السرية أمرًا جوهريًّا ومطلوبًا، حاول إيميل ألا يتفاجأ بغياب تحية، أيضًا. لكنه ظل يتمعن في الرسالة متسائلًا عن احتمال وجود أيِّ إشارة لكلمات أبي، أو والدي، أو بابا! ما الاسم الذي كان إيفرلي يستخدمه لمناداته؟ حاول إيميل جاهدًا العثور على مثل هذه الكلمات، لكنه لم يتذكر الاسم الذي استخدمه إيفرلي لمناداته، وحتى في خياله لم ينجح في جعل التحية المفقودة تبدأ بكلمة «عزيزي»، لم يكن عزيزًا على قلب إيفرلي.

دون تحية، بدأت الرسالة بشكل غير رسمي ونصها:

وصلنا إلى القرية قُبيل الفجر، أطلقنا الرصاص في الهواء لإيقاظ أهلها، جمعناهم كلهم وسط كَرَال القرية، سألناهم عن سبب دعمهم للإرهابيين، طرحنا السؤال كما لو أن لديهم خيارًا آخر، سألناهم ونحن نعلم أن وصول الإرهابيين سيضطر القرويين إلى تنفيذ ما يؤمرون به، وإلا فإنهم سيواجهون نفس المصير الذي سيلقونه على أيدينا، جمعنا كل الرجال والفتيان، لم يكن هناك عدد كبيرٌ من الرجال، نحن نعرف أن معظم الرجال موجودون خارج القرية للعمل في المناجم والمصانع والمزارع، بما يكفل دفع عجلة استدامة الاقتصاد في الدولة، ويساعد في استمرار الحرب، ومع ذلك أخبرناهم أن الرجال الغائبين انضموا إلى الإرهابيين، وضعنا الرجال والفتيان في كوخ تخزين للقمح، قبل أن يشعل قائدي النار في الكوخ لاحظت وجود امرأة مسنة في الكوخ. سحبتها خارجًا، لكنها عادت مجددًا، نظرت إليَّ بشفقة مؤسفة لم أر مثيلًا لها في حياتي، وأغلقَت باب الكوخ وراءها، لم ترغب في النجاة والبقاء على قيد الحياة، لم تُطق أن يعفا عنها لتحيا مثقلة بذكريات مروعة، أشعلنا الكوخ، وسرعان ما التهمته النيران، ربما خفَّت وطأة ما اقترفته أيدينا لو سمعنا صراخهم، لكن القرية ضجت بالصمت... وبرائحة اللحم المحترق، لم يُبد أهل القرية أيَّ مقاومة منذ أن دخلناها، مروا بكل ذلك، وشاهدوه مرات عديدة مسبقًا، لقد سئموا منه جميعًا، لن أنسى تلك العينين أبدًا، عينا المرأة المسنة تلاحقانني في كل مكان الآن، وحقيقة خلوهما من أي اتهام يجعل الأمور أكثر سوءًا، ما الدافع وراء إزهاق كل تلك الأرواح؟ لأننا، قبل وقت طويل، نسجنا قصة حول تفوقنا الكاذب؟ لو لم يكن من أجل فيدا، أتساءل إن كنت لأهتم مثل الآن، لطالما عرفت أن ماضي فيدا يضم شخصًا أسود البشرة، امرأة. لطالما كان السبب امرأة، لم أسأله عنها قط لأن ذلك بدا عبارة عن تفاصيل غير مريحة ولا ضرورية، كل ما طلبته من فيدا، كل ما طلبته، هو أن يكون

جميلًا، وفيدا جميل، فيدا مزيج من عدة أشياء، فيدا هو كل شيء، إن قتلي لهؤلاء القرويين شبيه بقتلي لجزء من فيدا، ومقتل جزء من فيدا يعني قتل جزء من نفسي. تحققت أمنيتك أخيرًا، لطالما أردتَني أن أقتل شيئًا، وقد فعلتُ ذلك الآن. أرجو أن تكون فخورًا بي أخيرًا، لقد أصبحتُ الابن الذي لطالما أردتَه.

هذا كل ما جاء في الرسالة، لم تكن موقَّعة بكلمات الختام المعتادة المعبرة عن التحية أو المحبة أو الاحترام.

وصلت الرسالة مرفقة بصورة لإيفرلي، كانت ملابسه العسكرية باهتة على الرغم من أنه لم يكن قد خدم أكثر من بضعة أشهر، كان وجهه ملطخًا بالشحم، وعيناه الزرقاوان فيهما شراسة قاتلة.

تفحص إيميل الصورة وأدرك الحقيقة.

عندما رن جرس الهاتف لم يكن إيميل مضطرًا إلى الرد عليه حتى يعرف أن ابنه، إيفرلي ريجينالد كويتزي، قد مات، لم يكن مضطرًّا إلى معرفة التفاصيل، وهي أن إيفرلي داس عمدًا على لغم أرضي ليتمزق جسده إربًا، ليدرك أن إيفرلي فضَّل الموت على عيش ما ينتظره من مستقبل مضنٍ.

عندما جاءت ماريون لإحضاره، لم يكن لدى إيميل أدنى فكرة عن عدد الأيام والليالي التي قضاها في نادي جنتلمانز كلوب للسادة المحترمين، كل ما يعرفه أنه وجد طريقه نحو قعر العديد من زجاجات الويسكي.

قال إيميل وهو يسمح لماريون بإزالة كأس الويسكي من يده:

- تعتقد أن أمامك كل الوقت، لتكتشف فجأة أن الوقت داهمك، لقد فات الأوان بكل بساطة.

دون أن تنبس ببنت شفة ساعدته على الوقوف، وأمسكت به وهو يخرج من نادي جنتلمانز كلوب، ووضعته في سيارتها وقادته نحو المنزل.

كانت بياتريس بيت- بوفورد هي التي فتحت لهما الباب.

معًا، ثلاثتهم، شاهدوا كوكي تنزل الدرج عارية، بدا واضحًا أنها خرجت للتو من الحمام، لأن جسدها وشعرها كانا مبللين، وقد فاحت منها رائحة قوية من حمام فقاعات الدراق والكريمة الذي تحبه، تناثرت حول جسدها سحب من الرغوة، كانت أشبه بمحيط يسير مع جُزره.

مشت كوكي نحو إيميل، ولمسته بلطف على خده وقالت.

- لم نكن نستحقه، أنا وأنت، أنتَ كنت قويًّا جدًّا، وأنا كنت شديدة الضعف، كان أكثر جمالًا من أن يتحمله العالم، ولم نكن نستحقه.

فتحت كوكي الباب الأمامي واجتازته لتدخل في عالمٍ سبب لها ألمًا من الصعب عليها تحمله.

الفصل الرابع والثلاثون

كان إيميل مستلقيًا على سرير في مكان يبدو أنه عنبر في المستشفى، اتخذ العنبر شكلًا دائريًّا، وقد رتبت الأسرَّة بشكل دائري أيضًا مع فواصل بينها، كان الجناح بأكمله مُنارًا بأضواء فلورسنت من مصابيح علوية فضية وبيضاء جعلت كل شيء يبدو نظيفًا، شدة الإضاءة في المكان أبهرت عيني إيميل حتى شعر بالدموع فيهما، لم يستطع تحريك رأسه كثيرًا نحو اليمين واليسار، حاول مرة لكنه أحس بألم حاد في رقبته، وشعر بوجود شيء شبيه بالدعامة حولها تحد من نطاق حركتها.

صدح صوت رنين الجرس، وأحس إيميل بالراحة حتى ولو أنه لم يكن يرغب بها، فتحت الأبواب المزدوجة على الطرف الآخر من العنبر قبالة سريره فجأة، ودخلت مجموعة من الكادر التمريضي، استطاع إيميل إحصاء ثلاثة عشر شخصًا تجمَّعوا في مكتب التمريض في منتصف العنبر، أدار إيميل رقبته بما يكفي ليرى أن الكادر التمريضي من أشخاص متعددي الأعراق، واثنان منهم من الرجال، دارت بينهم أحاديث ودية وهم يرتدون أقنعة جراحية وقفازات مطاطية.

المستقبل الموعود متعدد الأعراق قد تحقق، فكر إيميل وهو يستقر مجددًا على وسادته، لقد جاء هذا المستقبل مبكرًا جدًّا، ومتأخرًا جدًّا، حدَّق إلى مصباح الفلورسنت فوق سريره، وأغمض عينيه بإحكام فتمازجت الألوان المتراقصة على الخلفية السوداء خلف جفنيه.

عندما استيقظ شعر براحة أكبر من قبل، جلست ممرضة سوداء البشرة على مكتب مائل عند الجانب السفلي من سريره، كانت تدون شيئًا ما على ورقة كبيرة. نظرت نحو الأعلى، وعندما رأته يحدِّق إليها، وقفت على الفور، تحركت للوقوف بجانبه وعيناها تبتسمان له، ومن تحت كمامتها، قالت: - أنا مسرورة جدًّا لأنك استيقظت.

أحس بيدها تضغط بلطف، وهي تتفحص شيئًا ما فوق رأسه، دققت في ذلك الشيء بعض الوقت قبل أن تعود إلى الكتابة على الورقة الكبيرة.

تفاجأ إيميل أنها ممرضته، افترض أن أحد كوادر التمريض من ذوي البشرة البيضاء سيأتون للاعتناء به، ألم يكن من المفترض أن تسير الأمور هكذا... حتى في مستقبل متعدد الأعراق؟

ابتعدت ممرضته عن الطاولة المائلة أسفل سريره، وذهبت للتحدث مع ممرضة أخرى ببشرة سوداء عند مكتب التمريض، بينما راح إيميل يتفقد المكان، توجد ممرضتان بشكل دائم في مكتب التمريض، وهو عبارة عن حيز معدني مغلق يتوسطه مكتب أبيض اللون، وأربعة مقاعد معدنية مرتفعة وثلاثة

أجهزة كمبيوتر بيضاء اللون، الممرضة التي تحدثت مع إيميل كانت ترتدي زيًّا أزرق اللون، كان واضحًا أنها المشرفة. جلس ممرض شاب ببشرة بيضاء أمام أحد أجهزة الكمبيوتر، وانهمك في كتابة المعلومات بشكل شبه دائم، حتى عندما يتبادل المزاح والضحك مع الممرضتين في مكتب التمريض. لم يشعر إيميل بالراحة من هذا المشهد، فركز على الأبواب المتأرجحة ليلاحظ أنها تحمل ثلاثة حروف هي «و.ع. م».

إذًا، هو موجود في وحدة العناية المركزة، لم يستبشر إيميل خيرًا، وقد انتابه إحساس كئيب حاول تجاهله، بعد تأجيل طويل حان الوقت للتركيز على نفسه وحالته. أول ما لاحظه هو الجفاف والحكة في حلْقه، أدرك وجود شيء ما في أنفه، واستغرب أنه لم يشعر به طوال الوقت. حاول رفع يده لتفحص ما في أنفه، لكنه لم يستطع.

ظهرت ممرضته عند رأس السرير، قالت له وهي تمسك ذراعه وتعيدها: - حاول ألَّا تتحرك كثيرًا.

أدار عينيه باتجاهها، وللحظة فُتن ببياض زيها قياسًا بلون بشرتها البنية.

كانت تعدل الشيء الموجود فوق رأسه وهي تنظر إليه، تلك العينان... يعرفهما... أين رآهما؟

- كيف تشعر الآن؟

أراد أن يخبرها عن إحساس الحكة في حلْقه، لكنه لم يستطع الكلام، وضعت راحة يدها اليسرى بلطف على جبينه، ونظرت في عينيه، وجد إيميل أنه لا يمانع وجودها بقربه على الإطلاق.

- هل تشعر بتحسن الآن؟

لاحظ إيميل اختفاء إحساس الحكة في حلْقه. كما لو أنها قامت بعمل سحري.

قدَّمت له أنبوبًا مستطيلًا أبيض اللون كان ممددًا بجانبه طوال الوقت.

- عند إحساسك بالألم...

قالتها له قبل أن توضح له ضرورة ضغط الزر الأحمر عند الحاجة في أعلى الأنبوب، لم يعر اهتمامًا كبيرًا للأنبوب، لأنه لم يكن يشعر بأي ألم.

عادت ممرضته إلى الطاولة المائلة وانهمكت في الكتابة على الورقة أمامها، كانت تنظر إليه من وقت لآخر وعيناها تبتسمان له.

لم يستطع إيميل التخلص من إحساسه بمعرفة تلك العينين، لم تربطه أي علاقة مع نساء إفريقيات، لكنه شغل نفسه الآن بمحاولة تذكّر أي نقاط تواصل محتملة، لم يتذكر شيئًا، كان عقله عبارة عن مساحة واسعة وفارغة فيما يخص النساء الإفريقيات.

خفَّت الأضواء قليلًا حتى انغمس كل شيء بوهج سماوي لطيف، فتسلل النعاس إلى جفنَيْ إيميل.

نهضت ممرضته وخفضت سريره القابل للتعديل بلطف عبر جهاز تحكم عن بعد.
همست له بابتسامة ولمسة لطيفة على الكتف:
- حاول الحصول على قسط من النوم.
أحس بأنه يرد على ابتسامتها بالمثل، ويستغرق في النوم.
استيقظ إيميل من الألم الشديد الذي ألمَّ بجسده كاملًا، أصبحت أحاسيسه أكثر يقظة عما كانت عليه في وقت سابق، وشعر بكل شيء، أحس بقناع الأكسجين يغطي أنفه وفمه، هل كان موجودًا طوال الوقت؟ أحس بالإبرة الوريدية متصلة بظهر يده، وبالقسطرة بين قدميه، شعر بشيء ما مغروز في بطنه، انتفض جسده، ما الذي يحاول فعله؟ لم يكن يعرف، حاول بكل قوته أن يرفع يده اليمنى ليزيح قناع الأكسجين عن أنفه وفمه، ويصرخ من شدة الألم.
تسارعت أصوات التنبيه العالية، ووقفت ممرضته بسرعة كادت أن تسقط الكرسي وراءها، هل كانت نائمة؟ هل مسموح لها بالنوم؟ شك إيميل في ذلك.
بمجرد أن وقفت بجانبه التقطت الأنبوب المستطيل الأبيض بجانبه، وضغطته عدة مرات.
أحس إيميل بالغباء لأنه نسي وجود الأنبوب المستطيل، ولأنه ثار غضبًا لدرجة أطلقت أصوات التنبيه من جهاز المراقبة المتصل به، كان يعاني من آلام مبرحة تجمَّع معظمها في بطنه، أحس بأنه ربما أصيب برصاصة في بطنه، هل هذا ما حدث؟ هل هذا هو سبب وجوده هنا؟ هل أطلق عليه شخص ما النار؟ بدأت شاشة المراقبة بإصدار أصوات تنبيه مجددًا، وأحس بجسده يرتجف.
قالت ممرضته وهي تضع إحدى يديها على جبينه بينما تعدِّل الأخرى شيئًا ما فوق رأسه: - كل شيء على ما يرام، ستشعر بتحسن قريبًا، أعدك.
طمأنَتْه.
بدأ يشعر بتحسن فعلي، خفَّت حدة آلامه تدريجيًّا.
وضعت الأنبوب المستطيل الأبيض بجانب يده اليمنى.
- ضغطات قليلة فقط للزر الأحمر ستفي بالغرض كلما شعرت بالألم، عدة ضغطات فقط، لن يعمل إذا ضغطتَ كثيرًا.
ضغط إيميل بوهن الزر الأحمر مرة واحدة ليتأكد من قدرته على ذلك، ويؤكد لها أنه سيمتثل لتعليماتها، قبل أن ينجرف بعيدًا بإحساس خفيف كالهواء.
عندما استيقظ إيميل كانت الممرضة قد عدَّلت سريره إلى وضعية الجلوس، وقد حل الصباح.
راح إيميل يتفقد الجناح، فأدرك أنه في حالة يقظة أكثر من ذي قبل، وأن قناع الأكسجين لم يعد على وجهه. لاحظ لأول مرة وجود المرضى الآخرين، رجل أبيض بلحية وشعر بني مصبوغ في القسم رقم 3، ويخاطبه كادر التمريض

باسم «بروفيسور». استمرت الممرضات طوال اليوم في اكتشاف مواد غذائية مهربة ومخبأة في غرفة البروفيسور ومن بينها علبة لحم بيلتونج مجفف، وزجاجة من البراندي نصف فارغة، وكلما اكتُشف شيء، كان البروفيسور يهز كتفيه ويقول بأنه غير ملوم؛ فصبي المنزل هو من أحضر هذه الأشياء له، فهو يعرفه ويفهمه أكثر من أي شخص آخر، أخبر صبي المنزل – عدة مرات– أن يتوقف عن إحضار هذه الأشياء، ولا يمكن أن يلام لأن الصبي لديه إرادة خاصة به وعقل.

القسم رقم 4 يضم سيدة مسنة وضعيفة بيضاء البشرة، كانت مسنودة للأعلى مثل إيميل، من الواضح أنها كانت تتمتع بجسد هزيل دائمًا، وقد حوَّلها كبر السن إلى شخص صغير جدًّا، كانت ترتدي قبعة كروشيه زرقاء مزينة بأزهار وردية وصفراء، وقد بدت كشيء تحب الفتيات الصغيرات ارتداءه، تجولت عيناها اليقظتان والمتعبتان في الغرفة، وتتوقف الممرضة بجوار سريرها بين الحين والآخر للحديث معها، من الواضح أنها كانت تحب استقبال الزوار، كانت ابتسامتها اللطيفة دائمة على وجهها، وتزداد لطافة عندما تتوقف ممرضة بجوارها، تمكن إيميل من رؤيتها عن قرب عندما اصطحبتها الممرضة على كرسي متنقل إلى الحمام، كانت بشرتها حساسة مثل المخطوطات الورقية، وعروقها رقيقة مثل خيوط العنكبوت، كانت هيئتها كالمتشردة، لكنها لوحت بيدها مثل ملكة عندما تجاوزت سريره.

في القسم رقم 6، كانت الممرضة تقول:

- ستكونين مطيعةً اليوم، أليس كذلك يا جين؟ بصراحة، تصبحين صعبة المراس في بعض الأحيان.

اعتقد إيميل أنه سمع جين تجيب:

- صعبة المراس؟ هذا ما يقوله عني كل الرجال.

تساءل إيميل عما إذا كان سيراها في يوم ما، عندها انفتح الستار الفاصل بين قسميهما، ظهرت جين هناك، جميلة ببشرتها السوداء وصحتها المثالية، كانت جارته شابة سوداء البشرة، حاول إيميل اكتشاف مشاعره الحقيقية تجاه هذا الاكتشاف، عندما ابتسمت له بلطف وقالت: - أنت رجل وسيم، وأنا سيدة جميلة، أعتقد بأننا قادرون على قضاء الوقت هنا... بمتعة أكبر.

أحس إيميل بالإحراج، واحمرَّ خجلًا، لم يتذكر أنه احمرَّ خجلًا طوال حياته، ضحكت جين من لون وجهه.

صرخت المشرفة من مكتب التمريض:

- جين، كوني مهذبة.

قالت ممرضة جين وهي تعيدها إلى السرير وتغلق الستار الفاصل بين الغرفتين: - سأعيدكِ إلى السرير.

نظرت إلى إيميل باعتذارٍ فأشاح بِنظره بعيدًا.

القسم رقم 8 كان مشغولًا برجل أبيض اعتقد إيميل أنه لا بد وقد لعب رياضة الرَّكبي في يوم ما من حياته. يبدو كدبابة، دبابة قوية. استطاع إيميل أن يراه لأن ممرضته ساعدته في الخروج من سريره ووضعته على كرسي ضمن مجال رؤية إيميل، جلس الرجل بظهر متيبس وقد بدا عليه الألم، بدا أنه يعاني من آلام دائمة، لكنه ظهر مكابرًا على تلك الآلام كجندي صلب، كان جسمه مغطى بندوب حروق قديمة، لا بد وأنه مر بمحنة مروعة، خجل إيميل من إحساسه بأنه محظوظ ولو لفترة وجيزة لأن ما أصابه يبدو أخف وطأة مما وقع للرجل، على أي حال، عندما التقت عينا إيميل بالرجل، نظر الرجل إلى إيميل بشفقة دفعته لإغلاق عينيه عن فيض التعاطف ذاك.

بالطبع... كان هو الشخص ذي الجسد المتصل بالأنابيب، هو الشخص الذي يحتاج إلى المساعدة في التنفس، هو الشخص الذي تعرَّض لشيء سيئ للغاية، لم يكن يعاني من ألم جسدي، ومع ذلك، استخدم إيميل إبهام يده اليمنى لضغط الزر الأحمر للأنبوب المستطيل الأبيض.

بينما كان إيميل يحاول النوم، بدأ أنين المريض في القسم رقم 10 بالتحوُّل إلى كلام بذيء، فتح إيميل عينيه ونظر إلى المريض؛ كان رجلًا أبيض البشرة بمظهر متميز، وقد استلقى على السرير بنفس الطريقة التي كان إيميل مستلقيًا بها. بدا الرجل محترمًا، لكنه يستخدم مفردات البحَّارة... كمٍّ كبير من هذه المفردات، أكثر من ممرضة ذهبت لرعايته، لكنه لم يتفوه بأي كلمة لطيفة، اشتكى بأنهم غير أكفاء، وأنه يتألم... كان يعاني من ألم مبرح طوال النهار... وطوال الليل... طوال حياته... ولم يهتم أحد.

في خضم كل هذه التصرفات الغريبة، كان رجل هندي في وضعية الجلوس على سريره في القسم رقم 11، نهض، ومشى ببطء شديد حتى وقف بجانب الجدار الزجاجي لغرفته، كان يراقب كل ما يجري بتعابير لم يفهمها إيميل، كانت يداه متقاطعتين خلف ظهره، وهو يهز جسده برفق وتناغم ذهابًا وإيابًا، كما لو أنه يحاول تهدئة شيء ما في أعماقه.

ثم... كان هناك... إيميل كويتزي... في القسم رقم 7، لم يكن لديه أدنى فكرة عما أصابه، وكيف أتى إلى هنا، أو ما الذي سيحدث له، هل كانت هذه نهاية حياته، أم أنها مجرد مرحلة فاصلة... أو فاصلة منقوطة... أو مرحلة جائزة الحذف؟ ما الذي يتربص به على الجانب الآخر من أيٍّ من تلك النتائج المحتملة؟

لا بد وأن إيميل كان يحلم، لأن عيني ديزي ظهرتا فجأة من العدم، وبدأتا النظر إليه.

سأل:

- ديزي؟

وعقله ما زال مشوشًا بسبب النوم، تفاجأ أنه سمع صوته، لاحظ أن قناع الأكسجين لم يعد على وجهه، وأن حلْقه لم يعد جافًّا. أعاد السؤال بصوت ضعيف: - ديزي؟

ابتسمت عينا الممرضة له.

رمش بعينيه ورأى بوضوح، ربما للمرة الأولى منذ إحضاره إلى هنا، تلك العينان... عينا ديزي، لهذا السبب كانتا مألوفتين جدًّا.

كرر طرح السؤال، بثقة أكبر هذه المرة:

- ديزي؟

بعينين باسمتين قالت شيئًا لم يستطع فهمه تمامًا، تجهم وجه إيميل لأنه لم يفهم.

كررت الصوت مجددًا، ببطء هذه المرة، وازداد عبوس إيميل.

ازدادت الثنايا في زوايا عيني الممرضة في إشارة إلى اتساع ابتسامتها من وراء الكمامة، تركتْهُ وذهبت خلف المكتب المائل، وأحضرت بلوزة محبوكة كحلية اللون، وعليها شارة اسمها: س ي ب و ن و ب و ل ي م ت ي ت و ا.

احتار إيميل من أين يبدأ.

قالت:

- سيبونوبولي متيتوا، سيبونوبولي.

بالنسبة إلى إيميل، هذا الاسم كان عبارة عن أصوات فقط.

- سيبونوبولي.

الشيء الوحيد الذي استطاع إيميل فهمه هو أن الصوت يحتوي على خمسة مقاطع لفظية، ما الذي يجعل أسماءهم معقدة هكذا؟ ما الذي دفعهم لإغراقها بمعانٍ وأغراض تثقل كاهل حاملها إلى الأبد؟ ما الذي يدفعهم لجعلها صعبة اللفظ؟

جزم إيميل أن أي اسم ينبغي أن يكون جميلًا، ويتكون من ثلاثة مقاطع لفظية على الأكثر.

كررت الممرضة الاسم:

- سيبونوبولي.

- سي... سي... سيبو...

ضحكت وهزت رأسها.

- سي... بو... نو... بو... لي... سيبونوبولي.

أخطأ إيميل في لفظ الاسم عدة مرات، ما دفع الممرضة للضحك، وجد نفسه يبتسم، ليس للمرة الأولى منذ وجوده هناك.

سأل إيميل مستسلمًا:

- ما الذي يعنيه الاسم؟

- "نحن نرى الجمال"، أو "رأينا الجمال".
قال إيميل وهو يشعر ببعض السخافة لعجزه عن إيجاد صفة أخرى: - يا له من اسم... جميل.
لقد كان اسمًا جميلًا حقًّا.
- هل يمكنني مناداتك بـجميلة؟
رفعت كتفيها، ثم أومأت برأسها قبل أن تعود للجلوس خلف المكتب المائل، وتنشغل بتدوين بعض الملاحظات، أحس إيميل أنه خيب أملها بعدم المحاولة أكثر، اكتشف أنه لا يريد أن يخيب أملها.
- يمكنني المحاولة، "بولي".
قال وهو مدرك تمامًا أنه أخفق في لفظ هذين المقطعين، نظرت إليه وابتسمت مع تلك العينين اللتين تشبهان عيني ديزي إلى حد كبير.
نظر إيميل حوله –الأسرَّة القابلة للتعديل والتي يمكن التحكم بها عن بعد، وشاشات الكمبيوتر، ومضخات المورفين الفردية، ومكتب التمريض، والمزيج العرقي للكادر الطبي والمرضى فسأل: - هل نحن في المستقبل يا بولي؟
عبست سيبونوبولي، وهزت رأسها.
نظر إيميل باهتمام شديد إلى مكتب كادر التمريض متعدد الأعراق، والأدوات والأجهزة الكثيرة الموجودة في عنبر المشفى، كأنما أدركت سيبونوبولي ما يفكر به إيميل، فأوضحت: - نحن في عام 1979، ولدينا أول رئيس أسود، وحكومة متعددة الأعراق.
عام 1979؟ رئيس أسود؟ حكومة متعددة الأعراق؟ إذًا، لقد كان المستقبل، كم مضى عليه من الوقت هنا؟
- منذ متى وأنا...؟ لماذا أنا...؟ كيف...؟
بمجرد أن بدأ بطرح الأسئلة، أدرك أنه قد لا يودُّ بالضرورة أن يعرف الإجابة.
قالت سيبونوبولي بلطف:
- حسب المعلومات، تعرضتَ لسقوط خطير على الدرج في أثناء العمل.
بدا الأمر أفضل بكثير مما كان يخشاه، لكن نظرًا للطريقة الهادئة التي وصلته بها الأخبار، لا بد وأن هناك قطبة مخفية في القصة.
حينها، تذكر إيميل عام 1978.
انطلق إيفرلي للمشاركة في حربٍ لم يعد منها، قام مسؤولون رفيعو المستوى في الجيش بزيارة المنزل في بروكسايد، وأعربوا عن أعمق تعازيهم وأسفهم، وأوضحوا بصوت واحد أنهم بذلوا قصارى جهدهم، لكنهم كانوا حازمين في اقتراح نعش مغلق في الجنازة، وقف إيميل وكوكي متشبثين ببعضهما بعضًا وهما يشاهدان إنزال النعش المغطى بعلم البلاد داخل أرض مقبرة آثلون، في نفس الوقت الذي انطلقت فيه 21 طلقة للتحية في الهواء،

استمرا متشبثين ببعضهما وهما يحدِّقان بذهول إلى الحفرة الكبيرة، لم يصدِّقا أن مثل هذه الحفرة العميقة والمظلمة والرطبة تحت سطح الأرض ستكون ملاذ الراحة الأبدية لابنهما الوحيد، حتى بعد مضي ساعات كانا لا يزالان واقفين هناك متشبثين ببعضهما بذهول، ويحدِّقان إلى الحفرة الممتلئة مع تربتها المرتفعة قليلًا كندبة جدري، تذكير دائم بالألم.

لم يمض وقت طويل بعد الجنازة حتى غادرت كوكي المنزل في بروكسايد لفترة وجيزة لتعيش مع بياتريس بيت- بوفورد.

أودت الحرب بحلول منتصف العام بحياة 2690 شخصًا، نصفهم تقريبًا من المدنيين السود، وفي 3 ديسمبر 1978 أسقط جولايد جوميدي طائرة ركاب من طراز فيكرز فيسكونت، ما أسفر عن مقتل العديد من الركاب ومن بينهم توأم بياتريس بيت- بوفورد، أمر إيميل بإحضار رأس جولايد جوميدي إليه بأي ثمن على طبق من الفضة، ردًّا على إسقاط الطائرة. هاجمت قوات الأمن في 19 أكتوبر 1978 مخيمات مكوشيوفريدوم للاجئين والعساكر في زامبيا، ما أسفر عن حرق وقتل الآلاف بالنابالم.

اعتاد إيميل شق طريقه نحو قعر العديد من زجاجات الويسكي.

في أحد الأيام وبعد أن لفظه نادي جنتلمانز كلوب للسادة المحترمين بلطفٍ في وضح النهار، وجد إيميل نفسه يجوب في شوارع سيتي أوف كينجز، أصبح العرق على راحتي كفيه دافئًا جدًّا مثل الدم، فدس يديه بعمق في جيوبه، لم يكن بوسعه فعل أي شيء لإيقافه، لأنه بدأ بالتسلل عبر النسيج الكاكي لسرواله، اختلس العديد من الناس النظر إليه، وقد كان مقتنعًا أنهم ينظرون إلى الدم، لم يعد يفهم المنطق الذي تسير عليه المدينة، ولم يكن يعلم وجهته.

رأى إيميل بينما كان يعبر شارعًا رجلًا بائسًا ومشوهًا على عكازين يهز علبة صفيح فيها قطع نقدية، ومن خلال الدماء بين أصابعه، تحسس بضع عملات نقدية في جيبه، اقتربَ ولاحظ أن جسد الرجل كان مشوهًا بشكل رهيب، وأن جلده البني محترق بشدة لدرجة أن المنطقة المحيطة بعينيه وفمه أصبحت متصبغة بلون وردي دائم، بدا شخصًا حزينًا، فقرر إيميل منحه أكثر من مجرد القطع النقدية في جيبه، وإعطاءه معظم الأموال الموجودة في جزدانه، بمجرد أن وقعت عيناه على إيميل، نظر الرجل برعبٍ وعرجَ بأقصى قدرته بعيدًا على عكازيه، نادى إيميل الرجل ليتوقف، وأخبره بأنه سيعطيه النقود، لم يتوقف الرجل، وبذل جهدًا أكبر للتحرك بشكل أسرع، عندما التفَّ الرجل على نفسه بشكل يائس عند مدخل أحد المباني، وظهرُه باتجاه إيميل، عندها فقط أدرك إيميل برعبٍ أنه هو السبب الحقيقي فيما أصاب الرجل من بؤس، ففتح جزدانه وألقى كلَّ ما فيه من أموال تحت قدمي الرجل، وابتعد مسرعًا.

فقد إيميل شهيته للحم منذ ذلك الحين، وتوقف عن تناولها سرًّا. ازدادت صداقته -إن كان ذلك ممكنًا- مع زجاجات الويسكي، ومع اقتراب العام من

نهايته، وجد نفسه يبذل قصارى جهده للاحتفال بعيد الميلاد مع ماريون.
قال الطاهي الذي يعمل لدى ماريون عندما فتح له الباب الأمامي بنظرة فيها حزن واعتذار: - قررت سيدتي تحضير كل شيء بنفسها.
اتجه إيميل نحو المطبخ في الوقت المناسب ليرى كيسًا قماشيًّا بوزن عشرة كيلوجرامات من دقيق جلوريا يسقط عن المنضدة إلى الأرض لينتشر في الهواء غبار أبيض ناعم، بدا المطبخ وكأنه ساحة معركة؛ كانت الخزائن مفتوحة ومحتوياتها تتساقط على الأرض، وكان الدخان والبخار يتصاعدان بشكل مقلق من الأواني والمقالي على موقد جاكسون إلكتريك ستوف الكهربائي العتيق، وكانت الغلاية تصدر صفيرًا مدويًا، وكان خلاط الطعام يمزج شيئًا بقوة. وسط كل هذه المعمعة، وقفت ماريون بمظهر المنتصر، كان طبق اللحم مغطى بطبقة لامعة، ومزينًا بحلقات الأناناس المسفوعة والكرز المتفحم، وقد وُضع بفخر على مائدة المطبخ.
استدارت ماريون ونظرت إلى إيميل عبر غبار الطحين، كانت ترتدي إزارًا أبيض مطبوعًا عليه وصفة متقنة وفكاهية لحساء التماسيح، كان الإزار ملطخًا بثلاث بقع، إحداها حمراء، والأخرى صفراء والثالثة بنية، أحد خديها كان ملطخًا بلون أسود، وقطعة صغيرة من شيء ما كانت متدلية من أرنبة أنفها، أدرك إيميل من النظرة في عينيها أن هذا الارتباك كان واحدًا من مظاهر حبه لها، لقد هيمنت على كيانه، وبدا مغلوبًا على أمره لدرجة أنه عندما قالت ماريون بنبرة منتصرة: - لم يبق أمامنا إلا السلَطة.
استجاب إيميل دون تردد:
- اسمحي لي، من فضلك.
ذهب إيميل إلى حديقة المنزل ليقطف مكونات السلَطة بنفسه، بمجرد أن سحب الخس من الأرض صدمه عنف الفعل، وبينما كان ينتزع أوراق الخس ويقطع الطماطم والخيار ويشاهد العصارة تنساب على لوح التقطيع، فكر – ولأول مرة– أن عصارة الخضار والدم هما الشيء ذاته، وأن سيلانهما دليل على اقتراف عمل عنف ما، نظر إلى يديه وتساءل عما إن كان بوسعهما القيام بشيء آخر غير التدمير.
آخر ما يذكره من عام 1978 هو مغادرة مكتبه في المؤسسة، والتوجه نحو الغرفة الخرسانية في القبو، تعثر في أثناء نزوله على الدرج، من كان يخمن أن يقع الأمر عَرَضًا؟
سأل إيميل بشكل بلاغي:
- رئيس أسود؟ هذا يعني أن الحرب قد انتهت؟
لم يستطع إخفاء الأمل في صوته.
انتهاء الحرب يعني أن تعود مؤسسة الشؤون الداخلية بسعادة إلى اهتماماتها المفترضة.

هزت سيبونوبولي رأسها بأسف وقالت:
- المقاتلون لأجل الحرية يعتقدون أن الرئيس الحالي ما هو إلا دمية في يد النظام الأبيض، ما يزال الفتيان يحاربون في الأدغال.
لاحظ إيميل أنها لم تستخدم كلمة «إرهابيين» أو «رجال العصابات» للإشارة إلى الفتيان في الأدغال، أحس فجأة بألم جسدي حاد، وضغط الزر الأحمر.
هل ستضع الحرب أوزارها يومًا؟

الفصل الخامس والثلاثون

كان إيميل كويتزي يغسل عن يديه الدماء عندما وصلت أخبار وقف إطلاق النار في الحادي والعشرين من ديسمبر 1979، وقبل أن يُغلقَ صنبور المياه الباردة راقبَ اندلاق المياه صدئة اللون التي كادت تملأ حوض الغسيل المطلي بالمينا الأبيض، لم يكن الإغلاق مُحكَمًا فواصَل الماءُ دلَفَه بقطراتٍ انصبت محملة بذكريات. غرغرتِ المياه في البالوعة، واختفت في دوامة، أمسك إيميل السدادة السوداء التي ما زالت معلقة بأعجوبة بالمغسلة، سحَبَها من سلسلتها المعدنية ليسد البالوعة، ويفتح صنبور المياه الساخنة التي ملأت الحوض حتى منتصفه.

مد كويتزي دون أن ينظر يده إلى زجاجة السائل الطبي تحت المغسلة، وسكَب قليلًا منه في الماء الذي فاضَ بسحابة تطهيرٍ واضحة، غمرَ يديه في الماء لتسري في بشرته المشققة لسعات منعشة، على أيِّ حال، لم يكن إيميل بيلاطسَ البنطي، ففرك يديه بلوح صابون أكسبهما مظهرًا نضرًا وأحمر، وبينما راح يجففهما بفوطة قماشية ذات لون أبيض باهت، قرر كويتزي الاستقالة من عمله في مؤسسة الشؤون الداخلية.

ألقى إيميل قبل مغادرة الغرفة نظرةً سريعة اعتادها على انعكاس وجهه في المرآة الشاحبة فوق الحوض. وللمرة الأولى اكتشف كويتزي نصال التعب والإرهاق التي حفرت وجهه الخمسيني أكثر من أي رجل آخر في عمره، بعد فيض الكبرياء وعزيمة الشباب وإصراره، ألم يكن حريًّا به التحلي بثقة أكبر في نفسه، أو أنها خصلة محجوزة لنوع معين من الرجال الذين لن يكون من بينهم قط؟

حدَّق إلى عينيه باحثًا عما يخفيانه، فلم يرَ شيئًا البتة! حتى في مثل هذا اليوم بدت نظرات عينيه غافلة بلا تعبير.

ألقى إيميل نظرةً أخيرة على الغرفة الخرسانية المظلمة بلونها الرمادي، ومصباحها العاري يتدلى ليحتضن بنوره الغرفة وأثاثها القديم بترحيبٍ بارد، لم تحتوِ الغرفة على أيِّ شيء لافت، فكانت أشبه ببوتقة رجولته. حاول إيميل التصالح مع هذه الحقيقة، قبل أن يطفئ المصباح ويغلق الباب خلفه بإحكام، مُخرسًا أصوات قطرات الدلف من الصنبور.

في يومه الأخير مديرًا لمؤسسة الشؤون الداخلية، دخل إيميل كويتزي وجلس خلف مكتبه، التقط كرة سوداء في داخلها تشكيلٌ مدورٌ ولامع متعدد الألوان، يبعث الإحساس بالنظر في دوامة، اعتقدَ –غير جازم– بأنها هدية من ابنه إيفرلي، ومع أنه لا يتذكر تلقيها بدت الكرةُ من الأشياء الجميلة التي قد

يرغب ابنه في تقديمها له، أو –بشكل أكثر دقة– كان ليقدمها له عندما كان أصغر سنًّا.

سحب إيميل من تحت الكرة التي يخالها هدية من ابنه الرسالة الوحيدة التي تلقاها منه، كان يحفظ كلماتها عن ظهر قلب، فلم يعد مضطرًا إلى قراءتها، لكنه أحب وزن وملمَس الورقة التي أصبحت هشة بين يديه. حاول إيميل في أثناء قراءة الرسالة إبعاد نظره عن يديه.

تحققت أمنيتك أخيرًا، لطالما أردتَني أن أقتل شيئًا، وقد فعلتُ ذلك الآن.

أرجو أن تكون فخورًا بي أخيرًا، لقد أصبحتُ الابن الذي لطالما أردتَه.

كان يقرأ النهاية بصوتٍ عالٍ دائمًا، ويسمح للكلمات بأن تضج في صمت المكتب، وعلى الرغم من ارتعاش يديه بعد الانتهاء من قراءتها، استطاع إيميل طي الرسالة بعناية ووضعها تحت الكرة التي ربما تكون هدية من ابنه.

أصبحت قراءة رسالة إيفرلي تشغل النصف الأول من طقوس صباحاته، وفي نصفها الثاني يسحب إيميل الدُّرج العلوي من مكتبه ليجلب جزدانه الصغير، ويفتحه بيدين ثابتتين مُخرجًا خمس أوراق ملاحظات مكتوبة بخط مائل نحو اليسار على ورق سماوي اللون، يضع الأوراق على سطح المكتب وفق ترتيب استلامها.

المنزل رقم 1. بايونير رود

«في العقل حوضٌ تطوف فيه الكلمات حول فكرة، والفكرة حول صوتٍ ورؤية، ومن ثم يأتي عُمقٌ لا تمسه الكلمات، وفجوة مشاعرَ خَرِبةٍ أعمق لا تمسها الأفكار».

– زورا نيل هيرستون.

«توجد سنوات لطرح الأسئلة، وأخرى للإجابة عنها».

– زورا نيل هيرستون.

دعنا نتقابل، ينبغي أن نتكلم. إتش آند إس. الجمعة الساعة 2 ظهرًا.

«عندما خلق الله الإنسان، صيَّره من عناصر دائمة الغناء واللمعان؛ ما أجَّج غيرة بعض الملائكة، فقطَّعوه إلى ملايين الأجزاء؛ ولكنه بقي على تألُّقه وشدْوِه. فحقَّروه وحوَّلوه إلى شذرات صغيرة، لكنَّها بقيت تشعُّ وتغنِّي. فغطَّوا كل واحد بالطين. لكن وحدة الشذرات وانعزاليتها دفعتها للبحث عن بعضها بعضًا».

– زورا نيل هيرستون.

حقيقة إيميل الرجل كانت كامنةً في موضعٍ ما بين رسالة ابنه، وأوراق الملاحظات الخمسة من المرأة التي أحبها، تمنى لو استطاع تحديد هذه النقطة بالضبط ليرسم ملامح أكثر ثقة واكتمالًا عن نفسه. وكغيره من الرجال في الخمسينيات من أعمارهم، أراد الحصول على طمأنينة دون جدوى. تخيّلَ

هؤلاء الرجال وهم ينظرون إلى ملامحهم المنعكسة في المرايا، وما يتملكهم من أحاسيس مثل الرضا، أو الثقة أو الاستكانة.

في المناسبات النادرة التي نظر فيها إلى نفسه في المرآة، لم يشعر إيميل قط بأيِّ شيء محدد. كان عالمه الداخلي مليئًا بمواقف معلّقة لم تمنحه الاستقرار. طوال حياته اقتصرت قدرته على استيعاب الأمور بعموميتها، دون الغوص في اختبار حقيقي لكليتها، وها قد وجد نفسه في خضم شيء بدأ للتو. كان قادرًا على التحوُّل بسهولة شديدة إلى نوع آخر من الرجال، فقط لو عرف كيف يكون أيَّ شيء آخر غير نفسه.

إن قُدر لقصته الظهور، ينبغي أن تروي تفاصيلها انهزاماته في الرسالة، والانعكاسات الإيجابية في أوراق الملاحظات. يتعين سردها بترتيب زمني وأسلوب خطي، مع بداية وعرض وخاتمة محددة، بعيدًا عن هُراء البدايات العصرية للقصة من منتصفها أو نهايتها. يجب أن تروى بهذا الأسلوب لأنها الطريقة الوحيدة لفهم أي منطق من الغرفة الخرسانيّة المظلمة بلونها الرمادي، ومصباحها العاري، والصنبور الذي يواصل دلف المياه بقطرات، والرجل ذي اليدين الملطختين بالدماء.

الفصل السادس والثلاثون

عندما وضعت الحرب الأهلية أوزارها أخيرًا كانت قد أودت بحياة أكثر من عشرين ألف شخص: قضى أكثر من عشرة آلاف مقاتل من العصابات المسلحة نحبه داخل حدود البلاد؛ قُتل حوالي ثمانية آلاف مدني أسود البشرة، وخمسمائة مدني أبيض البشرة على يد قوات الأمن والعصابات المسلحة على حد سواء، وتجاوز عدد القتلى الذين فقط منحوا كوكي راحة البال، الألف شخص من قوات الأمن، كانت هذه الأرقام متحفظة نوعًا ما لأنها لم تأخذ بعين الاعتبار عددًا لا يحصى من رجال العصابات المسلحة واللاجئين المدنيين الذين أودت بهم الغارات التي شُنت على زامبيا وموزمبيق.

وقف إطلاق النار في حد ذاته كان نوعًا من خيبة الأمل، بعد كل الأرواح التي أزهقت جراء أفعال ثلة من الأشخاص، لم يكن الانتصار في النهاية أكثر من مجرد أقوال، لا أفعال. عُقد مؤتمر لانكستر هاوس في لندن، ونجح حيث أخفقت كل المحادثات السابقة وأدى إلى إنهاء الأعمال العدائية، وظهر هذا النجاح المتأخر للمحادثات كمهزلةٍ على غرار المصافحات والابتسامات الودية بين جميع اللاعبين الرئيسيين في الحرب الأهلية، والتي حرصت عدسات الصحافة الدولية على التقاطها، ما دام الحل بمثل هذه السهولة، فما الداعي لكل الدماء التي سالت؟ ما زاد الطين بلة أن هذه الحرب الأهلية التي دامت أكثر من خمسة عشر عامًا لم تُفضِ إلى تحديد منتصر واضح.

فيما يخص إيميل، فإن الشيء الإيجابي الوحيد الذي جناه من وقف إطلاق النار هو أنه وكوكي –أخيرًا– تمكنا من إعلان الطلاق، كانت معدلات الطلاق خلال الحرب مرتفعة بشكل استثنائي، وهكذا وعندما طلبت كوكي الطلاق من إيميل، أخبرتهم الولاية عن طريق راذرفورد أن الروح المعنوية للسكان البيض كانت شديدة الانخفاض، ونظرًا لكونهما من أبرز الأزواج وأكثرها شهرة في البلاد، وُجهت إليهما النصيحة بالتريث.

لم ترغب كوكي في استمرار الزواج، انتقلت للتو تاركة وراءها كل شيء، حتى ملابسها، اصطحبت معها جميع ألبومات الصور والأفلام قياس 8 ملم التي تحتوي على ذكريات صبيها الجميل ذي الشعر الذهبي، وبعضًا من أكثر أشيائه المفضلة بما فيها حلقة الهولا هوب الزرقاء.

جرفت الحرب كل شيء يستحق الاحتفاظ به والقتال من أجله، وأرادت كوكي أن يعرف المستقبل هذا.

فوجئ إيميل بنفسه عندما فكر في الهجرة إلى بلد آخر، لم تخطر هذه الفكرة بباله سوى مرة واحدة، لكنها كانت كافية، دون سابق إنذار كانت حياته

قد وصلت إلى طريق مسدود، بعد كل ما عاشه من زخم دائم الدفع نحو الأمام، بالتأكيد لا يمكن أن يُفضي ذلك إلى طريق مسدود دائمًا.

كلما حاول التفاؤل بالمستقبل، رأى تلك الأجساد السوداء التي لا حصر لها، والتي عُرضت في تقارير الحالة... جماجم محطمة... أجساد منتفخة ومتفحمة... أطراف مقطعة... عيون سوداء مفتوحة بنظرة تحديق دائمة... دمى مثيرة للشفقة في ذلك المسرح الغريب للحرب، لأسباب مفهومة كان من الأسهل عليه التفكير في تلك الجثامين بدلًا من الأجساد السوداء التي غادرت ذا تاور مصابة ومشوهة ومكسورة، كان يدرك وجوب تعويض هذه الخسارة في المستقبل، الدرس الوحيد الذي ينبغي أن يُدرَّس في حصص التاريخ بكفاءة هو أن الحرب لا تولِّد إلا الحرب، وأن ذكريات الخسارة طويلة جدًّا.

أدرك إيميل بعد فوات الأوان أن المشروع الإمبريالي سيكون منطقيًّا فقط لو نجح، لقد نسي ماستر دوثي الإشارة إلى هذا في صف التاريخ، أليس كذلك؟ أين يصبح الرجال الذين يصنعون التاريخ إذًا؟ ما هو مصير إيميل كويتزي؟

أحس إيميل بالارتباك والحيرة عندما وجد نفسه –فجأة– دون مستقبل يتطلع إليه، الشيء الوحيد المؤكد هو أنه لن يعمل مع مؤسسة الشؤون الداخلية، وللمفارقة لم يتأثر بإنهاء ارتباطه مع المؤسسة الآن بعد انتهاء الحرب.

كان إيميل يرتدي قميص الدنيم، وبنطالًا كاكي اللون، وحذاء فيلت سكونا الجلدي وقبعة رعاة البقر، بينما استلقت ماريون تنظر إليه بتقدير من سريرها -وهي طريقة لطيفة تنظر فيها امرأة في الخمسينيات من عمرها إلى رجل في الخمسينيات من عمره-. أدرك إيميل أن رياح التغيير جعلت رجالًا من أمثاله أشبه بآثار من حقبة ماضية.

قالت ماريون كما لو أنها قرأت أفكاره:

- بمجرد أن يُطبق الاستقلال، سيفتح أحد أصدقائي حديقة للألعاب، واحدة من تلك الوجهات المغرية للسياح، وهو يبحث عن مشرف على تلك الحديقة، وأخبرتُه أنك ربما تهتم بذلك.

- مشرف على حديقة الألعاب؟

قالت مازحة:

- لديك بالفعل الملابس المناسبة لهذه الوظيفة.

كانت ماريون تقدم له بداية جديدة، وفرصة ثانية، وقد تساءل عن قدرته على إيجاد سبيل آخر للعيش في هذه البلاد.

- عِدني أنك ستفكر في الأمر.

ابتسم إيميل ردًّا عليها، وجلس إلى السرير وراح يمرر إبهامه على فمها.

- إيميل...

قبَّل شفتيها اللتين نطقتا اسمه.
للحظة، سمح لنفسه بتخيل المستقبل الذي صورَتْه له.
حدَّقت ماريون عميقًا إلى عينيه وقالت:
- لطالما منحت الطرق مسافريها فرصة العودة، تذكَّر ذلك، تأكدْ من ذلك.
أراد أن يصدقها بشدة.
- أريد أن أشيخَ معك، وليس مع ذكراك.
قالتها ماريون ثم قبَّلته حتى أدرك تمامًا صدق كلماتها.
نهضت ماريون من السرير، واتجهت نحو خزانة ملابسها لتحضر منها شيئًا، كان وشاحًا باهتًا وعزيزًا باللونين الأزرق والأبيض، كانت تستخدمه لربط شعرها نحو الخلف.
كاد قلبه يطير فرحًا بمجرد أن وقعت عيناه على الوشاح:
- كنت أعلم! طوال تلك السنين، كنت أعلم.
قال إيميل دون أن يستطيع مقاومة الرغبة في ضمها بين ذراعيه.
سألته ماريون وهي تبتسم بارتباك:
- كنت تعلم ماذا؟
- لطالما عرفت أنها أنت.
- يا لروعة هذه العبارة.
قالتها ماريون وهي تضع ذراعيها حوله، وتريح رأسها على صدره لتصغي إلى دقات قلبه.
- أعتقد أنك أصبحت رومانسيًّا في شيخوختك يا سيد كويتزي.
ضحك إيميل وقبَّل أعلى رأسها، حيث نبتت خصلة من الشعر الرمادي، واتخذت لها موطنًا دائمًا هناك.
ربما... ربما فقط... يستطيع حبه لها أن يصنع مستقبلًا هنا.
قال إيميل بتردد:
- انتهت معاملة الطلاق.
رفعت ماريون رأسها ببطء ونظرت إليه حتى تتأكد من تمام فهمها لمغزى العبارة.
- حياةٌ نعيشها معًا عند الشفق، أحب ذلك حقًّا.
كان إيميل واثقًا من أنه سيحب تلك الحياة أيضًا، فابتسم لها، لكن ماريون توقفت عن الابتسام، حلت ذراعيها من حول خصره، ورجعت خطوة نحو الخلف، وقالت وهي تبتعد: - كنتَ شجاعًا بما يكفي لمشاركتي حقيقتك، سأصدقك القول، لم أتحلَّ قط بالشجاعة الكافية لمصارحتك بحقيقتي، لطالما خشيت من ردة فعلك.

تأملته مطوَّلًا قبل أن تفتح صندوقًا عتيقًا في زاوية الغرفة، تناولت منه شيئًا ما وضمته إلى صدرها كسرٍّ ثمين. قالت وهي تتجه نحوه.

- حقيقتي هي أنني... أنا حفيدة فريدريك كورتني سيلوس.

لم يفهم إيميل تمامًا، ما الذي يدفع ماريون لإخفاء صلتها برجلٍ تدرك حقيقةً أنه بطل إيميل منذ طفولته؟ كان إيميل يعرف أن فريدريك كورتني سيلوس كان لديه ولدان: فريدريك هارثرلي بروس سيلوس، وهارولد شيربورن سيلوس، هارثرلي... هارثلي، لطالما افترض أن الولدين عاشا حياتيهما في إنجلترا، لكن من الواضح أن أحدهما لم يفعل ذلك.

تأملته ماريون مطولًا من جديد، وأخذت تزن أمورًا مجهولة عن إيميل في عقلها، قبل أن تسلمه ذلك الشيء الذي أخرجتْه من الصندوق.

ألقى إيميل نظرة خاطفة عليه، كان عبارة عن صورة شمسية قديمة لامرأة طويلة ذات طلة ملَكية، ترتدي ملابس مزركشة وحِليَةً من الطراز الفيكتوري، كانت امرأة جميلة ومعتدة بذاتها، وعلى الرغم من عيوب الصورة استطاع إيميل ملاحظة بشرتها السوداء بوضوح، حتى مع ترويضه في شكل كعكة، كان من الواضح أن شعرها الكثيف قد خاض عراكًا قبل تصفيفه في جدائل سوداء ملتفَّة، على الرغم من كونها صورة بالأبيض والأسود فإن عينا المرأة كانتا لافتتَين ونابضتين بالحياة. كانتا مألوفتين لإيميل.

- ماجدالين سيلوس، ابنة فريدريك كورتني سيلوس، جدتي، والدتها امرأة من ماتابيلي.

عرف إيميل الحقيقة الآن؛ تلك الحقيقة التي فعلت كل شيء باستثناء منحه وعدًا بالحرية.

نظر إيميل مجددًا إلى عيني ماجدالين سيلوس.

حدَّق إيميل بافتتان إلى عينَيْ ماريون اللازورديتين.

لقد أحب تلك العينين حد الجنون.

كان يعرف من كثب كل الأشكال والحالات المزاجية لتلك العينين.

ماريون...

حاولت مرارًا إخباره بالحقيقة، لكنه اختار –في كل مرة– أن يكون أعمى، أعمى للأبد.

كيف استطاع عيش حياته كلها مع عينين فاق جمالهما الخيال؟

كيف استطاع أن يهيم بحبها تمامًا، ويذوب في غرامها، ويضحي كثيرًا لأجلها دون أن يعرفها بشكل كامل؟

بيده المرتجفة، أعاد الصورة الشمسية.

- هل كان كورتني على علمٍ بذلك؟

- نعم، منذ البداية تقريبًا.

بالطبع.
شعر إيميل بحرارة متزايدة الارتفاع عند مؤخرة رقبته، وأصبح رأسه خفيفًا فجأة. وُلد في إفريقيا، ولن يتأثر بحرارتها التي لا ترحم.
ما الذي كان يفعله؟ لماذا ابتعد عنها؟
راقب إيميل اتساع المسافة بينهما، بينما وقفت ماريون هناك مع وشاحها الأزرق والأبيض، كان ذقنها مرفوعًا، وكتفاها نحو الخلف، ورأسها شامخ، بدت فخورة على الرغم من عينيها الباكيتين.
- منذ أن رأيتكَ خارجًا من نادي جنتلمانز كلوب أول مرة، وأنا أخشى الوصول إلى هذه اللحظة.
أكد إيميل أنه لن يتركها، كانت الحرارة هي السبب، كان بحاجة إلى الوجود في مكان أكثر برودة، وسيصبح كل شيء على ما يرام مرة أخرى، لكن في الوقت الراهن، كان بحاجة إلى الوجود في مكان آخر.
قاد إيميل سيارته من طراز بيك أب نحو أبعد وأعمق الأماكن في السافانا، لم يسِر ضمن قافلة، ولم يصادف أيَّ كمين، عاد مجددًا إلى رجل في إفريقيا يتمتع بحرية السفر كيفما شاء، ودون خوف. إنها الحرية التي امتلكها واستمتع بها يومًا، كانت حرية انتزعتها الحرب منه.
تجمَّعت سحب ماطرة عند خروج إيميل من سيارته، لم يجلب معه بندقية، ولم يجلب معه سكينًا، لم يُحضر أي سلاح لحماية نفسه، مشى بين أعشاب الفيل وتاه بين ترانيمها في السافانا، مشى حتى تعبت ساقاه وأرهق جسده، سار دون أن ينظر خلفه، ظل متطلعًا نحو الأمام... نحو المستقبل... مستقبله.
تكشفت الغيوم الماطرة عندما ألقى إيميل نظره نحو السماء ليرى الشمس تشع بإشراق... كنفحةٍ ربانية، لطالما كانت الشمس هنا، متسترة بالغيوم، لطالما كان إيميل مسحورًا بهذا الوجود الدائم للشمس، فمد يده نحوها ليلمسها، فسارعَت للاحتجاب مجددًا، هذا الوجود الخفي للشمس منح إيميل شعورًا بالراحة.
نظر إلى الطبيعة الريفية الرحبة مستمتعًا ببهائها، حيث بدأت الرياح البرية بمداعبة أعشاب الفيل وإغوائها للغناء والانتشاء قبل أن تقترب لتلثم خديه، أغمض إيميل عينيه وأخذ نفسًا عميقًا ليتشبع جسده بالجمال المحيط، وفيما تغلغل هذا الجمال بين حنايا جسده، تحوَّل إلى شيء آخر استحوذ على نسيج كينونته وحياته بمذاقٍ عجيب ونبيل يسمونه الحب، ذلك الشيء الذي أحس به ناقصًا مع ابنه، مع المرأة التي أحبها، ومع صديقه الحقيقي الوحيد، ومع والديه وبلاده، وأدرك أنه يعتز به طوال أيام حياته.
فتح عينيه واستطلع البراح الريفي الرحب المحيط به، وتابع المسير... ومشى أكثر... وأكثر... حتى تلاشى شيء ما بداخله وانحنى فجأة بعيدًا عن الانتظام، وغاصت ركبتاه كما لو أنه يتلو صلاة صامتة.

وضع يديه على الأرض أمامه، عندما أصبحت أطرافه الأربعة على الأرض، أصبح مقتنعًا أن يديه تحوَّلتا إلى مخالب، تحلى بالشجاعة في هذه المرة ونظر إلى نهاية ذراعيه، كان متفاجئًا جدًّا عندما وجد يدين، يدي إنسان، يديه هو.

نظر إلى يديه باستغراب تام.

ما الذي يمنعه من أن يكون حيوانًا؟

ما الذي يجعله رجلًا؟

ما هي السمات المحددة لصفة الرجل؟

جاءت الإجابة إلى إيميل على هيئة قصة تكشفت فصولها في عقله، شاهد يوم مولده في ديربان، جنوب إفريقيا، وطفولته في البلدة الاستعمارية التابعة لشرطة جنوب إفريقيا البريطانية عند سفوح مرتفعات ماتوبوس، ومراهَقته في مدرسة سيلوس للبنين، ومرحلة شبابه مديرًا لمؤسسة الشؤون الداخلية. شاهد الأشخاص الذين شكلوا ملامح حياته بأكملها: والداه، جوهان وجيما كويتزي، والنساء اللواتي عرفهن وأحبهن -على طريقته-، وماريون هارتلي، وكوكي سيدجويك وماريفون دي رازبريدجر، وابنه إيفرلي ريجينالد كويتزي، وأصدقاؤه، كورتني سميث- سينكلير، واللورد أشتونبيري وكليمانت راذرفورد، وحمواه، ريجينالد ودوروثي سيدجويك، كانت قصته غنية بالتفاصيل لدرجة أنها ضمت سكوت فيتزجيرالد، ووالتر موسجريف، وليلي وطفلها الأسمر، والسيد بارتلبي، وماستر آرتشي، وماستر دوثي، وأساتذة آخرون من مدرسة سيلوس للبنين... سبوكس مُولوي، ومايكل ميريديث وديزي... أونيس وإمبونجيني ماسوكو وابنهما الذي كان يودُّ أن يصبح طبيبًا في المستقبل... سيبونوبولي متيتوا والمرضى والممرضات في وحدة العناية المركزة، حتى إنها تضمنت إشارة إلى المرأة التي قابلها في آخر أيامه في المؤسسة، ساسكيا هارجريف، والتي أرادت كتابة قصته.

ما يجعل الرجل رجلًا هو قصة حياته، وقد كانت قصة حياة إيميل زاخرة بأشياء يودُّ التعريف بها، وجوانب أخرى لم يشأ نبشها من مكمنها، استعرضت القصة ذاتها في ذهنه بأسلوب موضوعي لا يخلو من التعاطف معه في مواقع فضَّل فيها درجة أقل من التسامح، لحسن الحظ تكشفت مفردات القصة بتسلسل زمني خطي، ومع مقدمة وعرض وخاتمة ما جعل كل شيء منظمًا ومرتبًا دون إسهاب.

ومع ذلك بقيت بعض الصور ماثلة:

رياح شديدة تمايلت لها أعشاب الفيل المترنمة، قبل أن تقبِّل وجنتيه.

حفلات رقص الفوكستروت، والمذاق الشهي لعصير الليمون الفاتر.

المصباح الذي أضاء على صداقة حديثة العهد.

القطعة الدافئة من قلب الحيوان، والتي أصبحت جزءًا دائمًا منه.

فتاة ترتدي وشاحًا بلونَيْ الأزرق والأبيض، وهي تتزلج برشاقة على الجليد الرقيق.
شابة تراقب المحيط الهندي، وتستمع لألحان مياهه الملونة بالأخضر والأزرق.
امرأة تقبِّله، وتقبِّله أكثر وأكثر، لتأخذ منه شيئًا لم يقصد منحه.
يدٌ مرتجفة من الخوف وهي تحمل صبيًّا حديث الولادة، أروع مخلوقات الله وأكثرها جمالًا.
والنهايات الفضفاضة بطبيعة الحال.
كانت هناك، تلك الغرفة الخرسانية المظلمة بلونها الرمادي، ومصباحُها العاري، والصنبور الذي يواصل دلف المياه بقطرات، والرجل ذي اليدين الملطختين بالدماء، وكانت هناك نهاية القصة التي كشفت المنطق الكامن في كل هذه الأشياء.

-انتهى-

أولًا: ينبغي أن ندرس أولًا كيف لجأ المستعمِر إلى نزع الحضارة عن المستعمَر، وقمعه وقهره بالمعنى الحقيقي للكلمة، وتحقيره، وإيقاظ ما فيه من غرائز وطمع وعنف وكراهية عرقية.
– إيمي سيزير، «خطاب عن الاستعمار».
ثانيًا: الحقائق لا تنشأ متساوية، لأن أعمال التتبع تترافق دائمًا بالصمت.
– ميشيل رولفترويو، إسكات الماضي.
بمعنى آخر، أي سردٍ تاريخي للأحداث هو حزمة معينة من فترات الصمت.
– ميشيل رولفترويو، إسكات الماضي.